وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

أرض السّحر

شفيق جبري

ارض السحر

ألطبعة الاولى

١٩٦٢

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

أرض السّحر

شفيق جبري

كتب لي أن أرحل الى أميركة رحلتين : الأولى سنة ١٩٥٣ والثانية سنة ١٩٥٦ ولقد جلت في مناكب أرضها من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ، فنعمت بكثيرمن مشاهد طبيعتها وأنست بكثير من جامعاتها ووقفت على بعض خصائص الأميركان في آفاق تفكيرهم واجتماعهم وعملهم واطلعت على طائفة من مجهوداتهم في مقاومة الطبيعة بعد مقاومة الهنود ، وكنت أدون كل يوم ماتوحيه الي هذه الأمور حتى نشأ هذا الكتاب الذي سميته : أرض السحر ، وشرحت في بعض فصوله السبب في هذه التسمية ، فاذا استطاع القاريء الكريم أن يرى في تضاعيفه ما أبقته الرحلة في نفسي من مختلف الآثار التي أعربت عنها جريا على الطبع وحده وبعداً عن أي تكلف وإيثاراً لكل تجرد فقد ظفرت بما أردت •

دمشق • آذار ١٩٦٢ شفيق جبري

فكرة الرحلة

زارني في كلية الآداب في يوم من أيام الصيف سنة ١٩٥٣ الدكتور فيليب حتي رئيس قسم لغات الشرق وآدابه في جامعة « برنستن » « Princeton » والسيد دونالد سنوك « Donald Snook » الملحق الثقافي في سفارة أميركة في دمشق وسألاني رأيي في رحلة الى الولايات المتحدة لحضور مؤتمر الثقافة الاسلامية في جامعة « برنستن » على أن أقضي تسعين يوما في أميركة أجول خلالها في مختلف آفاقها ، ثم بسطا لي فكرة الرحلة ، فان حكومة الولايات المتحدة قد أحبت أن تدعو طائفة من رجالات الشرق الى زيارة بلادها حيث يتعرفون الى من يهمهم أمرهم من أهلها ويتناقشون في الشؤون التي تعنيهم .

لقد رضيت بهذه الرحلة دون أن أبالي بها كثيراً لأني على قدر رغبتي في السفر قبل خمس وعشرين سنة أصبحت رغبتي في الاستقرار والهرب من المتاعب ، فمن عشرين سنة ، أي من بعد رحلتي الى اوروبة والحجاز ونجد ، لم أرحل رحلة فيها تعب ، رضيت بهذه الرحلة واقترحت على الزائرين الكريمين أن يُدعى أساتذة كليتنا وأساتذة جامعتنا الى مثلها ، كل واحد في نوبته ، فقال الدكتور حتي : نبدأ اليوم بعميد الكلية وسنكتب الى حكومة الولايات المتحدة بقبولك ، ثم ودعاني وانصرفا .

طال علي بعد وداعهما انتظار جواب الحكومة ، فوقفت موقفاً حائراً ، لست أعلم هل أسافر أم لا ، حتى خفّت في نفسي الرغبة في هذا

السفر ولم أعد أهتم به ، واني في يوم من الأيام لمنحدر الى داري من متنزه « أبو زاد » في بلودان اذ تبعني في الطريق مجذوب من المجاذيب جاراني ليسليني ، وفي أثناء المشي أخرج من ثيابه علبة صغيرة فيها صور متحركة وقال لي : تفرج ، فأخذت العلبة وشرعت أنظر الى الصـور فوقعت عيني على بقعة من بقاع أميركة على المحيط الهـادىء ، وعلى ساحل هذا المحيط نخيل ممتد ورجال من الهنود ، لقدكان لهذه الصورة أثر في نفسي ، فقد عادت الي الرغبة في السفر وخرجت من الحيرة التي كنت فيها ، واني لكذلك اذ جاء جواب حكومة الولايات المتحدة ، فقد أعلمتني السفارة الأميركية في كتاب كتبه الي السيد « دونالد سنوك » بدعوتي من قبـل السيد ضودج « Dodge » رئيس مؤتمر الثقافـة الاسلامية الى حضور هذا المؤتمر وجعل سفري يوم الخميس في ٣ ايلول ثم غيّر هذا اليوم فجعل يوم الأربعاء في ٢ ايلول .

شؤم الأربعاء

٢ ايلول ١٩٥٣

لما كنت طفلا كنت أسمع في الدار التي نشأت فيها أن جدي رحمه الله يجد شؤما في السفر يوم الأربعاء وقد رسخ هذا المعتقد في ذهني حتى كبرت وترعرعت ، فسلمت من كثيرمن الخرافا تو المعتقدات الباطلة ولكني على الرغم من هذه السلامة بقي في أعماق نفسي قليل من خوف السفر يوم الأربعاء وللأوهام عمل كبير في الانسان ، غير أن هذا الخوف لم أحفل به كثيرا ، فقد كنت مرة أسافر الأربعاء ومرة غير الأربعاء ، الا أني هذه المرة لمّا أبلغني الملحق الثقافي أن سفري سيكون يوم الأربعاء قلقت بعض القلق ورجعت الي أوهام الطفولة ، فان السفر بالطائرة من دمشق الى « نيويورك » غيرهيّن علي ، ولكن ما العمل ، فقد حجز المحل وقطعت التذكرة وقضي الأمر .

قصدت في ٢ ايلول سنة ١٩٥٣ يوم الأربعاء الى مطار المزة فوجدت إخواني أساتذة كلية الآداب حفظهم الله قد كلفوا أنفسهم مشقة الوداع ثم وجدت الملحق الثقافي جاء يعتذر الي بأدبه ورقته من أمر وقع لي في مكتب قنصل أميركة في دمشق .

ودّعني الاخوان وأسرعت الى الطائرة وهذه أول مرة أسافر فيها بالطائرة ، فقد كنت شديد الحذر من مثل هذا السفر وكنت أقول لا يمكن أن أركب الطائرة في حياتي ، غير أني كنت في السنين الماضية أسامر

جماعة من أصدقائي ركب أكثرهم الطائرة ، فكانوا يقصون عليّ السفر بها ويفيضون في الكلام على سهولة هذا السفر وعلى راحة المسافر ولكثرة ماسمعت من أمثال هذه القصص نزع عني خوف الطائرات وهذا يدل على ما للكلام وترديده من الأثر في بعض الأحوال ، فلما صعدت في سلم الطائرة وجلست مجلسي فيها وشرع ربانها يجريها لم أشعر بشيء من الاضطراب ولا خامرني شيء من القلق وكنت أعتقد أني في سيارة ، كنت مطمئن البال ، هادىء الفكر ، جلست على مقربة من شباك ، فكنت أضرب بعيني من الشباك ، ولكن الذي ضحكت على نفسي منه أن الطائرة لما تحركت لم أشعر بسرعة حركتها ، فكنت أنظر الى الأرض من تحتها فأرى خطوطاً خضراً ، فكنت أظن أن هذه الخطوط حدود لها توضّح لها سيرها ريثما تقطع المطار وتحلق في الفضاء ولم أدرك أن هذه الخطوط الخضر بساتين صغيرة واقعة على ضفتي بردى وأن الطائرة سائرة سيرها وأنها قطعت المطار ولا خطوط ولا حدود ، وهذا الوهم نشأ عن أن هذه هي أول مرة أسافر فيها بالطائرة .

بعد نصف ساعة وقفت الطائرة في مطار بيروت ، فانحدر الركاب منها ودخلوا المقصف ودخلت معهم وأنا شديد التحفظ ، كنت أخاف أن تجري الطائرة وأبقى في المطار ، فتعرفت الى شاب رقيق الحاشية من دمشق وهو السيد أمين العجة درس في الجامعة الأميركية في بيروت وهو الآن صاحب تجارة مع ابن عمه السيد أكرم العجة في باريز ، وبقيت معه في المطار حتى جاء وقت السفر ، فخرجنا من باب المطار وبلغنا الطائرة.

جرت الطائرة فوق البحر الأبيض ، فأخذت أملأ عيني من مناظر الأرض واذا رجعت الى دفتري الذي كنت أدون فيه خواطري وجدت فيه كلمات متقطعة ولكن هذه الكلمات تدل على صور مقتضبة ، فالغيوم قد ملأت السماء وقطع السحاب قد بعثرت فيها ، حتى انكشفت لنا قبرص

ورودس ، فكنت أظن أني لا أزال فوق جبال لبنان ، فكأن هاتين الجزيرتين تتمة لسلسلة جبال لبنان .

وما زالت الطائرة تسير بنا فوق مناظر متشابهة حتى قربنا من رومة فاختلفت المناظر ورأيت مدخلاً فتاناً بطبيعته وبساتينه ، قربنا من رومة ولكن قربت من الشؤم ، شؤم يوم الأربعاء .

وقفت بنا الطائرة في رومة ، فنزلنا المقصف لنقضي فيه نصف ساعة وقد سئمت البقاء في المقصف ، فأحببت أن أجول قليلا ، فخرجت الى دكّان في جواره ، فيه بعض مصنوعات ايطالية ، ولما كنت أجهل السفر بالطائرة توجهت نحو باب من الأبواب لأذهب الى الطائرة ، فاستوقفني رجل على الباب وقال لي : انتظر في محل عيّنه لي حتى يأتي الركاب فتذهبوا جميعا ، فانتظرت في المحل نفسه ولكن وقت الانتظار طال فنزلت ثانية الى جهة الباب ، ففاجأني رجل وصاح : أين أنت ! لقد ناديناك باسمك مرات ، ان الطائرة ذهبت وتركتك ، والحقيقة لم ينادني أحد ، ولم يتفقدني أحد ولا رن المجهار [1] في أذني وانما رجال الطائرة أو فتياتها كانوا مهملين ، فاستسلمت الى الأمر الواقع وأفرغ الله علي الصبر الجميل ، وبعد دقيقة رأيت السيد أمين العجة فقال لي : هيا بنا الى الطائرة ، فقلت له : سافرت وتركتنا ، فاضطرب بعض الاضطراب .

من نعم الله علي أني تعرفت الى السيد أمين صاحب المروءة ، فقد نسي مصيبته واهتم بمصيبتي لأن سفره الى باريز وسفري الى نيويورك . أحببنا أن نمر على رومة لنبيت فيها ليلة ، فمنعني الشرطي لأن جواز سفري ليس فيه اشارة من قنصل ايطالية في دمشق ، فظللنا أربع ساعات في المطار والسيد أمين يعنى بأمري ويخاطب دار الوزارة السورية وليس فيها أحد لأن الوقت بعد الظهر ، حتى رد عليه موظف ، فشرح له السيد أمين

---

(١) مكبر الصوت

حالتي ، فأوعز الموظف الى الشرطة بالسماح لي بدخول رومة ، فدخلت بعد عذاب أربع ساعات •

هذه أول مرحلة من مراحل الشؤم في سفر الأربعاء !

قلت لصديقي السيد أمين : وقع ماوقع ، فلنذهب الى رومة ولننس هذه المصيبة •

بتنا في رومة في فندق دلنا عليه رجل من رجال شركة الطيران وقال لنا سأجيء اليكم غداً لأصحبكم الى المطار وقد كتبت الى باريز بحفظ عيـابكم •

كل شيء في رومة قد تغير ، زرتها سنة ١٩٣٤ وزرتها سنة ١٩٥٣فما أبعد الفرق بين العهدين ، عهد موسوليني وعهد الدولار الاميركي ، أيام موسوليني كنت لاأرى امرأة جالسة في مقهى ، كنت أرى الرجـال في المقاهي اذا مرّت امرأة على الرصيف أكلوها بعيونهم ، أما الآن فان المقاهي في هذا الشارع الذي نسيت اسمه وهو صورة صغيرة لشارع « الشان اليزه » في باريز قد ملئت مداخلها بالرجال والنساء ، لقد ظهر أثر النعيم على رومة ، ظهر أثر الدولار ، كثر العمران وغلت الأسعار •

٣ ايلول ١٩٥٣

لابد في هذا الصباح من زيـارة صديقين لي : وزيرنا في رومـة ، ووزيرنا في الفاتيكان ، أما الأول فما كدنا نفرغ من التعانق حتى شكـا الي الضيق وقال إنه لايستطيع اذا جاءه ضيف أن يسقيه فنجان قهوة ! وأما الثاني فقد صاح بفتاة ايطالية تكتب على الآلة وعرفنا اليها وقال : انها أديبة تعنى بالشعر انتخبتها بالمسابقة ، ولما كانت ذات جمـال بارع قال السيد أمين للوزير : مسابقة جمال !

زرنا الصديقين وعدنا الى الفندق ، فجاءنا رجـل من رجال شركة

الطيران وذهب بنا الى المطار ، فركبنا الطائرة ووصلنا الى باريز في العصر، وقد اختلفت مناظر فرنسة عن مناظر قبرص ورودوس ، فالأودية من تحتنا عميقة والسهول مديدة ، نزلنا من المطار ودخلنا مركز الشرطة ، فرأينا مدير مكتب أكرم العجة في باريز واسمه « بتي » ينتظر السيد أمين • لقد حاولت دخول باريز ، فمنعني الشرطي لأن جواز سفري خال من اشارة قنصل فرنسة في دمشق ، فظلّ « بتي » يعمل أربع ساعات حتى استطاع أن يمهد لي السبيل الى دخول باريز ، فكيف كانت حالتي لولا أمين !

دخلنا باريز في الليل ، وهي هي لم يتغير منها شيء ، لم يتغير لهوها ومرحها وفتنتها ولكن فكري ليس مشغولا بهذا المثلث : اللهو والمرح والفتنة ، اني أريد أن أصل الى نيويورك ، وقد ذهب محلي المحجوز في الطائرة واشتغل لي « بتي » يوما كاملا فلم ينجح ، لأن الأماكن مملوءة بسبب عودة السياح الأميركان الى بلادهم •

خطر ببالي حينئذ أن أراجع السفارة الأميركية في باريز لعلها تهتم بأمري ، فذهبت الى السفارة يوم السبت ، فوجدتها معطلة وما زلت أسأل حتى اهتديت الى آنسة قيل لي انها أمينة سر السفير ، فشرحت لها أمري ، فاهتمت بي كثيراً وظلت تكلم شركة الطيران : « Pan American » ساعتين ، فلم تنجح ، فعادت الي وقالت : لقد جعت ، فأنا ذاهبة الى الغداء ، ولكني أعدك أني بعد الغداء سأرجع الى العناية بأمرك ، فأعطني عنوانك وانصرف ، ففعلت ، وفي المساء جاءني هاتف منها : اني أستطيع السفر في الليل في الساعة الحادية عشرة ، فقد حجز لي محل •

كل هذه الامور شغلتني عن التفكير في عظمة السفارة الأميركية في باريز وفي مظاهر ترفها وغناها •

قبل الساعة الحادية عشرة قصدت الى المطار ، فركبت الى جنبي في سيارة الشركة فتاة عمرها عشرون سنة ، فحدثتني وحدثتها وهي تعرف

قليلاً من الفرنسية وأنا أعرف قليلاً من الانكليزية ، فتفاهمنا على قدر الأمكان ، انها في باريز من شهرين للسياحة ، وهي من « واشنطن » وقد طلبت الي أن أزورها في بلدها وحاولت اعطائي رقم هاتفها ، لقد دونت هذا الأمر في هذا المقام لأجعله جزءاً من كلامي على المرأة الأميركية وعلى نقاوة الفتاة الأميركية .

انتظرت في المطار موعد سفر الطـائرة وهي من شركة K. L. M. واني لفي مثل هذا الانتظار اذ المذيع ينـادي : السيد جبري ! السيد جبري ! فحرت في أمري وقلت : من هذا الذي يناديني في بلد لاأكاد أعرف فيه أحداً ،فأسرعت الى مخرج الصوت ، فرأيت فتاة من الفتيات تسألني : أأنت السيد جبري ؟ قلت لها : نعم ، قالت : أسرع ! أسرع ! لقد وقفت الطائرة من أجلك ، فأسرعت وأنا لم أفهم شيئا من هذه الألغاز فصعدت في السلم وما كاد يستقر بي المقام حتى تحركت الطائرة .

جرت الطـائرة ثم وقفت في ارلندة في مطـار « Shannon » فنزل الركاب وشاورت فكري في النزول ، فقصدت الى المقصف وأنا مشغول الفكر ، فقد خفت أن يصيبني ماأصابني في رومة ومن أين أجيء بالسيد أمين العجة ولكني دنوت من راكب وجلست الى جنبه في المقصف وقلت اذا تحرك تحركت معه ، وأحمد الله على أني استطعت هذه المرة أن أرجع الى الطائرة من دون قصة من القصص .

لقد شهدت وأنا في مثل هذا القلق والحذر أن العالم الذي أنا فيـه يختلف عن باريز وعن رومة من حيث ترتيب المطار ومن حيث المطعم ومن حيث السحن .

قطعت الطـائرة المحيط الأطلنطي أو الأطلسي ، ولـم أدر على أي الاسمين اعتمدوا ، حتى بلغنا مطار الكندا« Gander »فصممت هذه المرة على أن أبقى في الطائرة،فلم أنزل بنزول الركاب الذين قضوا في المقصف بعض

الوقت ، ثم رجعوا الى طائرتهم واذا نحن حول الساعة الرابعة في نيويورك ، في مطار « Idelwild »

انحدرت من الطائرة وفرغت من معاملة الجواز وجئت دائرة الجمرك لتخليص عيابي ، فلقيت سيداً يسألني : هل أنت السيد جبري ، فقلت : نعم ، هذا السيد اسمه «مارشال روث» « Marschal Rothe » وسيأتي الكلام عليه في حينه ، أرسله اليّ السيد ضودج رئيس مؤتمر الثقافة الاسلامية ليستقبلني في المطار ، قربنا من العياب كلها لتخليص عيابي فلم أجدها ، فقلت : هذه آخر مرحلة من شؤم الأربعاء ، جمعت ذهني قليلا ثم فطنت الى الأمر : ان الآنسة التي اهتمت بأمري في السفارة الأميركية في باريز أوعزت الى شركة الطيران : « Pan American » وأنا في المطار بأن تسفرني على أول طائرة الى « نيويورك » وقد كانت عيابي على طائرة ، ثم لما جاءتني الفتاة في مطار باريز وقالت لي : أسرع ! أسرع ! فأسرعت الى طائرة غير التي تحمل عيابي ، فأنا في طائرة وعيابي في طائرة ثانية ، ففصلت هذا الأمر للسيد « روث » فذهب الى مكتب شركة الطيران في المطار وسأل : هل من طائرة ثانية تصل الى نيويورك بعد قليل ، قالوا له : بعد ساعتين تصل طائرة ثانية ، فانتظرت ساعتين في المطعم ، فجاءت الطائرة التي تحمل عيابي وكان علي أن أركبها ، فأخذت العياب وجئنا نيويورك •

هذه عواقب السفر يوم الأربعاء !

٦ ايلول ١٩٥٣

دخلت « نيويورك » في المساء وذهب بي السيد روث الى فندق « Hudson » وهو فندق وسط واقع في الشارع ٥٧ على مقربة من دار صوت أميركة وعلى مقربة من شارع نيويورك المشهور « برودوي »

« Broadway » ومعناه الطريق العريض ، الواسع ، وقد تختلف الفنادق في فخامة منظرها أو عظمة غرفها ، ولكن كل غرفة فيها الحمّام والهاتف والنظافة ، فالمسافر يجد فيها مايسره ، انما الأزمة أزمة الخدم ، كل شيء يطلب بالهاتف من باب توفير الخدم ، ولا ريب في أن كل شيء يطلب بالهاتف لايلبى في كل حين .

استرحت في الغرفة ثلاث ساعات من تعب السفر ، والحرّ شديد ،وفي المساء جاءني السيد « روث » ودعاني الى العشاء في مطعم قريب ودعا أستاذين آخرين من رجال مؤتمر الثقافة الاسلامية : شجاع الدين خليفة من علماء الباكستان ونظام الدين أحمد من علماء حيدر آباد ، ثم ودّعنا بعد العشاء وانصرف الى فندقه على أن يعود في الصباح ليذهب بنا الى « برنستن » .

أحب الاستاذان أن يجولا قليلا في شارع « برودوي » فرافقتهما وأذكر أنهما دخلا المطعم الذي يسمونه : الاوتوماتيك « Automatic » ليتفرجا ودخلت معهما ، وقد قرأت عن هذا المطعم في دليل السفر الى أميركة واستغربت أمره وقلت في نفسي : ماهذه الرحلة الى بلاد كل شيء فيها غريب ، حتى أمر الأكل ، يذهب المرء الى معرض من معارض الأكل فينظر الى الألوان المعروضة ، فاذا أعجبه لون منها أخرج من كيسه ثمنه ووضعه في آلة خاصة ، فتحركت الآلة وتحرك معها الصحن الذي وقع اختياره عليه ، فأخذه وجاء الى منضدة فجلس وأكل ، واني أعتقد أن ذكر أمثال هذه الأمور في دليل السفر ينفّر المسافر ، هذا بالنسبة الي ، ولكني أحمد الله على أن المطاعم كلها ليست من هذا الشكل الغريب ، ففي بعضها خدم يخدمون ، وفي بعضها يخدم الرجل نفسه ، فيذهب الى الآنسة ، فتضع له الأكل الذي يريده ، فيجيء به الى منضدة ويأكل ، الا أن بعض الناس يحبون رؤية غرائب الأمور وقد يجوز أن ذكر المطعم

« الاوتوماتيك » في دليل السفر قد جعل لهؤلاء الناس ، ولست منهم ولا شك .

لم أفطن الى شيء من عجائب نيويورك في وصولي الى هذه المدينة الجبارة ، فقد كنت مشتت الفكر والبال ولكنها في جيئتي الثانية اليها قد شغلت ذهني كله ، فوقفت على جبروتها وعظمتها وتناقضها وسأشير الى هذا كله في فصل آخر .

٧ ايلول ١٩٥٣

ركبنا في الصباح الى « برنستن » وهي تبعد ساعةعن « نيويورك » وكان في القطار طائفة من جماعة المؤتمر ، بهو القطار فخم جدا ، كل راكب على مقعد خاص متحرك ينقله الى حيث شاء .

وقعت عيني على سيدة أنيقة في ملابسها كأنها من طبقةرفيعة وعمرها على مايظهر أربعون سنة أو أقل ، والى جنبها شاب امتلأ شباباً يقرأ كتابا لايكاد يرفع بصره عنه ، ابتسمت هذه السيدة فدنوت منها وسلمت وجرى بيننا حديث السفر ، انها لاتحب ركوب الطائرات ولكنها تحب ركوب البحر ، رغبت كثيرا في معرفة هذا الشاب الذيلايبالي بها ،فخطر ببالي أن أسألها ، فسألتها عنه ، قلت لها : هل هو أخوك ، قالت : لا ،انه زوجي ، وزوجها لم يهتم بهذا كله ولا التفت الي وقد يجوز أن تكون هذه السيدة غنية وأن الشاب تزوجها لغناها ولما وصلت الى موقف القطار نزلت وودعت السيدة فودعتني وكأن بيننا صداقة من سنين وزوجها لم يحفل بكل ذلك ، وهذه هي المرة الثانية التي أجالس فيها امرأة أميركية ، فعلى قدر مارأيت من نقاوة الفتاة الأميركية في مطار باريز رأيت من وداعة المرأة الأميركية في القطار .

لايهمني شيء فيالقطارمقدار ماتهمني الفرجة ، فأكاد أغرق فيمشاهد الطبيعة ولا أحول بصري عنها ،ولكني لم أجدفي دفتري وصفا كاملاللطبيعة

من نيويورك الى برنستن وانما الذي وجدته فيه أن على الطريق شجراً كثيراً وسهولا كثيرة والذي استوقف نظري مرأى السيارات ، ففي مواقف القطار وفي بعض مواقف من المدن نشهد قطعان السيارات بدلا من قطعان الابل والغنم وهذا أول مظهر من مظاهر الغنى في أميركة ، يكاد الانسان لايصدق هول مناظر هذه السيارات وهي مصفوفة ، وليست السيارة في أميركة من باب الترف والتبذير وانما الانسان لايستطيع الاستغناء عنها لبعد المسافات ، فأكثر الجامعات بعيدة عن المدن ، فلا بد للأساتذة والطلاب منها وأكثر الناس بعيدة دورهم عن المعامل ، فلا غنى لهم عنها .

وصلنا الى برنستن أو على ماأظن الى موقف آخر قبل برنستن فاستقبلنا السيد ضودج رئيس مؤتمر الثقافة الاسلامية الذي كان رئيس الجامعة الأميركية في بيروت من ربع قرن أو أكثر ، ماهذه الشيخوخة المرحة التي لايفارقها ابتسام الثغر ، ماهذه الشيخوخة النشيطة التي لايكاد الشباب يتولّى عنها ، ماهذا التهذيب العريق ، فقد حمل عيبتي بيده على ثقلها ووضعها في سيارته وحلفت عليه فلم أنجح ، ثم ساق بنا سيارته حتى وصلنا الى الفندق وأسمه « Princeton Inn » لايشبه هذا الفندق الفنادق الضخمة في المدن ، وأكثر الفنادق في ضواحي الولايات المتحدة على هذا الشكل ، فهي أشبه شيء بدار الأرياف ، انما الشيء الفاتن في هذا الفندق مروجه الخضر وبحيراته المصنوعة ، فالفندق للجامعة نفسها وأحسن شيء فيه هذه الطبيعة الهادئة التي يتمتع المسافر منها في كل صباح ومساء .

بلاد الغرائب :

لاأدري كيف دونت الفكرة التالية في دفتري ولكن لا مندوحة لي عن ذكرها سواء أكانت في محلها أم لم تكن ، ان هذه الرحلة عبارة عن

خواطر مبعثرة ، لقد وجدت في دفتري بعد الكلام على« Princeton Inn » هذه العبارة : بلاد الغرائب ، ثم وجدت تفسيراً لهـا : الولايات المتحدة مجموعة غريبة من الأشكال ، أجسام طويلة كأن أصحابها جبابرة ، وأجسام قصيرة مختلفة ، فلا تكاد تحس فيها بأمة من أصل واحد ذات سحن واحدة ، مثل هذه السحن التي شهدتها في مطار ارلندة حيث لايكاد رجل يختلف عن آخر ، ترى من حين الى آخر شيخوخات وكأنها شباب نضير ، وسيارات تسوقها العجائز ، فكأن الناس في أميركة لايعرفون الموت ، فهم لايذكرونه ولا يخطر لهم على بال ، فلم يخلقوا للتفكير في الحزن والكآبة في كل ساعة ، فلا تسمع في كل دقيقة : الدنيا زوال ! الدنيا زوال ! ثم تجد الافراط في حرية النساء ، فتأخذ عينك في الطريق نساء عاريات السيقان من الحر ولا تكاد تجد انسانا يحملق لينظر اليهن .

افتتــــاح المــــؤتمر

٨ ايلول ١٩٥٣

ندع الآن « Princeton Inn » وندع حدائقــه ومروجه وندع هذه الخواطر السريعة التي مرت بي ونسرع الى القاعة التي احتفلوا فيها بافتتاح المؤتمر •

خطب في هذا الافتتاح ثلاثة خطبــاء ، خطب الدكتــور Brown عميد الكلية في جامعة برنستن ، هذا هو لقبه وخطب السيد « Clapp » من مكتبة الكونغرس في واشنطن وخطب الدكتور فيليب حتي رئيس قسم لغات الشرق وآدابه في جامعة برنستن ، وقد استغرقت هــذه الخطب الثلاث نصف ساعة •

رحّب الأول باسم رئيس الجامعة برجال مؤتمر الثقافة الاسلامية ، ثم أتى على ذكر السنة التي أسست فيهــا برنستن ودل الحضور على صورة الملك جورج الثاني المعلقة على الجدار وأتى على تاريخ هــذه القاعة التي اجتمع فيها في الماضي مجلس أميركة ليفصح لجورج واشنطن عن شكره له ثورته في تحرير أميركة ، ثم ذكر يسيراً من أشياء ثانية تتعلق ببرنستن وببعض الرؤساء •

وأشار الثاني في كلمته الى مشاركــة مكتبة الكونغرس لجــامعة برنستن في هذا المؤتمر الذي هو الأول من نوعه ، هذا المؤتمر الــذي

جمع علماء مشهورين من بلاد مختلفة للمناقشة في موضوعات شتّى ورحّب باسم الشعب الأميركي وباسم الولايات المتحدة بهؤلاء العلماء، وكانت كلمة الخطيب الثالث بالعربية وهي تشتمل على الترحيب

وقد دعي أساتذة المؤتمر بعد هذا الاجتماع القصير في قاعة « Nassun » المشهورة الى شرب الشاي في قاعة ثانية من قاعات الكلية.

ليس هذا كله بمهم ، انما المهم في نظري أن أرى أثر الشرق في هذه القاعة .

خطب أستاذ فاضل ذو شهرة واسعة قضى في الولايات المتحدة على ماقيل خمساً وعشرين سنة ، وكان له أثر بالغ في المؤتمر ، وصل الأستاذ المومأ اليه الى مطار نيويورك قبل افتتاح المؤتمر بساعة ، ففوجىء في المطار بأنه سيقول كلمة في افتتاح المؤتمر ، فلما جاء دوره قال :

« قبيل ساعة فوتحت بأني سأقول كلمة فصعقت ... »

يقال في لغتنا : صعق كسمع غشي عليه ومن مشتقات هذه المادة الصاعقة ، ومن معاني الصاعقة الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب والمحراق الذي بيد الملك سائق السحاب ولا يأتي على شيء الا أحرقه أو نار تسقط من السماء ..

فلننظر في المعاني المختلفة التي تدل عليها هذه المادة ومشتقاتها وحسب هذه المعاني أن يدخل فيها الموت أو العذاب حتى نشعر بشدتها فاذا كان أحدنا يصعق أي يغشى عليه من أجل ارتجال كلمة لاتستغرق خمس دقائق وهو مدرب على الارتجال فكيف تكون حالته اذا نزلت به نازلة من نوازل الدهر وأراد الافصاح عنها ، بأي لفظ يفصح عن هذه النازلة اذا أصيب بفقد عزيز أو بمرض عضال أو بضياع ماله أو اذا أصيب بوطنه .

هذا هو أثر الشرق الذي أشرت اليه وأعني بهذا الاثر هذه اللغة الشعرية التي درجنا على استعمالها في مخاطباتنا حتى كدنا نبعد عن واقع الحياة .

مؤتمر الثقافة الاسلامية

٩ ايلول ١٩٥٣

حدث خلال الصيف سنة ١٩٥٣ أن عدداً كبيراً من العلماء المسلمين المشهورين كانوا في الولايات المتحدة ، بعضهم كانوا أساتذة زائرين ، وبعضهم دعتهم الحكومة الى زيارة بلادها وبعضهم أرسلتهم حكوماتهم الى أميركة لأغراض شتى ، فاغتنمت جامعة برنستن ومكتبة الكونغرس هذه الفرصة لعقد مؤتمر أطلق عليه اسم : مؤتمر الثقافة الاسلامية وعلاقتها بالعالم المعاصر ، وجعلت اللغتان في هذا المؤتمر : العربية والانكليزية ، وكان الاجتماع مرتين في النهار ، قبل الظهر وبعد الظهر •

اشترك في هذا المؤتمر سبعون عالماً على ماأظن وحضره أربعة وعشرون أو خمسة وعشرون زائرا ، أما الأساتذة الذين اشتركوا فيه فبعضهم منأميركة وبعضهم منالشرق : من الملايو وأندونوسية والهند والباكستان والأفغانوفارس والعراقوتركيةوالشام ولبنانوشرقي الأردن ومصر واليمن •

ألقيت في المؤتمر خطب كثيرة وجرت مناقشات مختلفة ، وقد جمعت هذه الخطب وخلاصة هذه المناقشات باللغة الانكليزية في كتاب أخضر أسمه : مؤتمر الثقافة الاسلامية وعلاقتها بالعالم المعاصر ، وأتي في الكتاب علىتراجم الذين اشتركوا في المؤتمر والذين زاروه ، والكتاب طبعته جامعة برنستن سنة ١٩٥٣

أظن أن هذا المؤتمر انما هو الأول من نوعه في أميركة ، فهل ترمي الولايات المتحدة في مثل هذا المؤتمر الى الاتصال برجال الشرق على مختلفه : أقصاه ووسطه وأدناه ، هل تحولت سياستها عن نيويورك الى سان فرنسيسكو ، عن المحيط الأطلنطي الى المحيط الهادئ ، وبعبارة أوضح ، عن الغرب الى الشرق ، فهل تريد معرفة هذا الشرق ودارسة أوضاعه وتمكين الأواصر بينها وبينه ، هل يئست من المحيط الأطلنطي ، من أوروبة ، فانصرفت الى المحيط الهادئ ، الى الشرق كله ، فهي تدعو رجال هذا الشرق الى زيارة بلادها والتفرج في معاملها ومصانعها وجامعاتها .

مالي ولهذه السؤآلات ، فلنبادر الى حضور المؤتمر ، ولا بد لي من الاشارة في هذا الموطن الى أني لاأتوخى الاحصاء في كلامي على المؤتمر فالذين يهمهم الوقوف على خطبه ومناقشاته فليرجعوا الى الكتاب الأخضر ، ففيه كل مايهمهم الوقوف عليه باللغة الانكليزية ، انما أتوخى في الأوراق التالية الأتيان على ذكر مالفت ذهني اليه من الموضوعات والسوآلات والجوابات ، اني ادو ن خواطري وأنا أسمع الأقوال كما كنت أدون خواطري في القطار والسيارة وأنا أنظر الى الطبيعة .

اليهود في المؤتمر .

قيل قبل الشروع في المؤتمر أن بين رجاله جماعة من اليهود ، فطلب إلي بعض أعضاء المؤتمر أن أجتمع الى الرئيس ضودج وأن أسأله : هل في أعضاء المؤتمر يهود ، فاجتمعت اليه وذكرت ماله من المكانة في قلوب أهل لبنان والشام ولفت نظره الى مسئلة اليهود في مثل هذه الأحوال ومقدار ألم العرب منهم وتلطفت في سؤاله : هل في المؤتمر يهود وبينت له مبلغ الأثر السيء الذي يتركه وجودهم وقلت له قد ينسحب بعض الأعضاء اذا كان في المؤتمر يهود .

اهتم. السيد ضودج بهذا كله وقال : ليس في المؤتمر الا ثلاثة أساتذة يهود من جامعة برنستن لايمكن اهمال دعوتهم وفيه أستاذان آخران من جامعات ثانية وهؤلاء الأساتذة كلهم مشهورون في الولايات المتحدة بجيدتهم ، وهم يستمعون ولا يدخلون في المناقشات ، ثم أضاف الى هذا كلـه : اني لم أدعهم الا بعد أن عرضت الأمر على بعض سفراء الدول العربية فوافقوني على ذلك ولا سبيل الى إغفالهم لمكانتهم في الجامعات فأنهيت نتيجة هذا الحديث الى الأساتذة الذين كلفوني الوساطة في ذلك وحقاً ان اليهود لم يدخلوا في مناقشة من المناقشات ، فكأنهم لاأثر لهم في المؤتمر •

يوم الأدب

٩ ايلول ١٩٥٣

هذا أول يوم من أيام المؤتمر وقد جروا فيه على القـاعدة الآتية : يترأس أستاذ وعلى يمينه وشماله أستاذان من رجال المؤتمر ، كل واحد منهما يلقي بياناً ، واحد يستغرق بيانه عشرين دقيقة وواحد عشر دقائق وبعد فراغهما من البيان تطرح عليهما السوآلات ، فتجري المنـاقشات وقد يكون الأساتذة على المنبر في بعض الأحيان أكثر من أستاذين •

هذه هي الطريقة الأميركية في المؤتمرات •

جعـل اليوم الأول للبحث عن اتجـاهات الأدب الحديث في بلاد الاسلام وعن السبل الى المحافظة على الأدب القديم في الاسلام وعن أمور تتعلق باللغة •

تقاسم هذا البحث أساتذة من مصر والشام ولبنان وفارس ، تقاسمه أستاذان قبل الظهر وأستاذان بعد الظهر ، قبل الظهر الأستاذ محمدخلف الله أحمد ، عميد كلية الآداب في جامعة الاسكندرية وصاحب هذه الرحلة ، فصل الأستاذ خلف الله الثقافة في مصر خلال المائة السنة الماضية تفصيلا

بارعا ، وهو أستاذ رصين ، ثاقب الفهم ، متمكن من الانكليزية وأمضيت القول في الأدب الحديث في سورية ، ولما نهضت للكلام قال لي الدكتور فيليب حتي وهو رئيس الجلسة : معك عشر دقائق ، فاغتنمت الفرصة قبل الشروع في بياني وقلت :

على قدر ماشعرت بكرم الأمريكان في هذه الديار شعرت ببخل الدكتور حتي ، لقد كلفني الخوض في بحث طوله طول السموات والأرض وقال لي : معك عشر دقائق ، فكأنه أراد أن أكون طيارة نفاثة من النفاثات في العقد ، ، فأنا بدلا من أن أبدأ بقولي على عادة الدكتور : بسم الله الرحمن الرحيم ، فاني أبدأ بقولي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولما وصلت الى الشيطان الرجيم التفت الى الدكتور فيليب حتي فوسع صدره حفظه الله هذا المزح وابتسمت الثغور ، ولاغنى لي في هذا المقام عن الاشارة الى فضل الدكتور المومأ اليه في المؤتمر ، فقد كان روحه وحياته ومحوره ، فهو متشدد في المحافظة على النظام وتنسيق الأمور في عمله وان بلغ خمسا وستين سنة ، ولما فرغ المؤتمر من مباحثه اختصر الدكتور حتي هذه المباحث كلها في جلسة خاصة ، فكان اختصاره مثار إعجاب كثير من رجال المؤتمر ، حتى سمعت أستاذاً يقول : هذه خلاصة ممتازة .

وبعد الفراغ من البيانين كثرت السوآلات ، فتبين لي أن هذا الطرز من المناقشة مضيعة للوقت ، يخرج رجال المؤتمر من الموضوع ثم والتنكيت حتى يخف عناء الجد ، والمشهود فيها ميل الأميركان الى المرح والتنكيت حتى يخف عناء الجد والمشهود فيها ميل الأميركان الى المرح والراحة من حين الى آخر ، ففي كل ساعة يترك الأعضاء القاعة ويدخلون المقصف لشرب الشاي ، فكأن النفوس يتعبها الصبر على الجد والتفكير .

لاأريد الاتيان على ذكر كل ماجرى في هذا اليوم قبل الظهر وبعده ،

وانما اكتفي بتدوين بعض خواطر .

في هذا اليوم كثر السوآل عن أثر الشيوعية في أدب العرب ، فكنت أقول اذا جاء دوري : لا أعرف في سورية أدبا شيوعيا وانما الذي أعرفه أن كثيراً من الأدب الشيوعي ينقل الآن الى أدبنا ، فقد كثرت ترجمة الروايات وبعض الكتب الشيوعية وهذا لايعني أن الأدب في سورية أصبح شيوعيا ، فقد تترجم الروايات الشيوعية كما تترجم الروايات الانكليزية والفرنسية . ثم طال البحث عن تبديل الحروف العربية بحروف لاتينية ، وهذان الأمران لم يصدرا عن أستاذ أميركي وانما صدرا عن أساتذة من الشرق حتى قال أحد الأساتذة الأميركان :

« الأميركان آخر من يجب عليهم أن يخوضوا في الكلام على الحروف العربية وتبديلها بحروف لاتينية لأن لغتهم نفسها في حاجة شديدة الى الاصلاح »

وهذا منتهى الانصاف ، وقال أستاذ أميركي آخر :

« يجب المحافظة على الحرف العربي بالنظر الى محاسنه ولا يجوز التفكير في تبديل الكتابة العربية » .

يوم التاريخ

١٠ ايلول ١٩٥٣

خاض في موضوعات التاريخ أساتذة من لبنان والباكستان وتركية ومصر والعراق وواشنطن ، خاضوا في كل شيء ، بحثوا عن السبيل الى حمل المسلمين على الاعتناء بتقاليد التاريخ وعن السبيل الى خلق وعي في النشء وعن مشكلات دراسة تاريخ الاسلام وعن الأزمة في دراسة آثار الاسلام وفن العمران فيه وفنونه الرفيعة والبحث الأخير تعرض له الدكتور « سميث » وهو من مكتبة الكونغرس في واشنطن .

المباحث كلها مدونة في كتاب المؤتمر ، فقد تعرضوا في هذا اليوم لكتابة التاريخ بأسلوب علمي ، فأراد بعض الأساتذة أن يطبقوا أساليب العلم على الدين والأساتذة الذين جالوا هذا المجال كلهم من الشرق والأميركان يصغون اليهم •

[illegible]

تطبيق أساليب العلم على الدين لايخلو من نيّات مخبوءة ، فكأن أصحاب هذه الفكرة يريدون أن يثبتوا وحدانية الله أو نبوءة محمد بن عبد الله بالأساليب العلمية ، والايمان انما هو مسئلة اعتقادقبل كل شيء فان نبوءة محمد بن عبد الله لاتثبت بمعادلات جبرية •

أمّا أن يكتب التاريخ على الطريقة التي أنشئت له في هذا العصر،أي على طريقته العلمية فهذا لاسبيل الى الاعتراض عليه وأمّا أن يقفز رجال هذه الفكرة الى إثبات النبوآت بطريقة علمية فهذا أمر آخر ، ماأظن أن العلم يدخل في مثل هذه الأمور ، فاما أن اؤمن بوحدانية الله أو بنبوءة نبي بقلبي واما أن لاأؤمن بشيء من ذلك ، فاذا دخلت المعادلات الجبرية في أشباه هذه الأمور أفسدتها ، فخير للايمان أن يكون مصدره القلب وحده ، على أن بعض المسلمين في القديم كالمعتزلة أدخلوا العقل في مباحثهم الدينية •

كانت مباحث التاريخ جليلة القدر وانما الاعتراض على طريقة البحث ، فكرة من الشرق وفكرة من الغرب دون شيء من الانسجام وانهم ليبحثون عن البيئة والآثار اذ يبحثون عن المرأة المسلمة •

من طبيعة المؤتمرات أن تنطلق الألسن في كل شيء ، ولذلك لاتؤدي المباحث في المجالس العامة الى نتائج قاطعة في كثير من الأوقات ، على أن بعضهم يرون أن الألسن اذا أفاضت في كل شيء انكشفت الامور ، فتم الاهتداء الى الحقيقة ، قد يكون هذا صحيحا من بعض الوجوه وكيف كان الأمر فقد كان لمؤتمر برنستن نتيجة واحدة لابأس بها ، فقد وقف

الأميركان وأساتذة الشرق على الآراء المختلفة ، وهذه فائدة من فوائد المؤتمر •

دخل أحد الأميركان هذه المرة في المناقشات وكان دخوله ذا معنى فقد أراد أن يبحث الباحثون عن نصوص جديدة للقرآن وأظن ان القارىء لا يجهل الغاية من ذلك ، ولكن هذه الفكرة مرت مر السحاب وقيل لي إن هذا الأميركي راع من رعاة إحدى كنائس البروتستان •

يوم التربية

١١ ايلول ١٩٥٣

حدثنا في هذا اليوم أساتذة من الباكستان والهند والأفغان والملايو، موضوع أحاديثهم التربية في بلاد المسلمين •

ولما كنت لا أدون الا الخواطر التي خطرت ببالي وأنا أسمع الأحاديث رأيت ان أقتصر على حديثين منها ، الأول حديث الأستاذ خليفة شجاع الدين وهو الذي تعرفت اليه في وصولي الى نيويورك ، ثم صادفته بعد شهرين ونصف في القطار على مقربة من سان فرنسيسكو في طريقه الى وطنه ، تكلم على التربية في بلاد المسلمين واذا فتحت دفتري وجدت فيه بعد أن سمعت كلامه هذه الألفاظ المتقطعة : بحث منسّق ، يدل على معرفة واسعة وعلى اطلاع عميق وعلى اختصاص ويظهر أن صاحب هذا الحديث تقلب في مناصب كثيرة وآخرها على ماهو مذكور في ترجمته منصب عضو في المجلس التشريعي في بنجاب ولم يسعني بعد فراغه من محاضرته الا تهنئته وشكره •

والثاني حديث الأستاذ زين العابدين بن أحمد كبير المحاضرين في جامعة الملايو ، فقد وضح هذا الأستاذ أصل الاسلام وتاريخه في الملايو ، لقد توثقت بيني وبينه صداقة متينة ، كنت أمازحه ولم يكن ضيق الصدر

انه خفيف الروح والظل، سمح النفس وهيئته مثل هيئات أهل الشرق الأقصى وله دعاء بالعربية لاأستطيع ذكر كل ألفاظه في مثل هذا المقام : اللهم ارزقني رزقا واسعا و ... ضيقاً ، ونغمته وهو يقطع بيتاً من الشعر من أعذب النغم ، يبدأ بالبيت حتى ينتهي منه وكأنه رحى طاحون تدور ، دعانا محمد هاشم ميوندوال القائم بأعمال سفارة الأفغان في واشنطن الى غداء في قصر السفارة وكنا ثلاثة في حديقة هذا القصر التي لا يصل اليها شعاع الشمس من التفاف شجرها وقد اندفعت الألسن في المازحات اندفاعا عجيبا لانسجام أرواحنا نحن الثلاثة ، فالقائم بالأعمال السيد محمد هاشم من أهدأ الناس في الظاهر ومن أميلهم الى المزح في الباطن .

فصّل الاستاذ زين العابدين بن أحمد حالة التعليم في الملايو ، فكل طفل يجب عليه أن يتعلم القرآن سوآء أفهمه أم لم يفهمه ، فالقرآن هو الصلة الوحيدة التي تجمع بين ملايين من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، هذه الصلة يريدون تمزيقها ، إما بالتفتيش عن نصوص جديدة للقرآن وإما باخضاع الايمان للمعادلات الجبرية .

انتهت المحاضرات وشرعوا في المناقشات بحسب العادة ، فكثرت السوآلات ومن جملتها :

هل من سبيل الى تعليم الطفل حتى يستطيع أن يفهم الأشياء بنفسه من دون أن يحفظ الكلام ولا يفهم معناه .

هل من سبيل الى تعليم سكان إفريقية الذين ينبسط عليهم سلطان الفرنسيين .

كيف يمكن إدخال التعليم الديني على المدارس في البلاد التي فيها أديان مختلفة ، فماذا يكون مصير النصراني في مدرسة إسلامية .

ثم اعترضوا على صعوبة تعليم العربية في بلاد المسلمين وقفزوا قفزة واحدة من هذه الفكرة الى البحث عن القضاء على الأمية في الأماكن البعيدة عن مراكز التعليم .

علق بذهني الاعتراض على صعوبة تعليم العربية في بلاد المسلمين ، كالملايو وجزء من الهند والباكستان والأفغان وغيرها ، فكأن المسلمين في الماضي من غير العرب عجزوا عن تعلّم العربيةوكأن الأعاجم من المسلمين لم يؤلفوا في لغة العرب التآليف المنقطعة النظير التي كانت مفاخر ميراثنا الفكري على وجه الدهر ، ولكن لابد من الاعتراضات !

يوم الاصلاح الاجتماعي

١٢ ايلول ١٩٥٣

تجاذب أطراف الكلام في هذا اليوم أساتذة من لبنان ومصر والهند وأميركة ، تكلموا على الاصلاح الاجتماعي ولا ريب فيأنهذا الموضوع ذو شأن عظيم .

في جملة المتكلمين سفير مصر في واشنطن الدكتور أحمد حسين ، ولم نر سفير سورية في المؤتمر وقد قال لي في رحلتي الثانيـة إنه كان مشغولا يوم المؤتمر ، دعا سفير مصر أساتذة المؤتمر الى غداء في قصر السفارة في واشنطن ماأظن ان العقل يمكنه أن يتصور أفخر منه وكانت السيدة زوجته المحترمة تطوف على الضيوف وتؤنسهم .

بحث السفير عـن أطوار الاصـلاح الاجتماعي في مصر وقيل إنه مختص بأمثال هذه المباحثات وله فيها شهرة ذا هبـة ، جرى البحث عن ربط الاصلاح بالدين ، معنى ذلك أن الشيخ في القرية أو المدينة ينبغي له أن يفهّم السكان مقدار موافقة صور الاصلاح الاجتماعي للدين .

ثم نهض ممثل الاخوان المسلمين في مصر ولا يحضرني اسمه وقال كلمة في الاصلاح الاجتماعي :

الأخلاق لاتعلم الا بالدين

الاصلاح الاجتماعي لايتم الا بالدين .

أكثر الكلام على الاصلاح الاجتماعي كان على ازدياد عدد السكان في مصر وعلى السبيل الى معالجة الاصلاح في هذه الزيادة .

حضرت بعد الظهر سيدة فاضلة وهي عقيلة سفير مصر وقد درست في كلية الأميركان في مصر ، افتتحت هذه السيدة الجلسة وأذكر أنا لم نجد على منبر المؤتمر سيدة غيرهـا في كل أيام المؤتمـر ، فالسيدات الشرقيات بدأن بمشاركة الرجال في أعمال الثقافـة والسياسة في الحياة العـامة .

تكلمت هذه السيدة بالانكليزية وخاضت موضوع المرأة المصرية وأطوارها ، ولما انتهت من كلامها وكنت اخمّر في ذهني عبارة أفصح بها عن شكري لها سبقني الى الكلام استاذ آخر فسألها هذا السوآل : هل ترضى السيدة الفاضلة بما يقععلى سواحل البحر فيحمامات الاسكندرية في الصيف ، هل ترضى بمثل هذه المشاهد ، وهل هذا كله نتيجة تطور المرأة المصرية ، فظهر عليها أثر التلبك ، فنهض زوجها السفير وقد ظهرت عليه آثار غضب أحبّ أنيكتمه ، فالتفت إلى الأستاذ السائل وقال له في شيء من الحدة : الشرف ياأستاذ لايكون ورآء الحجابوحده ، الشرف يكون في الحجاب وفي السفور ، فالحجاب وحده لايضمن الشرف ، ان هدى الشعراوي لما عادت من اوروبة ومزقتحجابها اعتاضت عنه البرقع على رأسها وهي لم تدع الى الخلاعة والفسق .

يوم الراحة : الأحد

١٣ ايلول ١٩٥٣

سبحان من أراحنا في هـذا النهـار مـن السوآلات والجوابات والمناقشات التي لاأول لها ولا آخر ، سبحان من متع عيوننا وقلوبنا من مشاهدة جامعة لاأستطيع إفراغ صورها في الألفاظ ، فقد طفنا في هذا

النهار بجزء كبير منها ، طفنا حول دور الطلاب وكلية الهندسة ومعهد الدراسات العالية ومطعم هذا المعهد •

لم يؤثر فيَّ شيء في أميركة مقدار تأثير الجامعة وملعبها وحريتها ، فهي عالم مستقل منفرد ، فيه صورة الولايات المتحدة كلها ، فيه صورة الحرية على أوسع معانيها ولا سيما حرية الطلاب والطالبات ولا ريب في أن للبناء تأثيرا قويا في عقول التلاميذ وقد يقال المهم الدرس سوآء أدرس الطالب في قاعة وسط أم درس في بناء فخم ، هذا صحيح ولكن أصح منه في معتقدي أن العقل الذي يدرس في جامعة تحيط بها حدائق غلب ومروج خضر وشجر باسق وعشب ناضر لا بد من دخول النشاط عليه ، فان العقول تنفتح مسالكها في نظير هذه المشاهد وليس الظلام مثل النور ولا الكآبة مثل الفرح والدرس في مثل هذه الجامعة يدخل النور على الأبصار والفرح على القلوب ، يجد الطالب في الجامعة كل مايحتاج اليه ، يجد المكتبة وفيها كل مصادره ويجد دار الطلبة وفيها غرفته وحمامه ، فلا يمكن أن يتصور عقل شرقي عظمة جامعة برنستن لا من حيث عدد مبانيها ولا من حيث ترتيبها ولا من حيث مكتبتها ولا من حيث سحر الطبيعة فيها ولكني لا أعنى بكل ذلك ، انما السحر كل السحر في طبيعة الجامعة ، في شجرها ومروجها وخضرتها وهدوئها وصفائها ، هذا أهم شيء في نظري : جامعة في غوطة مثل غوطة دمشق •

ان للعلم منزلة ، ينبغ عالم من علماء الغرب أو رجل من رجال الفن والأدب فتجعل له دار في جامعة برنستن تضحك فيها حديقة زاهية ويقال له : اسكنها وادرس وابحث ونقب ، والحقيقة انه لايسكنها الا للراحة لأنه درس وبحث ونقّب كل حياته وقد حق له أن يستريح ، وفي الدار كل مايفتقر اليه ، هذا جزاء العلم •

ماأفتن هذا النهار ، لقد طفنا بالجامعة ، ماذا أقول ، انها مدينة قائمة بنفسها ، القرية اسمها برنستن ، فيها شوارع ومخازن وقصور ،

قصور المياسير من أهل نيويورك الذين يفرون في المساء من ضوضاء المدينة الجبارة ، ولكن شهرة الجامعة غلبت على كل ذلك فان برنستن شهرتها بجامعتها •

كانوا قديما يقولون لاتكاد تحضرني عبارة للافصاح عن كذا وكذا •• فكنت أقول ماهذه المبالغات ، ولكني لما دخلت مطعم معهد الدراسات العالية ورأيت رونقه فتشت عن عبارة أصف بها هذه القاعة فلم أهتد اليها ، فتحقق عندي أن الكاتب لايستطيع في بعض الأحيان أن يفرغ فكره وشعوره في الألفاظ •

دعني في هذا العجز والضعف ولنبادر الى دار رئيس الجامعة السيد « Dodds » فقد دعانا الى شرب الشاي في داره ، وهو رجل في حدود الرابعة والستين ، له هيبة العلماء ، يسكن قصراً يسكنه كل رئيس تنتخبه الجامعة والرئيس ينتخبه الأساتذة ويعزلونه ولا حدود لمدة رئاسته ، القصر بسيط ولكنه عظيم ببساطته وحديقة هذا القصر كأنها قطعة من حديقة فرساي •

على احد المناضد تمثال نمر وهورمز جامعة برنستن ، فلكل جامعة رمزها الخاص ولا أدري لماذا اختير النمر ليكون رمز جامعة مثل جامعة برنستن ، قال لي السيد ضودج رئيس المؤتمر ، اختيرهذا الرمز لألوانه ليس غير •

لقد كان الرئيس « ولسن » في الماضي رئيسا لجامعة برنستن وكان الطلاب على ماذكر لي يحبونه واذا تأخر عن تدريسه نصف ساعة هاجوا وماجوا ولما رشح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة قيل له : انت رئيس جامعة ، فكيف ترشح نفسك لرئاسة الجمهورية ، فقال : رئاسة الجامعة أصعب من رئاسة الجمهورية •

فرغنا من شرب الشاي ومن الفرجة ومن وداع الرئيس وخرجت وفي

نفسي أمنية واحدة : لم أشته أن أكون أستاذ جامعة ولا رئيس جامعة ولكني اشتهيت أن أكون طالبا في جامعة برنستن •

يوم الشريعة

١٥ ايلول ١٩٥٣

نعود الى المؤتمر ، الى الأخذ والرد ولكني أحمد الله على أن نزهة أمس سهلت علينا الصبر على مناقشات هذين اليومين •

خاض في اليوم الأول في موضوع الحقوق والفقه أساتذة من لبنان واسطمبول وأميركة واليمن •

وخاض في اليوم الثاني في موضوع الشريعة استاذان من سورية وشرقي الأردن •

والخواطر التي خطرت ببالي في هذين اليومين واحدة ولذلك لم أفرق بين يوم ويوم كما فعلت في أيام المؤتمر الماضية •

أي السبيلين أصلح ، الاجتهاد أم المحافظة على النص ، وقد رأوا بعد هذا السؤآل أن الأصلح إنما هو الرجوع الى مبادىء الاسلام الموافقة للزمن والثقافة ، ثم تعرضوا للأسباب التي وقفت بالمسلمين ومنها سد باب الاجتهاد ، فبهذا السد وقف التفكير في الاسلام وقالوا ان الشريعة لاتقبل سد باب الاجتهاد •

استاذ يريد المحافظة على روح الشريعة بأخذه بأسباب الاجتهاد واستاذ يرى ان ينقض الشريعة نقضا ، وقد كثرت في هذا الباب السؤآلات والجوابات والمناقشات وهذا مايدلنا على أن أمور الدين حسّاسة على تعبير هذا العصر ، فالمناقشات كثرت في هذه الأمور كما كثرت في الأدب في الأمور المتعلقة بتغيير حروف الكتابة أو بتعديل قواعد النحو لأن

نظائر هذه الموضوعات تدخل في امور العاطفة والعاطفة لاتقبل عادة الأخذ والرد على خلاف العقل الذي خلق لمثل هذا الأخذوهذا الرد •

كثرت المناقشات وأظرفها هذه الطريقة : يطرح أحدهم سوآلا باللغة العربية ثم يطلب الى أستاذ آخر أن ينقل سوآله الى اللغة الانكليزية ، فتضيع المناقشة بين أصل السؤال وبين ترجمته،ثم يطرح على أستاذ سوآل باللغة العربية ويطلب الى أستاذ آخر أن ينقله الى اللغة الانكليزية ، فيلقي الأستاذ الأخير السوآل باللغة نفسها أي اللغة العربية فيشتد الضحك ، وهكذا تجد أن المناقشات لابدء لها ولا منتهى •

وبعض المحاضرين يعرضون موضوعهم على الوجه الآتي : انهم بدلا من أن يعرضوا مبدأ عاماً واحداً فانهم يدخلون في التفاصيل ، فيفتحون باباً للاعتراضات الكثيرة •

بلغت النوبة في اليوم الأول ممثل اليمن وهو شيخ في حدود السبعين، قصير القامة ، نحيف البنية ، قوي المعدة ، جلست وإياه في فندق وسط في واشنطن فجعل يمر يده على مقاعد هذا الفندق وهي غير وثيرة ويقول: ماشاء الله ! من أين يؤتى بهذه الخيرات ، فعجبت من هذا العجب وقلت له: كيف تجلسون في بلادكم ، أعلى الحصير ، قال : نعم •

بحث هذا الشيخ عن الحرية ، فأباح للناس سرقة الحكومة وأباح السرقة في الجوع ولذلك لاتطبق على السارق الحدود في مثل هاتين الحالتين ، لم يغادر كبيرة ولا صغيرة ، تكلم على الدين وعلى اتساع اليمن ورآء البحار وعلى التأليف وعلى البعثات ، على كل شيء ، لقد عرض علينا صورة اليمن سوآء أكانت هذه الصورة سريعة أم كانت بطيئة •

لم أجد في دفتري تعليقا على المناقشات في الشريعة ولكني أذكر أن الأستاذ السوري وهو زميلي الشيخ مصطفى الزرقا أحب في محاضرته

أن يعرض على رجال المؤتمر شريعة الاسلام مجملة حتى يحيط كل واحد منهم ولا سيما الأميركان بجملة مبادئها وقد يجوز أنه أصاب بعض الاصابة في هذا الاسلوب ، ولو كان المؤتمر يجمع رجالا مسلمين كلهم ، يعرفون العربية حق المعرفة لكان من المستحسن عرض ناحية واحدة من نواحي الشريعة ، فان حصر الموضوع في زاوية واحدة خير من تبديده في زوايا شتى ، أما وقد جمع المؤتمر رجالا مسلمين وغير مسلمين ، بعضهم يعرف العربية وبعضهم لايعرفها فلا بأس بأن تعرض عليهم تفاصيل موضوع لاجملته ، حتى يكون لهم رأي عام في هذا الموضوع .

ثم كثرت السوآلات والجوابات .

هل خالف العباسيون الشريعة كمثل ايراثهم الخلافة أبناءهم .

هل تبنى الشارعون المسلمون شيئا من الشرائع المجاورة كشرائع الفرس والروم وغيرهم .

هل في الاسلام مايمنع عن الأخذ عن فقه بعض الأمم .

هل من الضرورة أن يكون الامام فرداً أم جماعة .

مناقشات طارت في الهواء كما كان يطير دخان السجاير .

يوم العلم

١٥ ايلول ١٩٥٣

كانت المناقشات في العلم بعد الظهر هادئة لأن موضوعها العلم وللعلم هيبة لايتعرض له كل واحد . دخل في موضوع العلم أستاذان ، الأول من انقرة وهو رئيس قسم الرياضيات في جامعتها والثاني استاذ في جامعة Michigan وأظنه سوري الأصل : الدكتور لطفي السعدي .

جرى ذكر مقدار حث الدين على العلم وقالوا إن العلم لايتصل بالاسلام ، فخطر ببالي أن أستشهد بالجاحظ في هذا المقام لأرد على الذين

قالوا إن العلم لايتصل بالاسلام ولكني آثرت أن أجعل هذا الموضوع في محاضرة خاصة القيها في واشنطن في المركز الاسـلامي في المسجد وهكذا فعلت •

قال رئيس الرياضيات في جامعة انقرة في بيانه : ولكن العلم بحد ذاته غير مرتبط ارتباطاً منطقياً بالأخلاق فسألته هذا السوآل وقلت :

ان للعلم هيبة فلا يستطيع المرء أن يناقش فيه من دون أن يجعـل يده على قلبه وأنا أطرح سوآلي ويداي على قلبي بدلا من الواحـدة ، يقول الأستاذ الكريم في بحثه الموجز : ولكن العلم بحد ذاته غيرمرتبط•• الى آخر العبارة •

يرى بعض العلماء في عصرنا هذا أن تكون الأخلاق بعد اليوم مرتبطة بالعلم وحجتهم في ذلك أن للعلم قواعد ثابتة ، ان له طرائق خاصة في الصدق والأمانة وطلب الحقيقة وما شابه ذلك ، فاذا ارتبطت الأخلاق بالعلم استفادت بهذا الارتباط ونحن الآن أمام فئات مختلفة في تقرير الأخلاق :

فئة تريد أن تكون الأخلاق راجعة الى الدين •

وفئة تريد أن تكون الأخلاق موضوعـا مستقلا من موضوعـات الفلسفة •

وفئة تريد أن تكون الأخلاق راجعة الى العلم •

فما هو رأي الأستاذ في هذا الباب وأنا أطرح سوآلي عليه ولست مستعداً للمناقشة •

فقال الأستاذ ماخلاصته :

ان العلم ليس له أخلاق وضرب لنا مثلا لذلك : اذا رجمت عاملا بحجر يعمل على مقربة مني فان هذا الحجر ينطلق مـن يدي فيصيب العامل بقانون ميكانيكي ، فيكسر يده ،فكسر اليد تابع لقانون من قوانين

العلم ، فكيف نريد أن نجعل الأخلاق مرتبطة بالعلم ، ثم خلا الي بعد المناقشات وضرب لي مثلا آخر بيني وبينه وقال لم أستطع ذكر هـذا المثل في الجلسة :

ان القنبلة الذرية التي يخترعونها إنما هي من العلم ومع هذا فانها تهدم المدن وتقضي على الناس ، فهل هذا من الأخلاق ، فالانسان ينبغي له أن يستخدم العلم لأمور خلقية .

إن بيني وبين الأستاذ شيئا من سوء التفاهم ، اذا كان العلم بذاته لا أخلاق له فان طريقته مبنية على أمور خلقية كالصدق والأمانة والحقيقة وما شابه ذلك ، فالذين يريدون أن يجعلوا الأخلاق راجعة الى العلم انما يريدون أن يجعلوها راجعة الى طريقته ، الى هذا الصدق وهذه الأمانة وهذه الحقيقة ، لا اليه نفسه .

يوم الفلسفة

١٦ ايلول ١٩٥٣

كان موضوع الفلسفة من أخصب الموضوعات، فقد تصدى له أساتذة أفاضل ، منهم الدكتور محمد البهي أستاذ الفلسفة في جامعة الأزهر في مصر ومنهم الدكتور شفق من طهران وكان في خلال المؤتمر أستاذاً زائراً يحاضر في جامعة كولومبيا في نيويورك ، ومنهم الدكتور فضل الرحمان المحاضر في جامعة « Durham » في انكلترة وغيرهم .

سمعنا الدكتور البهي وقد تعرفت اليه وانعقدت صداقة بيننا وهو رفيق الأستاذ خلف الله عميد كلية الآداب في الاسكندرية ، انه أسمر اللـون قصيـر القامـة ، مملوء البـدن ، منسق العقـل ، درس في المانية وتغلب عليه نزعة دينية قوية كما تغلب على رفيقه الأستاذ خلف الله ، موضوع محاضرته على ما أذكر : الاتجاهات الفلسفية في الاسلام وموقفها من الأفكار الحديثة في جماعات المسلمين ، دافـع دفاعاً قوياً

وكان أثر الانفعال الصادق ظاهراً عليه ، تكلم على الذيـــن يريدون أن يفصلوا الدين عن الدولة وضرب أمثالا من التاريخ ومن أقواله : الناس يبتكرون او يتبعون أو يقلدون والناس ينقدون أو يبنون وهو يرى أن بعض الخطب التي ألقيت في المؤتمر يُرمى فيها الى الهدم لا الى البنيان، هذا لايصوم فيقول لماذا يصوم الانسان شهراً وهذا لايصلي فيقول لماذا لانعدل الصلاة والأستاذ بليغ في دفاعه .

ثم فصّل حركة الاصلاح والمصلحين في الاسلام من ابن تيمية الى محمد بن عبد الوهاب ، الى الأفغاني ،الى محمدعبده ، الى محمداقبال في الهند ، الى السنوسيين وشرح رأي كل واحدمن هؤلاء المصلحين وبيّن أسلوبه في الاصلاح وذكر أن كل حركة من حركات المصلحين في هـــذا العصر كانت ترمي الى مقاومة المستعمرين والخلاصـــة إن الاسلام في العصر الحديث يأخذ عن اتجاهات الفلسفة الغربية الحديثة ما يعين على حرية الفرد وتوجهه نحو أفق أعلى في الفلسفة ويقاوم غير ذلك .

هذا نموذج من آرائه ولم أذكر ماذكرت الا للقوة التي رأيتها في وضع الخطيب وكلامه ، أما أفكاره فلكل واحد حرية تامة فيها .

ثم أخذت السوآلات تنصب بحسب طريقتهم في المناقشة :

هل كان للأفغاني ومحمد عبده وغيرهما صلة بالسلطان عبدالحميد، وهم يريدون بذلك أن يقولوا : هل ثار المصلحون على المستعمرين وحدهم أم على السلطان عبد الحميد أيضا .

هل في اصلاح محمد بن عبد الوهاب فتح لباب الاجتهاد .

وقد كانت الجوابات أن ثورة محمد عبده كانت على عبد الحميد وعلى العلماء وأن محمد بن عبد الوهاب رجع الى ابن حنبل ، وابن حنبل من المتشددين .

أما الدكتور شفق فقد تكلم على الغزالي وفصّل فلسفته وكان يظهر

على كلامه أنه متمكن من موضوعه ، قابض على زمامه ، وليست غايتي التلخيص وانما أذكر في هذه الفصول ماقيد نظري في خلال المؤتمر ، فمن السوآلات التي طرحت سوآل أحد الأميركان ، قال :

لم أقرأ في كتاب الاحيـاء للغزالي ولكني سمعت أن فيه آراء في الاشتراكية والشيوعية ، فهل أثر بآرائه الشيوعية في المسلمين الشيوعيين؟ الشيوعية غول أميركة ، فهي تسمح بكل شيء الا بانتشارها في بلادها .

وآخر ما استمال ذهني اليه في هذا اليوم ، يوم الفلسفة ، كلام للأستاذ الهندي الدكتور فضل الرحمان المحاضر في جامعة « درهم » وهو أستاذ هادىء المزاج ، دافع عن فلسفة الاسلام ، لأن من الأقوال التي استفاضت في اروقة المؤتمر قول أستاذ شرقي سمعته عرضا يقول : الاسلام ليس له فلسفة .

قال الدكتور فضل الرحمن :

يقول المستشرقون ان العرب لم يخلقوا فلسفة وان لغتهم تضيق عن الفلسفة ، وقد أثر هذا الرأي في العقول ، فأنا أقول إن الاسلام أخـذ الفلسفة عن اليونانيين ، وهم وثنيون ، فلم يقبل المسلمون هذه الفلسفة على علاتها وانما أفرغوها في قالب إسلامي وهذا الافراغ يعد إبداعـا في الفلسفة الاسلامية .

هذا كلام مختصر ولكن فيه روحا .

وكان آخر الخطباء في مؤتمر « برنستن » الحاج اغوس سليم احد وزراء الخارجيـة في « اندونوسية » تكلـم على المسلمين في العالـم واندونوسية ، وكانت فاتحة كلامه شكر جامعة برنستن والاشارة الى مؤتمرها الذي مهد لعلمـاء المسلمين سبيلا الى الاجتمـاع والتعارف والتجادل في موضوعات جليلة .

■ ■ ■

نخرج في هذا المساء من مؤتمر « برنستن » وقد شهدنا فيه كل شيء ، سمعنا مباحث منسقة ، وسمعنا مناقشات فوضى ، رأينا اساتذة متزنين ورأينا أساتذة غايتهم الظهور ، سمعنا سوآلات مطابقة للعقل وسمعنا سوآلات من ورآئها التهديم ، ولمسنا جمودا في العقول ولمسنا مرونة في الأذهان ، وتبين لنا اعتدال في التفكير وتبين لنا اشتطاط في التجديد ، ووقفنا على نيات مخبوءة تستعد للظهور وتخشى المقاومة .

كل هذا رأيناه في رجالات المؤتمر ، أي في رجالات الشرق ، وكيف كان الأمر إن مؤتمر الثقافة الاسلامية كان له صدى بعيد في أميركة ،ففي كل جامعة من جامعاتها كانوا يسألونني : كيف كان المؤتمر ، لاشك في ان جامعة « برنستن » لم تضع وقتها في خلق هذا المؤتمر ومن يدري فقد تنشط جامعات في المستقبل الى خلق مؤتمرات من هذا النوع في ربوع أميركة كلها ، فيتم التعارف والتقارب .

١٧ ايلول ١٩٥٣

شرعت في هذا الصباح في الاستئناس بالطبيعة في أميركة لقد أنهى المؤتمر أعماله في « برنستن » وكان علينا أن تتممها في « واشنطن » فركبنا القطار الى العاصمة ، وقد رجعت الى دفتري فلم اجد فيه جملا منطقية وانما فيه كلمات متقطعة ، وهذا خطأ كاتب الرحلة ، فقد يلزمه أن يدون خواطره في النهار على أي شكل كان وأن ينسقها في المساء أو في الليل حتى لاتضيع الصور في ذهنه ، ولم أفطن الى هذا العمل الا بعد وصولي الى «سان فرنسيسكو» وكنت قبل ذلك ادون في دفتري صورا متقطعة واعتقد انها ترسخ في الذهن الى حين الكتابة وهذا خطأ ، وعلى الرغم من هذا كله إني أذكر استناداً الى الصور المقتضبة أن العين في الطريق كانت تقع على صحارى من شجر بدلا من أن تكون صحارى من رمال ، فالشجر على الطريق آخذ بعضه برقاب بعض وهذا يدل على أولية

أميركة ، فقد كانت غابات ، ثم قطع أكثر الشجر وحولت الى مدن ومصانع فكنت أرى الشجر من جهة والمصانع من جهة ، ثم أرى الأنهار وقد كنت دونت اسماء المواقف التي مررنا بها ولكن ما الفائدة في هذا التدوين ولعل Philadelphia أشهر المدن التي قطعناها ، وهل أنا اؤلف كتابا في تقويم البلدان ، ان هي الا خواطر خطرت وأنا على الطريق ، من هذه الخواطر دهشتي للاعلانات ، فلا تمر على موقف إلا وجدت الاعلانات على الجدران وأي غرابة في ذلك ، فان الصناعات في أميركة كثيرة ولا بد لها من الرواج ، والاعلان اعظم مروج في هذا العصر •

تخرج من موقف الى موقف ، فعوضا عن أن تجد سلاسل من جبال فانك تجد سلاسل من شجر يتصل بعضه ببعض وتجوز من حين الى آخر أنهاراً كأنها بحيرات يطيف بها الشجر ، ثم تمر بموقف واقع على البحر « Pervylle » فتمر بمنظر رائع ، يجري القطار بك والبحر من جهة والغابات من جهة والجسور معقودة على البحار ، فمن رؤية البحر الى رؤية الغابات ، ومن رؤية الغابات الى رؤية البحر ، والقطار سائر بين هذين المشهدين في هذا النهار الذي صفا جوه وأشرقت شمسه ، فكأنك في الشرق ، فما أروع هذه المناظر بعد مؤتمر تعبت فيه العقول وكثر فيه الأخذ والرد ، ما أروع هذه الرياضة البدنية بعد تلك الرياضة العقلية •

ومما يزيد في محاسن هذه الغابات التي نمتع العين منها دور صغيرة مبعثرة بين شجرها ، فالمعامل الى جنب الغابات ، والغابات الى جنب المعامل وقد يكون بين الدور مسافة في بعض الأحيان ، وقد تكون في أحيان ثانية ملزوزة ، كل دار قد لزت الى أختها •

ماذا هجس في صدري وأنا أشهد هذه المشاهد ، لقد وجدت في دفتري هذه العبارة : أميركة بنت العلم ، بنت الآلة ، انها لا تؤمن الا بما تراه العين وتلمسه اليد ، فالكلام وحده لا يقنعها ، انها تريد العمل ، أنها تسمع الكلام على شرط ان يكون مؤيدا بالعمل •

لقد أسمعناها كثيراً من الكلام ولم نرها شيئا من العمل •

واشنطن WASHINGTON

لم أفطن في دخولي « واشنطن » الى شيء من خصائصها ، فالانسان في مثل هذه الحال همه الأول أن يستقر في الفندق وأن يطمئن الى غرفته وهكذا كان الأمر ولعل أول شيء حبس ذهني أمر لايخطر على بال أحد، في الفندق الذي قصدت اليه في جيئتي الآولى الى « واشنطن » واسمه : Continental Hotel حلاق وأكثر الفنادق فيها حلاقون وقد كان شعري طويلا ، فذهبت الى الحلاق لقصه، فلما فرغ من القص وقمت عن الكرسي جاء بمكنسة وحاول تنظيف ثيابي مما تناثر عليها من الشعر ، فدهشت في أول الأمر ثم ضحكت وأخذت بيده وأبعدتها عن ثيابي وشكرت له هذا الاهتمام البالغ ، مدينة مثل « واشنطن » لايستعمل فيها الحلاق منفضة لتنظيف الثياب وانما يلجأ الى مكنسة ، أفليس هذا من غرائب الأميركان .

مالي وللغرائب ! كان علي أن أحضر مؤتمر الثقافة الاسلامية في « واشنطن » ثلاثة أيام متوالية : ١٧ ايلول و ١٨ ايلول و ١٩ ايلول ، في اليوم الأول جلستان ، جلسة بعد العصر وجلسة بعد العشاء وفي اليوم الثاني ثلاث جلسات : جلسة في الصباح وجلسة بعد الظهر وجلسة بعد العشاء ، وفي اليوم الثالث جلسة واحدة في غروب الشمس ، لقد حضرت المجالس كلها ولكني أعترف في هذا المقام بأن انتباهي قد قل واهتمامي قد ضعف ، فكاد الضجر يدخل على صدري ، فلو انتهى المؤتمر في

« برنستن » لكان هذا الانتهاء خيراً ، فقد طفقت أشعر بأني أصبحت آلة ميكانيكية لاإرادة لي في حركتها وسكونها ، تأتي السيارة لتنقلني الى المؤتمر ، فأركب ، ثم تأتي لتخرجني الى الفندق فأخرج ولم تبق لي لذة في هذا كله وانما لذتي في البعد عن المؤتمر حيث طفقت أشعر بأني مقيد بالمجيء والذهاب ولم أفطن الى هذا الشعور في « برنستن » فقد كنت أحضر المؤتمر وأنصرف واللذة تملأ نفسي ولست أدري لماذا أوشكت هذه اللذة أن تصير الى ألم في « واشنطن » وأظن ان هذا ناشيء عن ان المؤتمر طالت أيامه .

من أجل هذا كله لم أدون شيئا في الأيام الثلاثة ، ماخلا الاشارة الى خطبة خطبها أستاذ الفلسفة ، سيأتي ذكرها ، على أن أكثر الذين تولوا الكلام في هذه الايام الثلاثة هم أميركان ، جماعة منهم من مكتبة الكونغرس ، بعضهم رحب بأعضاء مؤتمر الثقافة الاسلامية في مجيئهم الى « واشنطن » وبعضهم تكلم على شيء من آثار الاسلام وعمرانه وفريق لخص طائفة من المناقشات في مؤتمر « برنستن » وفريق بيّن المجموعات الاسلامية في مكتبة الكونغرس ، وأستاذ من الهند استأنف الكلام على قضايا تتصل بالاسلام كالايمان مثلا ، لم أدون شيئا من هذا كله على أن الخطب كلها أو خلاصتها مذكورة في كتاب المؤتمر ولكني لاأستطيع أن أمر بخطيبين دون الاشارة اليها .

الاول الدكتور Evans مدير الاونسكو العام وكلامه على الاونسكو كان هذا الخطيب وهو جالس على الكرسي قبل الخطابة كالرمح المركوز في الأرض على تعبير الجاحظ ، لايتلحلح ولا يهيج ولا يبالي بخطبة خطيب أو بعبارة رائعة أو بفكر صائب وهو قوي التركيب ، قوي الدماغ لقد قرأ خطبته وكأنه آلة صماء .

والثاني الدكتور Northrop أستاذ الفلسفة والحقوق في جامعة Yale ولم أجد عنوانا لخطبته ولكن لها صلة بالاسلام وبفلسفة

أفلاطون ، هذا الخطيب مناقض للخطيب الأول ، انه من طراز آخر ، انه هائج مائج ، كثير الحركات في خطبته، كثير الانفعالات، ملك شعور الجمهور واستولى على قلوبهم ، لقد شهدت في هذا المساء أثرا من آثار بلاغة الخطابة ، ارتجل خطبته ارتجالا ، فكاد يخرج عن نفسه وهو يقذف بالكلام كالبحر الهادر ، كان « هوغو » يقول : اذا أردت أن تستبكي فابك ، والدكتور « نورثروب » لم يشأ أن يستبكي وانما شاء أن يحرك ولذلك تحرك في خطبته حتى كنت أعتقد أنه كاد يخرج عن موضوعه لكثرة اهتزازاته وحركاته واحمرار وجهه ، فكان يميل من الشمال الى اليمين ومن اليمين الى الشمال ولكنه لم يخرج عن موضوعه ، وانما ضبط هذا الموضوع أدق ضبط ولما بلغ منتهاه هدأت حركاته وخف صوته وضعف انفعاله ، وهذا ماأثبت لي أنه كان يقبض على زمام الموضوع وما فرغ من آخر كلمة في الخطبة حتى دوى التصفيق في القاعة وحتى تزاحم الناس عليه لتهنئته وهو واثق ببلاغته وبعظمته ، فلم ينبس وكنت في جملة المهنئين وطلب الي أن أكتب له اسمي .

لقد استغربت هذا الموقف الاستغراب كله ، لأن الذي أعرفه أن خطباء الانكليز كلما كثرت حركاتهم واشاراتهم ومظاهر بلاغتهم قلّ تأثيرهم في الجمهور فالخطيب الانكليزي يجب عليه أن يكون كالصنم ، أما الخطيب الأميركي الذي شهدته فلم يكن الا لحما ودما وروحا ، قيل لي انه قذف في خطبته بعبارة وأنا لم أفطن اليها ، فانه تكلم على حضرة الرسول ، فقال في جملة ماقال : لقد بلغ من صوفية محمد أنه اتصل بالاله فلم يكن حجاب بينه وبين الله عز وجل وفتشت وأنا أكتب هذه الخواطر في خلاصة خطبته المدونة في الكتاب الأخضر فلم أهتد اليها .

هذا آخر مشهد من مشاهد المؤتمر الثقافة الاسلامية ، فلنودع هذا المؤتمر في هذه الأمسية اللينة الناعمة ولكنا لم نودعه الا بعد أن زرنا في خلال أيامه الثلاثة في « واشنطن » مكتبة الكونغرس ودار المتحف

وشربنا الشاي في ساحة مكشوفة كأننا في دار من دور دمشق القديمة .

أما المكتبة فأظن أني عاجز عن وصفها وأظن أن اللغة تضيق عن وصف دقائقها ودقائق بنيانها وفسيفسائها ، يكاد الانسان يضيع في أروقتها ، فاذا عرف المدخل فلا يهتدي الى المخرج ، فهي لم تنل هذه الشهرة في العالم عبثا وقد بني المتحف بهبة رجل انكليزي لا يعرف أميركة ، هذا ماقيل لي ولا أستغرب ذلك بعد أن رأيت أن أكثر المباني في جامعات أميركة قد بنيت بأموال أفراد من الأميركان .

وأمّا دار المتحف فان الانسان يبلغ عجبه منها كل مبلغ ، يعجب من هذه البسط الفارسية ومن هذه القناديل والآواني التي كانت في عصور الاسلام .

٢٣ أيلول ١٩٥٣

دعانا الرئيس ايزنهور الى زيارته في القصر الأبيض ، وأرسلت دعوة خاصة الى كل رجل من رجال المؤتمر وقد احتفظت بهذه الدعوة ، فقد نفعتني في خروجي من كندا وسأذكر ذلك .

لا يقعن في خلد أحد أن القصر الأبيض الذي ذهبت شهرته في الدنيا قصر فخم منيف ، انه بسيط جدا وأقل غني يسكن قصرا أفخم منه ، وقيل لي إن الأميركان لا يحبون المظاهر العظيمة لأنها تخالف مبادىء الديمقراطية ، فاذا صح هذا القول فاني أستغرب هذه الفكرة الاستغراب كله .

يقع القصر في هذه الجهة من واشنطن التي تشبه « الشان اليزه » في باريز ، دخلنا باب الحديقة ، فاستوقفنا شرطي على الباب وطلب الينا أن نكتب أسماءنا ، ففعلنا ، ثم دخلنا القصر فوجدنا الناس ينتظرون في غرفة الانتظار وأكثرهم من رجال الصحافة ، فانتظرنا في غرفة خاصة قريبة من

غرفة الرئيس مقدار خمس دقائق ، ثم طلب الينا أن ندخل صفا مستطيلا ، كل واحد وراء الآخر ، وقد رتب الدخول بحسب الدول التي نمثلها ، دخلنا الغرفة فوجدنا الرئيس جالسا امام منضدته ، رئيس بسيط ليس عليه أثر من آثار العظمة ، وغرفة بسيطة ليس فيها شيء من الفخامة ، لا في زينتها ولا في فرشها ولا في تصاويرها ، فقدمنا السيد ضودج ، ثم وقفنا على يمين الرئيس وعلى شماله وصورونا صوراً كثيرة وعرضت هذه الصور في دور السينما ولما استقر بنا الوقوف ارتجل الرئيس ايزنهور كلمة ليس فيها شيء من التصنع ، وأذكر أنه قال في جملة ماقال : ان أميركة أهملت في الماضي صلتها بالشرق ، أمّا اليوم فانها تريد أن تتلافى هذا الأمر فتتصل بالشرق كله ، وترغب في أن يكون هذا الاتصال مبنيا على اسس الثقافة ، لأن الثقافة وحدها هي التي تؤلف بين الشعوب ، هذا بعض مابقي في ذهني من كلام الرئيس ، وقد تكلم على الشرق وعلى عدد المسلمين في العالم كله ولكن كلامه لم يطل وقضينا في حضرته نصف ساعة ثم ودعناه وانصرفنا .

أذكر اني سألت بعد الانصراف رجلا من رجال وزارة الخارجية قلت له : هل نقرأ خطبة الرئيس في صحف المساء ، قال : اني أشك في ذلك ولا يخفى عليك السبب ، لقد فهمت مرمى قوله ، كأنه يقول إن الخطبة لا يمكن أن تظهر في الصحف مراعاة لليهود ، فلنتدبر مبلغ تأثير اليهود في أميركة .

■ ■ ■

هذا آخر يوم من الايام الرسمية ، انطلقنا من كل قيد ، من قيود المؤتمر وقيود الزيارات وخلا كل واحد منا الى نفسه ، يتصرف في أموره كيف شاء ، لقد أصبحت أستطيع الجولان في واشنطن ورأيت أن أحسن شيء في معرفتها انما هو ركوب سيارة عامة والتفرج في المدينة ، لم ادوّن

في دفتري خواطري التي خطرت في هذه الفرجة ولكني أذكر أني مررت بحديقة الحيوانات وببحيرات ودخلت بناء عظيما فيه تمثال الرئيس « واشنطن » وشهدت على بحيرة تمثال الرئيس« Lincoln » ثم أذكر أن « واشنطن » كان لها أثر عظيم في نفسي ، انها قبل كل شيء خالية من المعامل والمداخن وليس في قلبي أيسر ميل الى المدن التي يخنقها دخان المعامل ولا يضيق صدري في موضع مقدار ضيقه في المعمل ، أمّا في شلالات « نياكرا » فقد تمنيت أن يمضي علي أسبوع فيها لانهار واحد أجل ، « واشنطن » خالية من أثار هذه الحضارة المادية القتالة ، انها مدينة العظمة ، تظهر آثار العظمة على أجوائها وعلى مكتبة الكونغرس وعلى يسير من المباني العامة ، على الرغم من زهد الأميركان في مظاهر العظمة ، بنيت « واشنطن » على طرز باريز ، قيل لي ان المهندس الذي خططها فرنسي ، حقا ان الشارع الممتد من الفندق الذي نزلته الى القصر الأبيض والكونغرس ومكتبة الكونغرس يشبه شوارع « الشان اليزه » فيه حدائق رحبة وفي الحدائق برك ماء وابن دمشق يؤنسه الماء قبل كل شيء ، « واشنطن » فيها للطبيعة مجال واسع ، فيها الضواحي الضاحكة وقد أقامت السفارات في حي يغطيه الشجر من جميع النواحي ، فلو خيرت ما اخترت الا الاقامة بواشنطن بسبب هدوئها وعظمتها ، وعلى الرغم من هذا كله يجد الانسان أن شوارعها تحتاج الى شيء من النظافة ، فقد جلت في هذه الشوارع أنا وصديق درس في ألمانية ، فقال لي لو كانت « واشنطن » ألمانية لاستطعت أن تشعر بمبلغ نظافتها وأظن أن هذا كله انما سببه أزمة الخدم ، وللعبيد في « واشنطن » حي خاص ومطاعم خاصة ، فكأنهم هربوا من ضغط الجنوب ليذوقوا في « واشنطن » بعض الحرية وبعض المدن في أميركة فيها أحياء خاصة للعبيد ولكن طرز الدور في هذه الاحياء لايختلف عن طرز الدور المجاورة ، انما خصائص هذه الأحياء زحمة السكان وقلة النظافة .

عشاء .

فرغت من كل شيء في « واشنطن » ولم يبق علي الا تلبيــة دعوة موظف من وزارة الخارجية لايحضرني اسمه الى العشاء في داره ، لابل في قصره ، انه يقيم بالضواحي ، فقد سار بنا في سيارته من واشنطن الى الضاحية وكنا ثلاثة أو أربعة ، سار بنا في طريق نثرت عليهـا البحيرات والشجر والحدائق والتلال حتى وصلنا الى قصره ، انه قصر رائـع ، تتصل حديقته بالبحيرة .

جلسنا في البهو ريثما يهيء لنا العشاء ولما هيء الأكل دعينـا الى الطعام والذي رأيته أن صاحب الـدعوة صاحب دين راسخ ، فقد بدأ بالصلاة قبل أن يبدأ بالأكل ، ثم جيء بالطعام ، إن في القصر طاهيـا من حلب ، لقد سئمنا الأكل الأميركي واشتقنا قليلا الى أكلنا وستأتي الاشارة الى أكل الأميركان ، ملنا الى أكلنا في الشرق ولست أدري هل من قلة الذوق أن أقول انا أكلنا أكلا لاشرقيا ولا أميركيا ، فما كنا نعرف مـاذا نأكل ، وقد أحببت أن أملأ معدتي بالخبز ، فطلبت الخبز ، فاعتذرت صاحبة الدار وقالت : لاخبز عندنا ، معنى هذا ان اللون الذي نأكله لايحتاج الى الخبز ، فقمنا عن السفرة ، فأنسانا أدب صاحب الدعوة وتهذيبه ورقته شدة جوعنا .

قمنا عن السفرة فطفنا حول مختلف الغرف ، من هذه الغرف غرفة لأولاد صاحب الدعوة فيها لعب ، من جملة اللعب قطار يسير على قضبان حديد ، فالطفل الأميركي يفتح عينيه على الآلة ، على الحديد ، على المعمل ، هذه هي الحضارة الأميركية وأظن أن كثيراً من رجال الفكر قد تعبوا من فرط هذه المادية ، فأرادوا أن يوجهوا أميركة نحو يسير من الروحانيات وعندي وأنا أكتب هذه الرحلة كتاب أهدته الي فتاة أميركية أديبة ، اسم الكتاب : هذا ماأومن به ، الكتـاب يشتمل على مائة مقال لمـائة كاتب وكاتبة ، كل مقال يحتوي على مايقرب من سبعمائة لفظة ، المقالات كلها

توجيه نحو الروحانيات ونحو الله ونحو الديمقراطية .

خرجنا من ملعب الأطفال فدخلنا بهواً فرش بالسجاد وصفّت فيه الصواني وأدوات القهوة والنحاس وعرض فيه سلاح من الشرق ، وأظن أن صاحب الدعوة كان مرة في دمشق فأولع بهذا النحو من الفرش ، ثم تركنا البهو فجلسنا في غرفة صغيرة نصغي الى خطبة خطبها الرئيس أيزنهور في هذا الجهاز الذي يسمونه Television وهو تسلية الأميركان الوحيدة في الدور والفنادق والمطاعم .

ولما بلغت الساعة الحادية عشرة ودعنا السيدة وأطفالها وعاد بنا زوجها الكريم الى الفندق .

برنامج الرحلة .

أشرت في كلامي على وصولي الى المطار Idelwild الى السيد « مارشال روث » الذي استقبلني فيه ، يعمل السيد « روث » في مؤسسة الشرق الأوسط في واشنطن ، قيل لي إن هذه المؤسسة ينفق عليها رجل غني من أغنياء أميركة فيها بعض الموظفين وفيها مكتبة صغيرة وهي تصدر مجلة مرتين في الشهر تنشر فيها أخبار الشرق ، عهد الى السيد « روث » أن يرتب رحلة أعضاء المؤتمر الى بعض ولايات أميركة ، عليه أن يضع جدولا تذكر فيه الأماكن والمدن التي يرغبون في زيارتها والفنادق التي ينزلونها وعليه أن يقطع لهم تذاكر السفر بحيث يذهب كل عضو الى المدينة التي يزورها وكأنه ذاهب الى داره فلا يعنى بالتفتيش عن فندق ولا يقطع التذكرة لأن محله في القطار وفي الفنادق محجوز من بدء الرحلة وهذا أبلغ ماشهدته من العناية والسيد « روث » نشيط كل النشيط ، منظم كل المنظم ، فقد رتب رحلة الأساتذة فلم يختل أمر من أمورهم ، فكان عمله موضع إعجابهم كلهم ، فكانوا يثنون عليه أطيب الثناء .

اتصل بي السيد « روث » وسألني : ماذا تحب أن ترى في أميركة ،

قلت له : الطبيعة والجامعات قبل كل شيء ، قال : المعامل ، قلت : لا ، فأدرك ذوقي ووضع لي جدول السفر في أميركة كلها ، في شرقها وغربها، في شمالها وجنوبها •

وقد جعلوا لكل عضواً رفيقاً في السفر اذا شاء ، بعضهم كان لهم رفيق وبعضهم لم يجدوا حاجة اليه ، أما أنا فقد اختاروا لي الدكتور ايلي سالم وهو شاب من لبنان ، من بطرام الكورة ، من أقارب الدكتور شارل مالك ، درس في إحدى جامعات أميركة وحصل على الدكتوراه وكان موضوع أطروحته : الخوارج ، اغتنم هذه الفرصة للجولان في الولايات المتحدة قبل رجوعه الى وطنه ، فجاء به الي السيد « روث » وأوصاني به خيرا ، لقد كان للدكتور ايلي سالم أثر حسن في نفسي من أول تعرفي اليه ، فقد وجدته هادئا في مظهره ، قليل الكلام ولا يزعجني شيء مقدار الثرثرة ، رافقني في الرحلة كلها فلم يحصل بيننا شيء مما حصل بين بعض الأساتذة وبين رفقائهم ، فقد عرف طبعي وعرفت طبعه ، لقد كان مهذبا جدا فانه ابن نعمة ،مهد لي في الرحلة أسباب الراحة فلم أحفل بشيء ولما تمت رحلتنا قال لي عهدوا الي أن أضع تقريراً وقد وضعت هذا التقرير فخذه واقرأه ، فقرأته فوجدت أن أكثر الأفكار التي كنت أقذف بها من شهرين في خلال أحاديثي الخاصة كانت مدونة في هذا التقرير وهي أفكار تتعلق بالأمريكان أنفسهم وببعض خواطري •

لما غادرت « نيويورك » عائدا الى دمشق ودعني في المطار وقال قريبا سأكون في لبنان ، انه خطب فتاة من أميركة ، من « فيلادلفية » عرفني اليها في نيويورك، كأنها تفاحة تذوب في الرقة ، دعتني الى دارها في فيلادلفية وأصر عليها أبوها وأمها في هذه الدعوة ، فشكرت لها كثيرا واعتذرت وقلت لها : ان خطيبك أصبح واحدا منكم وأنا لا أزال غريبا فما معنى مبيتي في داركم ، فقالت : انك غريب مادمت بعيدا عن دارنا ولكنك اذا وصلت الى الدار ودققت الباب أصبحت من أهل الدار •

اني لاأعرف جوابا أرق من هذا الجواب •

عدت الى دمشق وعاد بعدي الدكتور ايلي سالم الى أهلهفي الكورة وتقلد منصبا في الجامعة الأميركية في بيروت ، ثملحقت بهخطيبته وأسمها « فلس » Phyllis لقد دعاني الى زفافعروسهفيبطرام،فحضرت الزفاف وكان ذلك في الصيف وهنأته وتعرفت الى والدهأديبسالموهووجيهفي وطنه ، كاتب عدل في أميون ، تظهر آثار النعم على طراز حياته فيالدار، حدثني السيد أديب سالم قال : لما جاءت « فلس » الينا ذهبت بها الى طرابلس لأشتري لها بعض الحلي ، ولما دخلنا سوق الصاغة وسألتها عن الحلي التي تعجبها استغربت سوآلي وقالت : أرى أن تشتري صحونا وطناجر وملاعق لدار ابنك ، أما الحلي فلا حـاجة بي اليها • هكذا يعرفون الزواج •

بوسـتن BOSTON

٢٥ ايلول ١٩٥٣

هذا هو اليوم الاول الذي أشرع فيه في الجولان في طائفة من ولايات أميركة ، غادرت « واشنطن » في الليل متوجها نحو « بوستن » الواقعة على المحيط الأطلنطي ، أما القطار الذي ركبته ففيه كل مايحتاج اليـه الراكب في غرفته الخاصة ، فيه المغسلة والخزانة والهواء البارد والهواء السخن والمرحاض ، يغلق الراكب الباب عليه اذا شاء ، فامّا أن ينام وإما أن يقرأ وإما أن يسرح نظره في مشاهد الطبيعة واذا سئم العزلة جـاء البهو العام ، فتعرف الى بعض المسافرين أو طالع الصحف أو سمع الاذاعة .

لقد نسيت المشاهد الواقعة من واشنطن الى بوستن ولكنها على الأغلب تشبه المشاهد الواقعة على المحيط الأطلنطي ، فهي غابات ، مرة يكثر فيها الشجر ومرة يقلّ ، وصلت الى « بوستن » في المساء فهيء لنا فندق أتفق أن مديره أبوه من دمشق ، من داريا ، وقيل لنا إن في « بوستن » كثيرا من أبناء العرب ولكني لم أجد من أبناء العرب الا ثلاثة أو أربعة ، سألنا صاحب الفندق عن مطعم عربي فدلنا على مطعم اسمه : مطعم النيل ، فسرنا اليه في أول الليل ونحن لانعرف موقعه على الضبط ، فشهدنا ثلاثة أو أربعة سائقين مجتمعين على الأرض يتكلمون بالعربية ولهجتهم لبنانية ، فسمعونا نتكلم بالعربية ، فقالوا لنا ، الى أين ، قلنـا : الى مطعم النيل ، فقال أحدهم : أنا أذهب بكم اليه ، فلم نقبل لأن المطعم بحسب مانعلم

كان على خطوتين منا وهكذا نحن لاتتغير ، سوآء أهاجرنا أم أقمنـا ، فبدلا من أن يقول لنا السائق : هذا هو المطعم أمامكم ، باعد بيننا وبينه أملا في أجر ركوب يبلغ دولاراً أو أقل .

وصلنا الى المطعم ولكنه لايشبه المطاعم العربيـة في نيويورك أو واشنطن ، لا في أكله ولا في رجاله ، ان تلك المطاعم أحفل بأبناء العرب وبأكل العرب ، ولم نصادف من أبناء العرب بعد خروجنا من المطعم الا خماراً يبيع أنواع الخمور وهو من دمشق ، من الباب الشرقي ، وقـد نسق دكانه تنسيقا متقنا ، الا أني لم أذهب الى بوستن للاجتمـاع الى الخمارين وانما ذهبت لازور جامعة : Harvard .

طلع الصباح علينا ، فسألنا عن موقع الجامعة فدلّونا عليه ، فهي واقعة في ضاحية اسمها : Cambridge وما أكثر الشبه بين جامعة « هارفرد » وبين الجامعة الأميركية في بيروت ، ان مقدمة كبيرة من هذه الجامعـة واقعة على شارع فيه المخازن والدكاكين وكذلك الجامعة الأميركية في بيروت ، فان مقدمتها العظيمة واقعـة على شارع فيـه الترام والمخازن والدكاكين وكما ان الجامعة الأميركية تمتد الى البحر فكذلك جامعـة « هارفرد » تمتد من ورآء هذا الشارع الى مسافات بعيـدة ، جلت قليلا في حدائقها وكانت الجامعة هـادئة لا روح فيها ولا حيـاة لان التدريس لم يشرعوا فيه بعـد ، ماخلا قسما قليـلا من الطلاب كانوا يذهبون ويجيئون في الحدائق ، والجامعة إذا لم تحفل بالطلاب كانت هامدة ، فهم لحمها ودمها وروحها ، هم حياتها كلها .

شهدت في هذه الجامعة أولى خصائص الجامعات في أميركـة ، ان الحكومات والجماعات والأفراد تعجز عن بناء جامعات على هذا الشكل ولكن أكثر الجامعات تبنى أقسام عظيمة منها بالهبات والعطايا ، ففي جامعة John Harvard مكتبة بنتها أم مات ابنها على باخـرة « التيتانيك » وعمره سبع وعشرون سنة ، بنت هذه المكتبة تخليـداً لذكر ابنها :

Elkins Widener ووضعت فيها مكتبته الخاصة ، فخفّت على هذا الوجه آلام هذه الأم ، فهي كلما زارت المكتبة ورأت اسم ابنها منقوشا عليها ورأت مكتبته ذهب وهمها الى أنه لايزال حيا بين رفقائه الطلاب،يسرح ويسرح ويلعب .

لهذه المكتبة مدخل فخم فيه درج عريض ومن بعد الدرج نجدعشرة أعمدة ضخمة تسند سقف الباب .

ولما مللنا من التجول في حدائق لاروح فيها وانما فيهـا هدوء تام عدنا الى « بوستن » ويظهر أن هذه المدينة قديمة ، فان أسواقها فوضى تشبه الأحياء في دمشق ، فالانسان يمشي في سوق فيظن أنه وصل الى آخر السوق ولا منفذ له بعد ذلك ، وإذابه يرى منعرجات تدل على أن السوق لم ينته،معنى هذا أن البناء غيرمنظم،فهو مرة يتقدم فيجاوز الحدود المشروعة ومرة يتأخر ، فالسوق يتسع ويضيق على غير نظام ، وهـذا أمر لايجده المرء في مدن أميركة الحديثة التي بنيت على طراز يكاد يكون واحدا .

ولكن لابد في « بوستن » وفي مدن أميركة من حدائق عامة في لب المدينة يتنفس فيها الناس فيستريحون على مقاعد أو يستظلون بظـلال شجرها أو يلعبون في ملاعبهـا ، والذي استمـال نظري في حديقـة « بوستن » اعلان قرأته جاء في بعضه هذه العبارة : حافظوا على نظافة حديقتكم ، فان هذا الضمير في حديقتكم دلني على معنى عميق ، فقـد دلني على أن الأميركي يشعر بأنه يملك الحديقة فهو صاحبها ، فالحديقة ليست للبلدية وانما هي لأبناء البلد ، فاذا حافظوا على نظافتها فكأنهم حافظوا على نظافة حدائقهم في دورهم .

فلنودع « بوستن » ولكن أنودعها دون أن نرى المحيط الأطلنطي فيها ، سألنا عن قربه أو بعده فهدونا الى السيارة العامة التي تذهب اليه

فركبناهاووصلنا الى ضاحيةهادئة أنيقة ، فجلسنا على مقاعدفي تل مرتفع يشرف على المحيط ، فأين المقاهي ، أين الملاهي على البحر ، لايجد المرء في أميركة شيئا من ذلك ، فكأن الناس اذا تعودوا انتياب هذه المقاهي والملاهي ألهتهم لذة الراحة فيها وفتنة مشاهدها عن العمل فألفوا الكسل وزهدوا في العمل •

اني لاأنسى ساعة قضيتها على مقعد في هذا التل المشرف على المحيط الأطلنطي ، أمامي من جهةهذا البحر العظيم الذي تغرق فيه متاعب الانسان وأفكاره السود وهو يتمتع منه ومن جهة ضاحية زاهية بشجرها وقصورها ، من هذا اليوم طفقت أتعرف الى مشاهد الطبيعة في أميركة وأستأنس بها •

بفـــلو BUFFALO

٢٦ ايلول ١٩٥٣

خرجت من « بوستن » في المســاء ، قضيت الليل كله في القطـار واستفقت في مدينة اسمها : Batavia .

ماذا رأيت على الطريق ، أرمي بعيني فأجد سهولا مديدة فيها غابات قليلة وشجر قليل ويظهر أن الشجرمقطوع وهكذا نرى أن الغابات كانت تملأ هذه البقاع وأن الانسان أبقى على بعضها وقطع بعضها امّاللدفء وإما للمعامل ، وقد يجوز أن قسما من الغابات احترق ، والذي بسلي النظر في هذه السهول قرى مبعثرة فيها واقعة على خطوط الحديد بيوتها مشتتة بين الشجر .

وما زلت كذلك حتى وصلت الـى Buffalo ولست أدري لمـاذا سميت هذه المدينة الحلوة : « بفلو » ومعنى هـذا الاسم الجاموس المشهور في أميركة ، أفلم يظلموا هذه المدينة النظيفة الوديعة الهادئة بهذا الاسم المخيف . أفلم يظلموا هـذه المدينة العظيمة في بساطتهـا وطراز أبنيتها ، الغالبعليها النمط الانكليزي ، أفلميظلموا موقف القطارفيها .

لم تكن مدينة «بفلو»الا ممراً لي إلىشلالات «نياكرا» الى تحقيق هذا الحلم الذي كنت أحلم به من أيام الدراسة ، في تلك الأيام أمنيتان غلبتا علي : رؤية « البندقية » في ايطالية ، ورؤية شلالات نيـاكرا في أميركة ، أماالبندقية فالذيرغبني فيها كتابانشاءفيه وصف لها ،وصف

لأسواقها ودورهاوجسورها ومائهاولا سيما وصف زوارقها : الغناديل، وقد حققت هذه الأمنية ، فملأت عيني من سحر البندقيـة واستطعت أن أفرغ شعوري في مقـال واما شلالات « نيـاكرا » فقد حببهـا الي « شاتوبريان » في وصفه لها ولم يقع في خلدي أني سأذهب في يوم من الأيام الى أميركة وأتنزه على هدير شلالا ت« نياكرا » •

استـرحت في « بفلـو » في فنـدق : Lafayette وفي الصبـاح انطلقت نحو الشلالات ، هذه البقعة من أروع البقاع في أميركة، من « بفلو » الى « كليفلند » الى « ديترويت » الى « شيكاغو » بحيرات عظيمة جعلت فتنة هذا الجزء من الولايات المتحدة ، فالبحيرات مجموعة في هـذه البقعة التي تفصل أميركة عن الكندا ، ومن بعد شيكاغو تبدأ صحراوات مثل صحراوات افريقية وهكذا نجد أن أميركة جمعت مشاهد الطبيعة في العالم كله ، وقد أفرغت هذه الفكرة في حديث أذيع في صوت أميركة في نيويورك في شهر كانون الأول سنة ١٩٥٣

لاأكاد أخرج بين « بفلو » او « نياكرا » من مشهـد عجيب حتى تأخذ عيني مشهدا أعجب ، ان بحيرات « واشنطن » التي أعجبت بهـا صغرت في عيني أمام بحيرات « بفلو » التي يمتد الشجر من أطرافها على صورة غابات تنبسط في مسافات مترامية الأطراف وان بحيرات « بفلو » صارت في عيني كلاشيء أمام شلالات « نياكرا » •

فكأن الطبيعة خلقت هذه المشاهد على الطريق الممتد من « بفلو » الى « نياكرا » حتى لاتفاجيء الشلالات عين انسان مفاجأة، فيغشى عليه من هولها ، تقع هذه الشلالات في ضاحية سميت باسمهـا : شلالات نياكرا ، في هذه الضاحية بعض المطاعم وبعض الفنادق وهي ضاحيـة نظيفة لا ضوضاء فيها ولا صخب ، فحسبها صخب الماء وهديره •

أين الشلالات ! أين حلم الصبا ! يتدفق الماء لأول وهلة على شكل

نهر ، ثم يتسع فيكون على صورة بحيرة ، ثم ينبسط فيكون بحرا والغياض تحيط به ، واروع شيء في هذا المشهد انما هو هدير الماء الراعب ، هذه الموسيقى الساحرة ، وما أظن أن أحدا استطاع أن يصفها ما خلا « شاتوبريان » ولكنه على بلاغته هل استطاع أن يفيها حقها ، وقبل أن تجتمع الشلالا ت وتنصب هذا الانصباب المخيف يضيع الماء قليلا في غياض من حور أو شجر آخر ، فينساب بين هذه الغياض من هنا ومن هنا ، حتى حسبتني في متنزهات دمر والشاذروان في دمشق والشجر بين هذا الماء كأنه جزر مشتتة ، ثم يجتمع الماء بعضه الى بعض فيتدفق على صورة شلالات وليست الشلالات عالية جدا ، فقد يقدرون علوها بنحو خمسين مترا ولكن روعتها في انصبابها ، فهي تؤلف نصف دائرة ، يقف المرء الى جنب شلالات أميركة فتقابله شلالات الكندا ويقف الى جنب شلالات الكندا فتقابله شلالات أميركة ، انما القسم الأعظم من هذه الشلالات نصيب الكندا ، وتنصب الشلالات كلها في واد ، فيجري منها نهر في هذا الوادي •

ماذا يعتري الانسان في مثل هذا المشهد ، لاأدري ، لقد ملك الماء علي شعوري وتفكيري ، فوقفت اتأمل وأنظر في رهبة الطبيعة وجبروتها فكأني خرجت من نفسي وكأني أصبحت صنما لاأنطق ولا أتحرك ، أذهب الى جهة مرةوأذهب جهة مرة وهكذا ضعت بين الجيئةوالذهوب، ولقد اهتديت وأنا اطالع كتابا حديثا بالانكليزية الى تعبير أعجبني ، فان صاحبه يقول : أظن من الصعب إفراغ عقائدي في الألفاظ ، وأنا أقول أظن أن من المستحيل إفراغ شعوري وأنا أنظر الى الماء في الألفاظ ، فحسبي أن أملأ أذني من هدير هذا الماء وعيني من رهبته ، فلا أحفل بشعور ولا بتفكير ، لأن الماء بلغ من القوة مبلغا قطع علي كل شعور وكل تفكير ، حسبي أن أنقاد الى عظمته وأن استسلم الى جلالته ، مالي وللشعور ، مالي وللتفكير •

أمّا رفيقي الدكتور سالم فقد اكتفى من هذا كله بأن غطس أصابعه في ماء « نياكرا » فحسبه هذه الذكرى كل حياته .

أأجيء الى حدود الكندا ولا أدخلها ، فان السيارة التي تنقل السياح من ناحية أميركة الى ناحية الكنـــدا لاتزال تنتظرنا ، الا أن الأميركان يدخلون من دون جواز ، لم يسمح للدكتور ايلي سالم بدخول الكندا لأن جوازه يشير الى أنه لايزال طالبا في الجامعة ، أما أنا فقد سمحو لي بالدخول ولست أدري لماذا ، قيل لي لأني أستاذ في الجامعة .

لاشك في أن الساعتين اللتين قضيتهما في بعض ضواحي الكندا في زيارة عامة لم تضيعا ، فقد وقفت على ذوق الانكليز في الأرياف ، فالدور تختلف عن الدور الأميركية والحدائق كذلك ، والذين زاروا انكلترةثم زاروا الكندا يدركون في الحال أن الأرياف في الكندا انما هي انكليزية الذوق وحدائق الانكليز معروفة ، فانها تختلف عن الحدائق في فرنسة أو سويسرة ، أما وجوه الاختلاف فأظن انه لاسبيل الى تفصيلها في مثل هذه النزهة السريعة .

دخلت الكندا من دون جواز ولم يخطر ببالي أن الخروج منها يحتاج الى جواز ، فلما وصلت بنا السيارة العامة الى الحدود في أثناء العودة استوقفها الشرطي وأخذ يسأل كل واحد من الركاب حتى بلغت النوبة الي فأعطيته جوازي فاستغرب دخولي وأنا غير أميركي وسأل السائق كيف دخلت ، ومرت بذهني كالبرق قصتي في رومة ولا سفير لنـــا في الكنـــدا ولا قنصل ، فمددت يدي الى جيبي وأخرجت دعوة الرئيس ايزنهور أياي الى زيارته في القصر الأبيض ودفعت الكتاب الى الشرطي فقرأه ولم تظهر عليه آثار المبالاة به وكيف كان الأمر فقد أعاد الكتاب الي وسمح لي بالمرور .

CLEVELAND كليفلند

٢٧ ايلول ١٩٥٣

في هذا الصباح ودعت « بفلو » واني لأكتفي بألفاظ وردت في دفتري تلخص صورتها : بساطتها ، فنها ، محطتها ، هذه الأمور الثلاثة هي التي حبست ذهني في « بفلو » .

توجهت نحو « كيفلند » فوجدت على يمين القطار بحيرة : Erie وهي متصلة ببحيرة Ontario ولكن منظر البحيرة وحده لايشبع ، فقد زادت في رونقه سهول رحيبة بعضها لاشجر فيه ، ووجدت على شمال القطار سهولا تتصل بجبال غير شاهقة ولكنها جبال شجيرة والمشاهد من البحيرة الى القطار تشبه في سورية السهل الممتد من البحر في بانياس أو طرطوس الى الطريق العام ولكن مسافات أكبر ، ماذا يرى المسافر في هذه السهول ، انه يرى الشجر مرة والأرض المستوية مرةوقد زرعت فيها البندورة على مقربة من خط الحديد ، زرعت على الأصول الحديثة فهم يرفعونهاعن الأرض ويعلقونها بقضبان من حديد ، فتعلق بها وتشتبك، وآخر هذه المشاهد مدينة Erie وقد سميت البحيرة باسمها أو سميت البحيرة باسم المدينة .

أجد في دفتري بعد العبارة المتقدمة مايلي ، ولست أدري كيف علق هذا المنظر بعيني ، هل كان ذلك في « بفلو » : أميركة تجمع المتناقضات تجد في مخزن ، في جام من جاماته ، جميع الألوان والأشكال ، وهو

ذوق أميركي مركب ، وتجد في مخزن آخر لوناً واحداً أو شكلاً واحدا مما يدل على البساطة ، وقد رأيت مثل هذه البساطة في مخازن « لندن » فقد يكون عرض جام من الجامات عشرة أمتار على الطريق العام وليس في هذا الجام الا ثوب واحد معروض •

وصلت الى « كليفلند » فتبين لي أنها مدينة عظيمة ، فهي واقعة على بحيرة Eric نفسها ، أبنيتها ضخمة جدا ، مرة تكون هذه الأبنية بسيطة ومرة تكون كأنها قطعة فن مركب ، اشتهرت « كليفلند » بمكتبتها ، فلم أزرها الا للمكتبة ، أما هذه المكتبة فانها قريبة من البحيرة ، فيها كل الفن ، في بنائها وسقوفها وترتيبها ، يضعون في مدخل المكتبة فهارس أماكنها ، فهرس للعلوم وفهرس للتاريخ وآخر للفلسفة وغير ذلك وفي هذه المكتبة أنواع التسهيلات ، فانهم يعيرون الكتاب ، فاذا فرغ القاريء منه وأحب اعادته وكان يسوق سيارته ولم يشأ أن يدخل المكتبة حتى لا يضيع وقته ألقى الكتاب في صندوق على باب المكتبة وانطلق •

دخلت هذه المكتبة وتعرفت الى القيّم عليها ، فوجدت من باب الاتفاق الجزء الأول من كتاب الأغاني بين يديه وعليه تعليقات لاتينية لأستاذ اللاهوت والأدب والشرقيات في أكاديمية Pomerana وأسمه :

Godofredo Ludovico Kosegarten

وقد طبع سنة ١٨٤٠ واسم الجامعة التي طبعته : Greifsevald

خرجت من المكتبة الى البحيرة آملا أن أجد عليها مقهى أو ملهى ، أين المقاهي وأين الملاهي ، فهل وجدت شيئا منها على شلالات « نياكرا » هل وجدت شيئا منها على بحيرة Eric انهم لا يريدون أن يتمتعوا من سحر الطبيعة ، انهم لا يريدون أن يخلوا الى أنفسهم ساعة من الزمن يصفّون فيها هذه الأنفس بمشهد من مشاهد الطبيعة ، العمل ! العمل ! قبل كل شيء ، ولكن ماهي نتيجة الافراط في العمل ، ضعف الأعصاب ، أمراض القلب ، وجع الرأس •

لقد شرعت هذه المدينة أقف على روح العمل في أمبركة ، ليس في أميركة عمل شائن ، كل عمل تأخذ أجرك عليه انما هو عمل شريف ، لقد رأيت طلاب جامعة يشتغلون باصلاح الطريق في آخر الصيف لجمع أجور التحصيل في الجامعة ، هذا أمر لاغضاضة فيه ، ورأيت المرأة تزاحم الرجل في كل شيء حتى في سوق السيارات ، فالراهبات يسقن السيارات ، وتزاحمه في التدخين ، لقد كثر التدخين في النساء وشاع حتى في الطالبات الصغيرات اللواتي لم يصلن الى العشرين ، ولماذا يمتنعن عن التدخين ، الرجل لايزيد عليهن في شيء ، انه يعمل وهن يعملن ، انه يلهو وهن يلهون ، وأجمل منظر شهدته في « كليفلند » منظر النساء في المساء وهن خارجات من أعمالهن ، انهن يدخلن المخازن المختلفة فيشترين ويحملن أشياءهن بأيديهن ولماذا لايشترين وقد اشتغلن النهار كله وحصلن على الأجور .

ديترويت DETROIT

٢٩ ايلول ١٩٥٣

هذه مدينة الحديد والفولاذ ، من مدخلها يعلم الانسان أنه في بلد المعامل والمصانع ، يجد الحديد ملقى على الأرض والسيارات مصفوفة كأنها قطعان في فضاء ، ليس بي ميل الى زيارة بلدان من هـذا النوع، ولكن ما العمل ، لابد من زيارة معمل للسيارات ، فليكن معمل سيارة : Cadillac .

العظمة لله أولا وللآلة ثانيا ، يدخل المرء هذا المعمل فيحسب نفسه في قصر حكومة ، ماأعظم هذه السيارات الجاهزة المصفوفة بالمئـات ، يدخل المرء فيدفعون اليه الاعلان ، تعيش أميركة بالاعلانات ، لقد أتقنت هذا الفن الاتقان كله ، لابد من مراجعة المـدير ليطوف بالمعمل ، ولا أقصد بذلك مدير المعمل كله وانما أقصد هذا الشاب الذي عهدوا اليه طواف الزوار ، فاذا خرج الزائر من عند هذا الشـاب رأى البنات على الآلة الكاتبة بالعشرات ورأى الشباب ، فالمعمل أعظم من قصر حكومة.

أظن أن لغتنـا تضيق عن مفردات لتصوير آلات السيارة ، هـذا المعمل لايعمل السيارة كلها وانما يركبها تركيبا ويسلم السيـارة اليك جاهزة ، في معامل ثانية تعمل أجزاء السيارة ، في معمل يعمل المحرك ، وفي آخر الدولاب وفي آخر السقف ، ثم ترسل هذه الأجزاء كلهـا الى المعمل الذي نحن فيه ، فيركبونها وقيل لنا إن في كل دقيقة سيارة كاملة

بأدواتها ، فالمعمل فرع من آخر ، فالقطار يحمل الأدوات تامة اليه فيمتحنونها فيه ويركبونها ، فهم يربطون كل عشرين أو ثلاثين سيارة بعضها ببعض ، فتسير على خط حديدفي المعمل ، ثم يجعلون في كل سيارة مايلزمها ولكل واحدة منها لون خاص فاذا وصلت الى محلها المخصص جاءت الدواليب في سرعة الى السيارة التي هي من لونها ، فاذا تم تركيب السيارة امتحنوها في داخل المعمل ، فليتصور الانسان معملا تسير فيه السيارات للتجريب ، الأميركي محصور فكره في الآلة ، أمّا وراء الآلة فماذا يكون مقدار فهمه .

اذا زاحمت المرأة الرجل في أعمال الكتابة والحساب والبيع والشراء والمطاعم فلا غرابة في ذلك ولكن الغرابة في مزاحمتها له في المعامل ، في هذه الميادين التي تستلزم العضلات المفتولة والسواعد القوية ، فتجدها في هذا المعمل تلف أذرعها بالقماش الأزرق حتى لاتسود هذه الأذرع النضرة ، فالمرأة تسوق السيارات العامة وتعمل في المعامل ، ولا شك في أنها ستخرج في السنين الآتية عن طبيعتها ، عن أنوثتها ولا بد حينئذ من أزمة بينها وبين الرجل .

أما وقد زرت معمل Cldillac فلا غنى عن سوآل المدير ، قلت له هل تجعلون للعمال نسبة من ربح المعمل في السنة ، فأدرك حرج هذا السوآل فتردد قليلا ثم قال : ان العمال يقدمون مقترحاتهم ، فيجتمع مجلس الادارة ، فما أمكن تنفيذه من هذه المقترحات نفذوه وما لم يمكن تنفيذه ردوه ، وشعرت بأنه في غنى عن الخوض في مثل هذا الموضوع .

لقد ضاق الصدر وضعفت النَفَس وامتقع اللون وكادت الروح تخرج من هذا الضيق ومن هذا الضعف وهذا الامتقاع ، فلنودع المدير ولنبادر الى الهواء الطلق ، فما كدت أخرج من المعمل وأمشي قليلا فأبلغ موقف السيارات العامة حتى وقعت عيني في جادة على هذا المنظر : تلميذان

صغيران ، واحد أسود وواحد أبيض وقفا في مفترق الطرق وقت الظهر وانتظرا رفقاءهما في المدرسة ليدرباهم على السير في الشوارع وقد انتظرت رفقاء هذين التلميذين لأرى هـذا التدريب ، حقا انه تدريب منظم ، يعلم الأستاذ الصغير رفقاءه الصغار كيف يجب عليهم أن يسيروا في الزحمة ولا يكتفي بالنظر وانما يقرنه بالعمل ، فهو يأخذ بيد التلميذ ويقذف به الى الشارع وعلى هذا الشكل يسهل على الأميركي اذا نشأ وترعرع أن يسير والطرق مزدحمة .

ولكن فلنسرع الى الفندق ، لقد تعبت من كل شيء ، تعبت من زيارة المعمل ، تعبت من مشاهدة التدريب وأحمد الله على أن الفندق وأسمه : Tuller واقـع في لب البلد على ساحة تلمع أنوارها في الليل لمعـان الكواكب في المساء ، سلطت فيها أنوار الكهرباء على صهاريج الماء ، ولم أجد مثل هذه الساحة الا في شوارع رومة حيث يعنون بتسليط الكهرباء على صهاريج الماء .

هل أخرج من « ديترويت » دون شيء يدلني على غرائب الأميركان لئن شهدت نمطا من هذه الغرائب في عرض البضائـع لقد شهـدت في « ديترويت » نمطا آخر ، في الغرب رجل يقطع الطرق وينهب ويسلب ويقتل ، اسمه : Jeese James هذا الرجل عرضوه في السينما ولكـن بأي أسم عرضوه ، لقد عرضوه بهذا الاسم : جيز جمس الكبير ، فهو في الرواية بطلها ، لماذا ، لأنه كان يقتحم الأهوال في حياته ، فالأميركان ، ولا سيما أميركان الغرب مولعون بالبطولة ، سواء أكانت هذه البطولة في القتل والنهب أم كانت في شيء أرفع من ذلك .

ANN ARBOR أنربور

٣٠ ايلول ١٩٥٣

تركت مدينة « ديترويت » في الظهر ، مدينة وجع القلب والرأس والأعصاب وتوجهت نحو هذه الضاحية الساحرة « أنربور » وهي واقعة في ولاية : Michigan تركت المعامل والمصانع والضجّة والضوضاء فسار بنا القطار وعلى يميني وعلى شمالي غابات الشجر ، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ، ومن مسافة الى مسافة على شمال القطار أو على يمينه نهر صغير كأنه ترعة أو كأنه نهر بردى وعلى جوانبه الأشجار ، فذكرت بهذه المناظر وطني وان كان الفرق عظيما في المنظر ، وما زلت أتنقل من مشهد الى مشهد حتى بلغت « أنربور » وهي ضاحية فاتنة ، دورها دور القرى المنظمة ، كلها على طرز واحد ، فكأني في « برنستن » بين الدار والدار متران أو ثلاثة أمتار والحدائق تحيط بالدار والشجر مغروس على الطريق والشمس مشرقة ضاحكة ، فكأني في جنة ، الا أن السيارات في الطريق لا يحصيها احصاء ، على أني في ضاحية لا في مدينة وما لبثت أن وصلت الى الفندق وهو فندق يظهر عليه روح الجامعة ، انه بسيط نظيف ليس فيه شيء من العظمة والترف ، انه جزء من الجامعة ولذلك وجدت فيه بساطة العلم ، فكأني وأنا في هذا الفندق طالب من الطلاب ، اينما ألقيت النظر وجدت الحدائق على الجوانب كلها .

اسم الجامعة في « أنربور » Michigan University ، على مدخل بناء من أبنية هذه الجامعة العبارة الآتية :

« الدين والأخلاق والمعرفة ضرورية لوجود حكومة صالحة ولسعادة البشرية ويجب أن تشجع المدارس ووسائل التربية أبد الآبدين . »

ولكن هذه الحكم البالغة لاتحول دون تدخين الطالبات ، فالسجاير في أيديهن والدخان يتناثر في الفضاء تناثر أنفاسهن الذكية وقد شهدت في بعض الصفوف طلابا يدخنون في خلال التدريس .

السيارات ! السيارات ! انها مشكوكة على باب الجامعة ، فهي للأساتذة والطلاب ، أما الطلاب الذين يجوز لهم أن يقتنوا سيّارات فهم المتزوجون أو الذين بلغ عمرهم ثلاثا وعشرين سنة ، قيل لي ان في الجامعة سبعة عشر ألف طالب وطالبة وألفا ومائتي أستاذ وفي بعض الصفوف الأساتذة نساء ، ولما انحدرت الى مطعم الفندق للغداء وجدت فتاة مثل الزهرة تخدمني ، فأحببت أن أسألها من هي : قالت : اني طالبة أدرس الطب في فالطالبات يخدمن على الأكل لتحصيل أجور يدفعن بها رسوم الجامعة ، لاعيب في كل ذلك ، وهذه عظمة أميركة وغيرها من الأمم التي هي على هذه الأخلاق ، ولم أعظم أحداً في حياتي مقدار تعظيمي لهؤلاء الطلاب الذين يخدمون على الأكل أو في الطرق والفنادق ، واذا وجد هؤلاء الطلاب الذين يخدمون على الأكل فرصة بين فترات الطعام اعتزلوا ناحية وألقوا نظرهم على جريدة من الجرائد .

اتفق اني وقفت على باب صف في الجامعة ، فسمت الأستاذ يدرس اللغة العربية وهو يقطع للطلاب فعل كان يكون ثلاثة مقاطع : ي / كو / ن / فأشفقت على هؤلاء الطلاب المساكين وقلت في نفسي ماذا يكون شأنهم اذا وصلوا غدا الى مسائل النحو كمعاني الحروف أو موانع الصرف أو غير ذلك و في بعض الصفوف يدخل الأستاذ وكلبه معه حتى لاتفوته فائدة العلم وقد شهدت درسا في قسم الدراسات المتعلقة بالشرق الأدنى : الدرس مادته علم السياسة ، فقد وزع الأستاذ على الطلاب جدولا يشتمل على المراجع والمصادر ، من جملة هذه المراجع كتاب زميلي

في كلية الآداب الدكتور جورج حداد ، أستاذ التاريخ ، وهو يبحث عن سورية الحديثة وعن لبنان في غضون خمس سنين ، ولا حاجة بي الى أن أفصح عن سروري لما وجدت أسم زميل لي يتردد في جامعات أميركة •

يبدأ الأستاذ ، فيوزع على الطلاب ورقة فيها أسماء المصادر ، ثم يمسك بيده ورقة فيقرأ مرة ويشرح مرة وأكثر الأساتذة شباب ويسمح للطلاب بسوآل الأستاذ وهو يلقي درسه والطالب يسـأل وهو جالس والذي استغربته أن ستة أو سبعة طلاب سألوا الأستاذ ، فكان الدرس يضيع بالسوآل والجواب ولكن يظهر أن الغاية انما هي فهي الطالب ، فليفهم على هذه الطريقة ، على طريقة السوآل والجواب وأنا أعتقد أن رونق الدرس يذهب على هذا الوجه •

أجد في كل جامعة أزورها شيئا جديدا بالنسبة الي ، هذه الجامعة قد تكون مثل جامعة « برنستن » في أكثر مبانيها وهي تشبهها في وضعها فان مبانيها مبعثرة هنا وهناك والحدائق الغلب تحيط بها من كل ناحية، الا أني لم أجد مثيلا لنظافة هذا الفندق في الجامعة ولنظافة أكله وهو ليس بفندق وانما هو مجتمع للطلاب ، والذي يلفت النظر في الجامعـة اذا جال الانسان في حدائقها جمال الطالبات ، فأعظم شيء هذه العناية برياضة البدن ، الشباب كلهم جبابرة في أجسامهم والفتيات رشيقات في حركاتهن وفي الجامعة مدرسة خاصة لتدريس رياضة البدن وقد رأيت الفتيات وهن شبه عاريات يلعبن لعبة « التنس » ومن عظمة هذه الجامعة ملعبها الذي يستوعب مائة ألف متفرج ، يظن المرء نفسه فيه أنه في ملاعب الرومان القدماء ووسطه المرج الأخضر ومن ورائه هذا الشجر الممتـد مـدى البصر والملعب خاص « للفـوتبول » وجامعـة « Michigan » تكاد تكون أشهر جامعات أميركة في الالعاب •

لكل جامعة شعارها الخاص ، وشعار هذه الجامعة : اللون الأصفر

واللون الأزرق وما أكثر أندية الطلاب فيها ، فلكل جماعة منهم ناد للطلاب وناد للطالبات .

سهرة وأحاديث :

تعرفت في هذه الجامعة الى شاب صديق لرفيقي الدكتور ايلي سالم ، اسمه : Guy Labolme ، عمره ثلاث وعشرون سنة ، توثقت بيننا صداقة وجرت مكاتبات ، هذا الشاب من أصل فرنسي ، ترك أبوه فرنسة بعد الحرب الكبرى الأولى وجاء الولايات المتحدة ، وهو طبيب ، يدرس Guy الجامعة ودراسته تتعلق بالشرق الأوسط وهو يتعلم العربية وقد كاتبني بها ويعرف الفرنسية وأبوه يحمله على التكلم بها حتى لا ينساها ، انه متزوج وهذا شأن الطلاب ، فان أكثرهم يتزوجون في الجامعة في سن التحصيل وزوجته تظهر عليها آثار الحشمة ، فهي كاملة، قال لي Guy : انها من أهل محافظين ولم يرض أهلي بغيرها زوجة لي لأن المرأة الأميركية اذا لم تكن محافظة فانها تخلص لزوجها المحبة مادام يعطيها مايلزمها ، فاذا عجز عن العطاء تركته ولو كان مريضا ، هذا ماقاله لي فتى متزوج يعيش بين فتيات الجامعة .

يقيم Guy بدار صغيرة فيها غرفة نوم وفيها بهو للضيوف ، ماعدا المطبخ والحمام ، تكلفه أجرتها في الشهر مايقرب من مائة دولار ، دعاني الى سهرة في داره وهو سمح النفس ، رقيق العشرة ، بشوش الوجه، صافي النية ، جرت بيننا أحاديث شتى ، جرى حديث الخدم ، فان في أميركة أزمة خدم ، فلا يكاد الانسان يجد خدما الا في دور أصحاب الملايين قال Guy ان الأميركان لايحبون أن يكونوا خدما لأن من مبدأ الديمقراطية أن لايكون فرق بين الطبقات ولهذا نجد أزمة خدم في بلادنا ، فالأميركان يأكلون في المطاعم واذا كان عند أحدهم خادم فأكثر الخدم ليسوا من الأميركان فهم امّا ألمان وأمّا من جهة الشمال ، من الدانمارك أو النروج أو السويد .

من قول Guy لي : الأميركان لايحبون الألقاب ولكنه يعتقد أنهم كلهم في الباطن يريدون الألقاب ، شرح لي هذا الفتى أزمة الخدم ، ثم أفاض في قضية فلسطين بحسب العقلية الأميركية ، فمن رأيه أن العرب لايعرفون كيف يخاطبون الأميركان ، فهم يتكلمون على فظائع اليهود ولكن اليهود لهم تأثير في أميركة ، فالأصلح أن يخاطبوا الأميركان على مقادير عقولهم ، يجب عليهم أن لايبدأوا بالشتم ولكن يلزمهم ان يقولوا للاميركان ان اليهود فعلوا كذا وقتلوا كذا واعتدوا على كذا ، هذه اللغة يفهمها الأميركان ، انهم يؤمنون بالبرهان المحسوس .

لست عنيداً في رأيي ، فاني اذا وجدت الاخلاص في حديث من الأحاديث آمنت بهذا الحديث على ظواهره وقد وجدت في كلام Guy كثيراً من الاخلاص ، فأحببت أن أدون هذا الكلام على علاته ليكون صورة من صور بعض العقلية الأميركية الخالصة النقية .

ثم جرى بيني وبين Guy حديث العمل في أميركة ، وقد بينت له تعب هذه الفلسفة المادية ، فقال : الأميركي يحب العمل لأنه يعتقد انه يجب عليه أن يتقدم في كل يوم ، فاذا لم يعمل وقف ثم تأخر ثم انهار ، فليعمل فالعمل سعادته ، والأميركان يميلون الى الألعاب ، الى السينما ، لأنهم يريدون أن يروضوا أذهانهم بعد التعب ، فليس لهم الا هذه الوسيلة .

قال لي : غدا ، اذا ذهبتم الى الغرب ، الى كاليفورنية مثلا وجدتم اختلافا في الطبائع الأميركية فأهل « نيويورك » لايعرفون الا العمل ولا قيمة عندهم للمجاملات ، أما أهل الغرب فانهم يجاملون ويلاطفون ويدعون الى الدور ويصادقون ، فقلت له : ان هذه العادات انما هي عادات الأسبان جيرانهم وأنت تعرف الصلة بين العرب والأسبان في القديم ، فهذه العادات كلها عادات العرب .

انقضت السهرة على هذا الطرز من الأحاديث ، فاغتنمت هذه الفرصة

لأعيش قليلا مع أسرة أميركية ولأشهد نمط الحياة في الدار ، لقدشهدت كرم نفس Guy، انه فرنسي الأصل ، فيه روح الفرنسيين ، فيه ميل الى خمور الفرنسيين ، ولما ودعته قال : غداً لابد من نزهة في سيارتي ، ولست أدري كيف انتظرت هذا الغد لأني مفتون بالضواحي والأرياف.

جاءني Guy بسيارته ومعه زوجته ، فركبت وركب رفيقي الدكتور ايلي سالم ، طفنا وهذا الصديق لاأنساه مطافا كل عمري ، فقد ظللت أربع ساعات أو خمس ساعات في السيارة أتفرج في الريف الأميركي .

كانت النزهة من وراء « أنربور » فقد مررنا بأماكن كثيرة ، مررنا بمناظر تشبه مناظر الغوطة في دمشق ولكنها تختلف عنها باختلاف اتساعها، أجمل هذه المناظر دار الفلاح في مزرعته ، الفلاح أمامه خيراته كلها : أمامه مزرعته وبقره وخيله وسيارته وفي بعض الأحيان طائرته الخاصة ، يستفيق في الصباح ويعمل في هذه المزرعة حتى اذا كان المساء رجع الى داره فذاق الحياة الاجتماعية في أسرته ، وتكاد تكون هذه اللذة مفقودة في المدن والذي يخلب الألباب في هذه النزهة منظر البحيرات من حين الى آخر ، يطوف الانسان حول حقول ومزارع ثم يبلغ بحيرة فيريح نظره بهذا الماء ، ولكن أين المقاهي ، أين الملاهي على البحيرة ، هذا الأمر واحد في أميركة كلها ، استرحنا قليلا على شواطيء هذه البحيرة ونحن واقفون وأظن ان اسمها : Waittemore ، واذا لم نجد المقاهي والملاهي على أطراف هذا الماء الحالم فقد وجدت البيوت المبثوثة على هذه الأطراف ، ولست أدري هل في الدنيا نعيم أعظم من نعيم أصحاب هذه البيوت .

لابد من حين الى آخر من مشاهد تدل على غرائب الأميركان ، لقد رأيت أطفالا على هذه البحيرة يلبسون ثياب أبطال الأميركان ويحملون المسدسات ، ولو كنا في جبال قاسية لوجدت معنى لمثل هذه الثياب ولمثل

هذا السلاح ، ولكنا على شواطيء بحيرةهادئةساكنة توحي الى الانسان كثيرا من الهدوء والسكون ، فلماذا هذا السلاح ، لماذا أرى أدوات جهنم وأنا في ظلال الجنة •

والخلاصة ان الذين يزورون أميركة ثم يرجعون الى أوطانهم يحدثون أهلهم وأصحابهم عن كثير من وجوهها ، عن مصانعها ومعاملها ومتاجرها ، أمّا نحن معاشر الأدباء فقد يكون الحديث عن الطبيعة غالباً ، لانها تصفي نفوسنا وتليّن عواطفنا وتشحذ شعورنا وتصقل خيالنا وتروّض عقولنا ، أما دخان المعامل وهو عنوان فلسفة هذا العصر فكثيرا مايعمي أبصارنا وبصائرنا ، فلانألفه ألفتنا لغيوم السماء ولانولع به ولعنا بضباب الجواء •

لقد تعب Guy وهو يسوق بنا السيارة ولكنه لم يشأ أن يعترف بهذا التعب لشدة لطفه ورقة أدبه ، فلنعد الى « أنربور » لقد دخلنا الضاحية في أول عتمة الليل ، فدعوت الصديق وزوجته والدكتور ايلي سالم الى العشاء فدلنا Guy على مطعم مشهور في « أنربور » نسيت اسمه ، فتعشينا فيه ثم انصرف كل واحد الى مأواه وكان علينا أن نذهب في الصباح الى Chicago فلما طلع الصباح جاءنا Guy بسيارته على غير ميعاد ، فحمل عيابنا الى المحطة ثم ودعنا ولكنه لم يودعنا الا بعد أن هيأ لنا الفطور في المحطة •

هذا هو الأدب ، هذه هي الرقة ، من أجل هذا الأدب ومن أجل هذه الرقة لم أقطع المكاتبات بيني وبين Guy •

شيكاغو CHICAGO

١ تشرين الاول ١٩٥٣

دخلنا « شيكاغو » في المساء ، فغيرنا الفندق الذي حجز لنا فيه محل وقصدنا الى فندق قيل لنا انه أكبر فندق في العالم : Conrad Hilton دلنا عليه صديق الدكتور ايلي سالم وهو يوناني الأصل استقبلنا في المحطة ، يشتمل هذا الفندق على ثلاثة آلاف غرفة وهو يقع على شارع يكاد يشبه بعض الشبه قسما من شارع « الشان اليزه » في باريز .

يشعر الانسان بشيء من الزهو اذا نزل مثل هذا الفندق ولكن نظافة فندق « أنربور » تعدل أو تفوق في نظري هذا الفندق الكبير ، كل هذا ليس بذي شأن ، انما الشأن كل الشأن في انا تعشينا في مطعمه واسم قاعة هذا المطعم Boulevard Roonn وهي مشهورة في أميركة بسبب الاجتماعات العامة التي تعقد فيها ، لمست في هذا العشاء شيئا من ذوق الأميركان ، والأمر الطريف ،اني أهتدي في كل بلد الى شيء جديد ، في المطعم مسرح ، ولا بد من الاشارة الى أن أسعار الأكل غالية وان الطبقات التي تتردد الى هذا المطعم هي من الموسرين الاغنياء ، على المسرح رقص وغناء ولعب ، كنت أشهد هذا كله وأنا اتعشى .

لاشك في أن الراقصة الأميركية ماهرة وان كنت غير متعمق في معرفة هذا الفن ، الا أني رأيتها في رقصها كأنها آلة ميكانيكية ، فالآلة غالبة على أميركة حتى في الفنون الرفيعة ، فالذي تفتقر اليه هذه الراقصة على المسرح

انما هو الروح ولا يستطيع الانسان أن يدرك هذا النقص الا اذا شهد رقص امرأة فرنسية ، فالمرأة الفرنسية في رقصها روح وحياة ، وهذه الكلمة : الروح ، هي التي تعبر عن الفرق بين النوعين من الرقص ، ما أغرب الأميركان ! ما أشد ولعهم بالغرائب ! فترى جرائدهم الهزلية مملوءة بالصور الغريبة التي تشتمل على ألوان مختلفة وأوضاع متفاوتة ، ان ذوقهم في هذا المعنى قريب من ذوق الانكليز ، بعد الرقص بدىء بالألعاب ، وهنا موطن الغرائب ، رجل يلبس مطاطا يلاعبه رجل آخر مثله ، فيلقي عليه الماء ثم يخرج الماء من أذنه ومن فمه ومن خاصرته : ألعاب تضحك الأطفال ، هذا هو الذوق الأميركي ، ورجل آخر يرقص أطفالا صغارا من ورق أو خشب والخلاصة : ألاعيب صبيانية .

ولكنا لم نأت الى « شيكاغو » الا لزيارة جامعتها ، في اليوم الثاني قصدت الى الجامعة ، انها في ضاحية ولكن الضاحية متصلة بالمدينة فالوصول اليها كان على الترام والطريق غير مؤنس ، اني أجمع الذاكرة وأنا أكتب هذه السطور فأتذكر أبنية على الطريق موحشة ، و « شيكاغو » كلها مظلمة ، كئيبة ، فانها سوداء ، يمشي الانسان في الطريق وفوقه الترام فكأنه يمشي في بيت مسقوف والنهر الذي يشقها تجده في المساء مظلما كئيبا لا تسلط عليه أنوار زاهية ، يختلف موقع جامعة « شيكاغو » عن مواقع غيرها من الجامعات ، انها كما قلت في ضاحية متصلة بالمدينة ، وهذه الضاحية غير زاهية مثل غيرها من الضواحي ، فلم يبق في ذهني منها الا أثر مطعم فيه ذوق ، مشهور بطبخ الدجاج دلنا عليه طالب من أبناء العرب وما خلت جامعة من الجامعات التي زرناها من طلاب عرب ، فكأن الله لم يشأ أن يحرمنا من نغمة هذه اللغة المباركة ، ما قصدت الى جامعة الا وجدت طلابا من فلسطين أو لبنان أو سورية أو العراق يرحبون بنا ويدعونا بعضهم الى غرفهم .

أجل ، ان جامعة « شيكاغو » بعيدة عن البلد ومتصلة بهذا البلد ،

وهنا تعرض لنا المسئلة الآتية : هل يجب أن تكون الجامعة في البلد أو في الضاحية ، هل يجب أن تكون متصلة بالحياة العامة ، بمشكلاتها كلها أم يجب أن تكون منفصلة عن هذه الحياة ، في عزلة تامة ، في أفق خاص، أفق البحث المجرد الذي لايريد الاتصال بضوضاء الحياة العامة ، بسياستها ، باحتجاجاتها ، بمظاهراتها ، فلنترك هذه المسئلة لرجال التربية والتعليم ولنسرع الى مغادرة « شيكاغو » التي لم تخلف في نفسي أثرا بليغا ولكني أغادرها وأنا أذكر جمال نسائها في الطرق وتزاحم الناس على المطاعم التي فيها : Television ان أمثال هذه المطاعم تغص بالناس ، لأنهم يحبون شهود اللعب ، فاذا عرض مشهد صراع أو مشهد « فوتبول » رأيت الناس يكادون يجنون في أمثال هذه المشاهد حتى في الجامعات نفسها ، فان الطلاب والطالبات يتزاحمون على مثل هذا التفرج وحتى في الفنادق ، فالأميركان مولعون بالألعاب ، بمزاولتها ، بمشاهدتها وترى جريدة « نيويورك تايمس » وهي أكبر الجرائد تعنى بأخبار اللعب وتنشر صور اللاعبين على صفحات عديدة مجاراة لأذواق القراء ، وبفضل هذه الألعاب نجد الأجسام في بعض ولايات أميركة عظيمة ، حتى النساء أنفسهن فانهن موصوفات بامتداد القامة ورشاقة الحركات وقد يكون للأكل تأثير غير قليل ، لأنهم يسلقون سلقا والأكل المسلوق خفيف على المعدة ولا يأكلون أكثر من صحن واحد فيه لحم وخضر وبعد ذلك القهوة أو الشاي .

سان فرنسيسكو SAN FRANCISCO

٤ تشرين الاول ١٩٥٣

لاتكاد تنقضي ساعات على مغادرة « شيكاغو » حتى تختلف مشاهد الطبيعة الاختلاف كله عن المشاهد الماضية ، تظهر سهول مديدة لانهاية لها ، فكأن الانسان يسير بين دمشق وبغداد وكأنه يمر بسهول حوران في سورية ولكن على قياس أكبر ، سهول ليس فيها شجر ، أمّا الزرع فهو قليل ، لقد ظهر الغرب ، ظهرت صحراوات تشبه صحراوات افريقية ، وما زالت هذه الصحراوات تمتد بنا حتى وصلنا الى موقف اسمه : Cheyenne مكثنا فيه مقدار عشر دقائق واذا في الموقف مكان محوط عجلة كانوا يركبونها في الماضي من « سان فرنسيسكو » الى الشرق ، وكان الهنود يقطعون الطرق ويسلبون الركاب أو يقتلونهم والعجلة تعرض على الانسان فكرة انتقال أميركة من طور الى طور ، وآخر عجلة استعملت قبل سبع وتسعين سنة ، فالولايات المتحدة بنت الحاضر ، تاريخها لايكاد يذكر ، فهي تشهد ماضيها وحاضرها في كل دقيقة ، ليس فيها ماض بعيد يضيع في ظلمات العصور مثل الأمم ذات التاريخ البعيد الذي تمتد آفاقه فلا يعرف الانسان آوائله معرفة تامة ، لذلك ان أميركة تدرك فكرة « التطور » الادراك كله ، ففي كل متحف من متاحفها سوآء أكان متحف الحيوان أم كان متحف الانسان أم كان متحف النبات أم كان متحف الصناعة ترى أولية الحيوان والانسان والنبات والصناعة في بلادها .

بعد هذه الصحراوات التي قطعناها تعترضنا غابات على صورة فتانة ، فترى على مدى بعيد تلالا مرتفعة وأودية منخفضة فيها شجر وفي آواخرها جبال غير عالية والخلاصة ان في أميركة مشاهد الطبيعة كلها فمن الغابات،الى الحراج ، الى السهول،الى المرتفعات،الى السواقي والأنهار والبحيرات والشلالات والبحار ، فيها صحراوات تشبه صحراوات جزيرة العرب ليس فيها للحضارة أثر ، معنى هذا ان الأميركان لما أعطتهم الطبيعة السهول الخصبة استفادوا منها وعمروها ولكنها لما أعطتهم الصحارى أهملوا العمل في بعضها ، فلم يصنعوا شيئا ، وفي هذه الصحارى جبال جرد ليس فيها عشب ولكنها أشبه شيء بتلال كبيرة .

تجوز هذه الصحارى كلها فتمر على قرية اسمها : النهر الأخضر Green River فكأنك في جسر شغور سورية ، في هذه القرية بيوت قليلة منثورة على هذا النهر الصغير ، فيأخذ العجب منك كل مأخذ ، هل أنت في أميركة ، هل أنت في هذه الدنيا الغنية ، أم أنت في قرى حقيرة .

كنا نرى في الصحارى من حين الى آخر على ضفاف ساقية تجري بين قليل من الشجر بيوتاً من خشب مما يدل على أن حالة الفلاح ليست واحدة في الولايات المتحدة ، ففي مواطن يُسر وفي قليل من المواطن عُسر ، وعلى الرغم من هذه الصحارى استطاع الأميركان على خلاف ماتقدمت الاشارة اليه أن يعملوا ، أي أن يخلقوا مدينة جميلة اسمها : Reno ، جميلة بدورها وشوارعها ، فهي على طراز قرى أميركة في هذه الصحراء وهي مشتتة على تلال وتحيط بها الجبال الجرد ، لقد طفقت العين بعد أن أوحشتها رؤية رمال الصحارى تأنس برؤية الشارع المزفت والسيارة .

ماأجمل هذه القرى الغارقة في بطون الأودية وهي تحيط بها جبال، فكأن الانسان في جرد الزبداني في الشام ، كأنه في سرغايا ، لقد ظهر

الماء والحياة لاتكون الا حيث يكون الماء ، ظهر المـاء وظهرت سلسلة جبال شجيرة ، فكأني في لبنان في جهات « ضهور الشوير » وفي الأودية على جانب الطريق العام وخط الحديد نهر لايزيد على نهـر بودى في دمشق ، وبيوت القرى من القرميد الأبيض ، فهو على جوانبها كلها ،لقد بدت الحضارة وبدت القرى ولكنها تختلف عن قرى الشرق ، انها في أودية على أطرافها الجبال ، أما قرى الشرق فانها في سهول لايعرف أولها ولا آخرها والشجر في أكثرها .

هكذا انتهت هذه الصحارى وبدت الجبال الشجيرة وعلى أقدامها نهر صغير مثل أنهار بلادنا والقطار يقطع بنا وادياً تحيط به هذه الجبال، وقد قيل لنا انه جاءت في الماضي بعثة من المهاجرين على الخيل ، فلمـا وصلت الى هذا الوادي ماتت من شدة البرد والجليد ، فنصب لها تمثال على تل من التلال وهكذا نرى ان أميركة تشهد أمسها ويومها .

في المشاهد كلها التي مررنا بها وحشـة الصحراء وأنس السهول المديدة ورهبة الجبال الشجيرة ، فيهـا كل مناظر الطبيعة ، والجبـال الشجيرة تشبه جبال العلويين في سورية ومصيف « صلنفة » في اللاذقية فلا يزال الانسان ينتقل من تلال مرتفعة تحتها الأودية الى تلال منخفضة، الـى أودية حتـى يصـل الى موقف اسمه :Penryn وهـو في قلب الغابات والجبال .

لقد شرعنا في دخول « كاليفورنية » انّا ندخلها من سلسلة الجبال التي تقدم وصفها ، ثم تقـع العين على السهول المديدة وهـي سهول « كاليفورنية » فتظهر زراعة الأرض ، فكأن الانسان يذهب من حمص الى حلب ، سهول لايرى الانسان أولها ولا يهتدي الى آخرها ، ثم يرى الأشجار المثمرة فتبدو مراعي البقر والغنم ، فكل فلاح وبيته في أرضه وفي حديقته الشجر المثمر ، على خلاف الحدائق في الشرق ، ثم ينتهي الانسان أخيراً الى المحيط الهادىء فيرى فيه البوارج العظيمة .

ليس في السهول التي قطعناها معامل و لامصانع ولا دخان ولكن فيها سماء صافية مشرقة مثل سماء بلادنا .

في القطار

لقد ألهتني سهول « كاليفورنية » عن الكلام على قطارنا الذي بتنا فيه ليلتين ونهارين بين « شيكاغو » « وسانفرنسيسكو » وهذه المسافة أكبر مسافة قطعناها في القطار .

يجد الانسان في هذا القطار كل مايحتاج اليه من أسباب الراحة ، ولكني اغتنمت الفرصة فامتحنت بعض أخلاق الأميركان ، انهم يميلون الى المزح والتنكيت ، فاذا سمعوا في « الراديو » نكتةضحكوا وصفقوا ويكاد ضحكهم وتصفيقهم يفوقان الضحكوالتصفيق في كل أمة ، كأنهم قد خنقهم العمل وعنفه ، فهم يبحثون عن تنفس يتنفسون منه ، ولذلك يكثر وجودهم في السينما والملاعب ، ويشتد انبساطهم الى النكتة .

على القطار بعثة من فتيات الصليب الأحمر الأميركي ذاهبة الى « كوريا » هذه الطبقة من النساء لها حياة خاصة ومزاج خاص ، انها ألفت السفر وألفت في الوقت نفسه عشرة الرجل ، ففي كل يوم تتعرف الى ضابط جديد أو الى مدني جديد ، وكأن هذا التعرف أبعد عنها فكرة الزواج وقد تعرفت في القطار الى قسم منها ، هذه الطبقة من النساء أنيسة ، انها تحب المزح والضحك ، انها ألوفة لاتنفر من الرجل وان كانت لاتعرفه ، كانت في القطار سلوة المسافرين في هذه المسافة المترامية الأطراف ، وفيها امرأة خفيفة الروح شديدة الاضحاك ، لها سيطرة على رفيقاتها ، فكأن الطبيعة عوضت لها عن جمالها ، فوهبت لها خفة الروح ، اما الحسان من هذه الطبقة فانحسنهن فوق كل تصور .

ولا بد في وداع هذه الفتيات من التقبيل ، هذه عادة شهدتها في أميركة وهل على الانسان حرج في تقبيل أمثال هذه الخدود !

لاحرج ان شاء الله !

سان فرنسيسكو SAN FRANCISCO

٦ تشرين الأول ١٩٥٣

أذكر أنا وصلنا الى « سان فرنسيسكو » في العصر ، فنزلنا من القطار ثم ركبنا باخرة صغيرة مخرت بنا في المحيط الهادىء لنبلغ المدينة، فلننعم في المحيط الهادىء برؤية هذا الجسر العظيم الذي يصل بين جزء من « سان فرنسيسكو » وبين جزء آخر ، وهو على ماقيل لنا أكبر جسر في العالم ، ولننعم بهذه الجزيرة الصغيرة التي مرت الباخرة الى جنبها وهي جزيرة يقيم بها أغنياء « سان فرنسيسكو » .

لقد بدأنا في هذه المدينة التي هي نسيج وحدها في أميركة بشهود العلم الى جنب الطبيعة ، العلم الذي أوحى الى المهندسين بناء جسر مثل هذا الجسر والطبيعة التي تأخذ الألباب ، لقد شعرت وأنا أدخل « سان فرنسيسكو » بعظمتها وهي في الليل هادئة ماخلا بعض الملاهي في شارعها الكبير ، وهي ملاه على طراز الملاهي في « مونبارناس » في باريز ، دخلتها ثلاث مرات ولكني في المرة الأولى لم أفطن الا الى بعض الخصائص فيها ، أول المشاهد التي شهدتها في الليل مطعم عمر الخيام ، هذا المطعم له شهرة طائرة ، فهو بناء مستدير وعلى جدرانه صورة عمر الخيام في جميع أوضاعه ، الناس كلهم محشوكون في المطعم ، ناس يأكلون وناس ينتظرون فراغ الأماكن حتى يجيء دورهم ، ونحن كذلك فقد انتظرنا مع المنتظرين ولكن رفيقي الدكتور ايلي سالم لم يرقه هذا

الانتظار ، فذهب خلسة الى صاحب المطعم وهو أرمني سكن دمشق الشام في الماضي وأعلم ابنه بأني عميد كلية الآداب في الجامعة السورية ثم جاءني وأعلمني بذلك ، فقلت له : لاحاجة بنا الى هذا كله ، وماذا يهمه من أمر عميد الكلية أو رئيس الجامعة ومن الذي يعرفنا في بلد مثل هذا البلد في آخر بلاد الله ، فقال : سترى في ثانية نتيجة ذلك ، وما كاد يلفظ بهذه الكلمة حتى جاءني ابن صاحب المطعم وهو شاب ظاهره ابن خمس وعشرين سنة ، فرحب بي كل الترحيب ودعاني الى السفرة والناس الذين جاءوا قبلي ينتظرون ، وأخذ يتردد الي وأنا آكل من حين الى آخر ويؤنسني ويلاطفني وعرّف عمه الي وسألني أن أجيء في الغد ليجمع بيني وبين أبيه .

قال لي الدكتور ايلي سالم : أرأيت نتيجة إعلام صاحب المطعم بعميد كلية الآداب !

نجاح المطاعم والملاهي متوقف على شروط في رأسها حسن المعاملة ، والأميركان لايعرفون الملاطفة في فنادقهم ومطاعمهم ، وأي حاجة بهم الى ذلك ، فان الناس لايستغنون عن المطاعم والفنادق ، سوآء ألاطفوهم أم لم يلاطفوهم .

علمت بمجيئنا الى « سان فرنسيسكو » سيدة فرنسية الأصل تزوجت في أميركة من عشرين سنة اسمها Mrs. T. فجاءت الينا بسيارتها ، وعرضت علينا الفرجة والنزهة ، وأظن اننا لم نتردد في شيء من ذلك ، لو سئلت عن أجمل شيء في أميركة لقلت : شلالات « نياكرا » و « سان فرنسيسكو » ولكني بعد « سان فرنسيسكو » رأيت مشاهد فتانة ، انما أتكلم الآن على الذي شهدته حتى كتابة هذه السطور ، تدخل مدينة فترى شارعا عظيما ومباني ذاهبة في المساء ، ثم تدخل مدينة ثانية فترى شارعا أعظم ومباني أعلى ، ولكن الذي يميز هذه المدن

سحرها ، فان مدينة « سان فرنسيسكو » ساحرة ، الذي تجده فيهـا لاتجده في غيرها ، لأنه ابن الطبيعة لاابن العلم ، فالطبيعة هـي التي أعطتها خصائصها ، تصور مدينة مبنية على تلال كأنها مدرج ، وقـد بعثرت أبنيتها على هذه التلال ، فعلى تل ترى منازل الطبقة الرفيعة وعلى تل منازل الطبقة الوسطى وعلى تل منازل الطبقة الفقيرة ، ثم تقف على مرتفع من المرتفعات فترى المدينة كلها منبسطة أمام عينك أحاط بهـا المحيط الهادىء من أكثر جهاتها ، وفصل بين بعضهـا وبين بعض أعظم جسر في العالم ، وترى أمامها ثلاثجزر خضر ، ثم ترى من ورآئها جبالا شجيرة وجبالا جردا ، ثم تجول في أودية هذه الجبال فيحيق بك الشجر من كل جانب ، فكأنك في جبال العلويين في سورية حينا ، وكأنك في جبالنا الجرد حينا آخر ، وترى البقر على هذه الجبال ، ثم تنحدر الى الغابات ، فترى شجرا كأنه في استقامتـه على شكل الحرف الأول من الحروف ، أي على شكل الألف ، يبلغ ارتفـاع الشجرة ثمانين متراً ومحيطها ستة أمتار ، وترى شجرا تمشي السيارة في جوفه ، ثم تقف في هذه الغابات ، فتملك عليك الطبيعة مشاعرك ، فلا تدري ماتقول ، وقد سألني أحد الرفاق أن أقول الشعر في هذا المشهد ، فقلت له انه أعظم من أن يحيط به الشعر ، فخير للانسان في مثل هذه الحال أن يستسلم الى الطبيعة ، فلا يفكر ولايشعر ، حتى اذا فارق هذه الجنة عادت اليه الصور المخزونة في ذهنه ، فيفتش عن لغة لاحياء هذه الصور ، فيعجز وتعجز اللغة معه .

هذه هي « سان فرنسيسكو » التي لاشبيه لها في أميركة كلها ، والخلاصة كل مدينة من مدن الولايات المتحـدة لها خصائصها ، أمـا « سان فرنسيسكو » فقد جمعت الى سحر الطبيعة محاسن الفن في أكثر أبنيتها وفنادقها ، طبيعة ساحرة ونساء ساحرات تراهن في المساء يتزاحمن على رواية أو على سينما أو على مطعم ، فالمرأة أينما كانت تريد أن تتمتع مما يتمتع منه الرجل .

مونتري MONTERY

٩ تشرين الأول ١٩٥٣

علينا أن نذهب الى « مونتري » الواقعة على المحيط الهادىء لنزور مدرستها العسكرية حيث يعلمون اللغة العربية ولنلقي بعض الأحاديث ، من « سان فرنسيسكو » الى « مونتري » مواقف كثيرة على الطريق منها : Burhingane ومنها Palo Alto ولكن ماالفائدة من ذكر هذه المواقف ، على الطريق بيوت بحدائقها ، ملزوز بعضها الى بعض ، وبساتين فيها شجر مثمر وجبال تشبه جبال لبنان وسهول رحبة . انا في ولاية « كاليفورنية » في حديقة أميركة ، يقولون ان « كاليفورنية » مثل بلادنا ، هذا صحيح ، ولكن أين في بلادنا هذه السهول الواسعة المزروعة التي لايعرف المرء آخرها ، أين هذه البساتين ، أين هذه المتافح التي لاتزيد فيها شجرة تفاح على مقدار شجرة .

لابد في هذه الطبيعة الخصبة من ملاعب على الطريق ، فالشباب في هذه الملاعب يدحرجون « الكرة » الألعاب ! الألعاب ! هذا هو الشغل الشاغل في أميركة ، وما زلنا تتنقل من محطة الى محطة مثل : San Gose و Gilroy و Watogol و Castroville ونلقي النظر على السهول والبساتين والجبال الشجيرة ونرى الفلاحين يسقون أرضهم ، فيجمعون الماء في بركة ، ثم يديرونه على المزارع ، ثم يعوم الماء في بعض الأرضين ، وفي بعضها يسقونها بالفوارات ، مازلنا نلقي النظر على هذا كله والقطار ينهب بنا الأرض حتى وصلنا الى « مونتري » وأذكر انا لم نصل الى المدينة نفسها ، وانما استقبلنا شاب عراقي في ضاحية قريبة من المدينة اسمه : وديع ددّة يعلّم العربية فيمدرسة « مونتري » العسكرية وذهب بنا على سيارته الى : الكرمل .

الكرمل

٨ تشرين الأول ١٩٥٣

هذا أنعم صباح طلع علي من حين دخولي أميركة ، من محاسن هذه الرحلة اني لاأكاد أفارق بلداً يهز القلوب الا دخلت بلداً أنستني خصائصه مارأيته من قبل •

لقد تركت « سان فرنسيسكو » وترامها الذي لاشبيه له في العالم، هذا الترام الذي يستغرب الانسان وجوده في عصر مثل عصرنا وفي بلاد مثل أميركة،وتركت « سان فرنسيسكو » وأنا أقول ليتني لم أتركها حتى انتهيت في المساء الى « مونتري » وركبت السيارة الى الكرمل •

قيل لي أن رهباناً جاؤا من جبل الكرمل في حيفا الى هذه الضاحية على المحيط الهادىء ، فسموها الكرمل للتشابه بينها وبين جبل الكرمل •

لقد شعرت بفتنة هذه القرية في المساء ولكني لم ألمس هذه الفتنة الا في الصباح ، فقد استفقت على هدير الموج في هذا الفندق الصغير الذي يشبه فندق « برنستن » وهو Holiday Inn استفقت في الصباح ، فألقيت نظري على البحر من الشباك ، واذا أنا في قرية لم أمر على مثلها حتى اليوم ، البحر أمامي ، البحر الهادىء ، وموجه ماتنفك موسيقاه اللينة قريبة مني على بضع خطى ، يصل الى هذا الرمل الأبيض، ثم يرتدّ عنه حرصاً على هذه القصور المبعثرة في أطراف الجبل ، فالقصور واقعة على جبل يشبه جبل الكرمل في حيفا أو جبال لبنان ، والشجر يغطيها حتى لاتكاد تظهر ، لقد غرقت القصور في هذا الشجر حتى

تذكرت ميل الأميركان الى هذا النمط من إخفاء البيوت بالشجر ، فلهم على طريق سوق الغرب في لبنان دور في الجبل مثل الدور التي هي في الكرمل ، وهذه الضاحية يسكنها على ماقيل لي أكابر رجال الفكر والفن والادارة والجيش الذين شبعوا من حياتهم ، فجاؤوا يودّعون الحياة في هذا الربيع الدائم .

اليوم شعرت بميل الأميركان الى الطبيعة ، ولكنهم لايحبونها الا في شيخوختهم حتى لاتصرفهم عن العمل في شبابهم ، لأن العمل كلمة مقدسة في نظرهم مثل كلمة البيت في نظر الإنكليز ، فالفتاة الأميركية سوآء آكان أهلهافقراء أم كانوا أغنياء يجب عليها أن تعمل وأن تكسب، اليوم شعرب بأن الأميركان يحبون الطبيعة ، اني أكتب هذه الكلمات وموسيقى الموج ماتزال ملء أذني وحركاته المنسقة ملء عيني والضباب يغطّي الشجروالشجريغطّي البيوت ، فالطبيعة في ثوبين متناقضين : ثوب أبيض وهو ثوب هذا الموج الذي يصل الى أطراف الجبال والقصور ليحمل اليها ابتسام الحياة وقد كان في ظلمة الليل أرهب من الموت ، وثوب أسود وهو ثوب الضباب الذي لايريد أن يتخلى عن تجهمه وكآبته .

هذه هي الحياة : ابتسام وعبوس ، فرح وحزن ، عمل وكسل ،مالي ولهذه الفلسفة ، لقد طرحت هذه الكلمات على الورق ثم رفعت رأسي وأخذت أتمتع من الموج وموسيقاه ، هذه هي الحياة في مذهبي .

اني لاأنسى هذه القرية العمر كله وقد كتبت الي فتاة من أميركة تعلمني بأنها اشترت سيارة للتنزه في « كاليفورنية » فكتبت اليها : لاتنسي أن تزوري أجمل قرية شعرية في العالم : الكرمل .

ولكن هذه القرية على الرغم من هذا كله لاتزال كما يقولون في اصطلاح عصرنا ابتدائية في كثير من الأمور ، فالغلق الذي هو على باب

فندقنا يشبه غلق بيوت القرى في بلادنا ، حتى لايكاد الانسان يصدق أنه في أميركة ، في بلاد الميكانيك ، وقد علمت أن أهل هـذه القرية يريدون أن يحافظوا على وضعها البسيط البعيد عن عظمة المدن وهـذا في الحقيقة مايزيد في رونقها ، فهي اذا أصبحت مدينة فيها الشوارع العظيمة ضاع رونقها ولذلك تجد أهلها في الليل لايضيئون أزقتها بالكهرباء ، فالظلمة شائعة في هذه الأزقة حتى لاتشتد الرغبة في المجيء اليها ، وهذا من غرائب الأميركان ، قرية لامثيل لها في العالم : أبواب صغيرة وبنيان نسيج وحده وحدائق صغيرة على مداخل البيوت .

واذا نسيت شيئا في حياتي فلا أنسى نزهتي وحدي على شاطىء المحيط الهادىء ، والقصور على شمالي ، وقد ظللت أمشي ساعة بين الحدائق ولا أسمع صوت طفل ولا صياح بائع ولا نهيق حمار عليه الكوسى والباذنجان ، فكأن القرية بسبب هذا الهدوء خاوية خالية ، لايسمع الانسان فيها الا هدير الموج على الصخر ، وتغريد الطير على الشجر ، أما السيارات التي تمر في الشوارع فكأنها تسير على حرير ، لقد عشت ساعة في هذا الربيع الذي تغنى به البحتري ، هذا الربيع الطلق الذي يكاد يتكلم .

العربية في مدرسة عسكرية .

قضيت في الكرمل على ماأظن أربعة أيام ولكني لم أقضها في راحة تامة ، فقد ازدحمت علي الأعمال في « مونتري » فأنا لم أنعم بالكرمل الا في الصباح والمساء ، أمّا النهار كله فلا بد من قضائه إمّا في مدرسة عسكرية للغات وإمّا في زيارة مدرسة ثانوية أو في زيارة كلية عسكرية أو شهود عرض أو القاء أحاديث ، والخلاصة كانت الأيام التي قضيتها في « مونتري » أحفل أيام الرحلة بالعمل .

زرت المدرسة العسكرية للّغات وهي مدرسة يتعلم فيها بعض الجند

والقواد لغة العرب حتى اذا أسندت اليهم أمور في بلاد العرب كانوا قادرين على التكلم بالعربية ، أساتذة هذه اللغة شباب من العراق ، منهم السيد كامل سعيد وهو رئيس قسم اللغة العربية ومنهم السيد وديع ددّة وصالح المهدي وبينهم سيدة اسمها نوار داود وهي من دمشق أو ان لها أقارب في دمشق ، قد احتفل بنا هؤلاء الشباب الاحتفال كله ، فقد اجتمع في « مونتري » فئة من رجال مؤتمر الثقافة الاسلامية ، فدعاهم الأساتذة الذين ذكرتهم الى دورهم ، كل أستاذ دعا رجلا منهم أو رجلين، وكان حظي من الضيافة في دار الأستاذ وديع ددّة وهو الذي استقبلني بسيارته في وصولي الى ضواحي « مونتري » وأكرمني كل الاكرام ، تعشيت في داره وله زوجة أميركية غاية في اللطف وهو شاب غاية في اللطف ، هؤلاء الأساتذة غادروا وطنهم وأقاموا بهذه الأرياف الفتانة فاقتنى كل واحد منهم دارا واشترى سيارة وتزوج أميركية والسيدة نوار داود تزوجت رجلا أميركيا ، وسألتهم عن صلاتهم بزوجاتهم فتبين لي أن الأميركي الذي تزوج امرأة شرقية كانت عيشتهما راضية ، وكذلك الشرقي الذي تزوج امرأة أميركية ، فقد تشتد الألفة بينهما ، الا في بعض الأحوال ، هؤلاء الشباب يسكنون الضواحي ، بعضهم يسكنون : Pacifie Grove ، وهي ضاحية لاتقل فتنة عن الكرمل .

والخلاصة انهم يعيشون أهنأ عيشة ، هذا ماقالوا لي ، وهم يحمدون الله على ذلك ، وكما دعاني السيد وديع ددّة الى العشاء في داره فكذلك دعتني السيدة نوار داود الى شرب الشاي في دارها وعرفتني الى زوجها الأميركي ودارها على صغرها تكاد تكون قطعة شعرية .

هؤلاء كلهم أساتذة اللغة العربية في المدرسة العسكرية ، ولكن كيف يدرسون هذه اللغة ، ان بين أيديهم كتبا تشتمل على مفردات وجمل قصيرة باللغة العامية وباللهجة العراقية ، هذه المفردات والجمل لها صلة بحاجيات الحياة ، فهي لاترتفع الى أفق أعلى ، فالمقصد أن يحفظ

بعض الجند والقواد طائفة من ألفاظ وعبارات يحلون بها مشكلاتهم في الأحاديث وقد يجوز أن يكون من الصواب أن لايقتصر الأساتذة على اللهجة العراقية لأن الجندي اذا كان نصيبه مصر أو لبنان أو الشام عسر عليه فهم اللهجات في هذه الأقطار الثلاثة .

في الصف الأول يضع الأستاذ ساعة على اللوح ثم يسأل طلابه الجند والقواد : كم الساعة ؟

وفي الصف الثاني وهو أرقى من الأول يسألهم عن جو مصر : هل ينزل المطر ؟

وفي صف آخر والأستاذة فيه السيدة نوار داود تسأل القائد : هل عندك أولاد ؟ هل عندك بنات ؟ فالمرأة يهمها الزواج قبل كل شيء ، ثم الأولاد .

يصل الطلاب بعد أحد عشر شهرا الى تعلم شيء من اللغة العربية واذا أرادوا التبسط في هذه اللغة ذهبوا الى الجامعة واذا أردوا الزيادة أرسلوهم الى بلد من بلاد العرب .

لابد لهؤلاء الأساتذة من الاستفادةمن مرور رجال المؤتمر بمدرستهم فقد سألني الأستاذ كامل سعيد أن ألقي على الطلاب كلمة صغيرة وأن أترفق بهم وغايته أن يسمع هؤلاء الطلاب لهجة غير لهجة أساتذتهم، وهذا أمر غير يسير ، فان الطلاب يصعب عليهم أن يفهموا أكثر مما تعلموه ، واللهجة التي تعلموها لهجة عراقية ، فعلى الذي يلقي كلمة أن يكون حكيما وأن يعلم أنه لايخاطب جمهورا يعرف من هو الجاحظ ومن هو المتنبي ، ولكني تصرفت بعض التصرف في الأمر ، فتمهلت كثيرا في الالقاء ونزلت في الألفاظ الى مستوى سهل ، وتأنيت حتى نجحت ، ودلني على نجاحي ضحك الطلاب وأنا أتكلم واصغاؤهم الي ، أما الكلمة التي ألقيتها فهي سهلة جداً ، فقد قلت بعد شيء من الممازحات والمباسطات ما معناه ، واللفظ يختلف ولا شك :

لمـا زرنا الرئيس أيزنهاور رحّب بنـا وقال : الولايات المتحدة أهملت في الماضي الاتصال بالشرق ، فهي اليوم تسعى في تقوية هـذا الاتصال ، وفي بنائه على أسس من الثقافة ، لأن صلات الثقافة هي أقوى الصلات ، فعليكم أن تدرسوا اللغة العربية درسا جيدا وعلينا أن ندرس لغتكم درسا جيدا ، حتى اذا جئتم بلادنا زائرين فهمتم مايقوله الناس ، واذا جئنا بلادكم سائحين فهمنا مايقوله أبناؤها ، واذا تفاهم البشر عم السلام بينهم ، فالتنازع لايقع الا من سوء التفاهم .

ليس هذا كل ماقلت ولكنه روح ماقلت ، وقد أحببت أن أتوثق من مقدار فهم الطلاب لكلامي فسألت أساتذة اللغة عن ذلك ، فأكد لهـم طلابهم أنهم فهموا أكثر ماقلت .

المدرسة الثانوية .

الذي بقي في ذهني من زيارة المدرسـة الثانوية أن الطلاب الذين يأكلون على السفرة يخدمون أنفسهم ، وقد دعينا الى الغـداء معهم ، فلزمنا أن نخدم أنفسنا أي أن يحمل كل واحد منا صحنه بيده ويذهب الى الفتاة التي تصب الأكل فيذكر لها اللون الذي يريده ، فتضعه في صحنه فيأخذه فيجيء به الى مقعده فيأكله ، اني لم آلف هذه الطريقة فكثيرا ماكان يتفضل بحمل الآكل الي أحد الرفقاء حتى قال لي الدكتور حتي في دعوة : انك غير ديمقراطي ! اني استهجن كثيرا الهجوم على الأكل ولكن ماالعمل ، لقد شاعت هذه الطريقة في أكثر البلاد ، فمن المتعذر أن يجد صاحب الدعوة خدما لمائتي ضيف أو أكثر ، فليخدم كل واحد نفسه ، فمن استطاع أكل ومن لم يستطع حمل جوعه وأكل في داره .

ولكنا لم ندع الى المدرسة الثانوية للأكل وحده ، فلا بد من مشاهدة الطلاب في حركاتهم ، فقد كنت أعتقد أن حرية الطلاب والطالبات في الجامعة وحدها ، ولكن الذي رأيته أن الطلاب يخالطون الطالبـات في

في المدرسة الثانوية ، فيخاصر الطالب من شـاء من الطالبات وتخاصر الطالبة من شاءت من الطلاب ، وهذا نمط من الحياة ألفوه حتى أصبح من بدائه الأمور ، فلايهتم به أحد ، ولايفيض في الكلام عليه أحد ،ومثل هذه الحرية نجدها في ملاعب الطالبات ، فقد شهدتهن وهن يلعبن في الهواء الطلق والسيقان عاريات ولا يبالي بذلك أحد من الطلاب ، فلم أر طالبا يبصبص أو يغمز أو يهمس ولم أر حركة تدل على شيء من ضعف الذوق أو قلة الأدب .

هـذا كل مالفت نظري في المدرسة الثانوية ، لأن الزيارة كانت في وقت الأكل وفي وقت اللعب : خدمة الطالب نفسه على السفرة وهذا من لوازم الحياة في البلاد التي يقل فيها الخدم ، وحرية الطالب والطالبـة وهذا من أبرز الخصائص في أميركة .

الكلية العسكرية .

لم يبق علينا الا زيارة الكلية العسكرية ، أول مايستميل النظر في هذه الكلية وفي المدارس كلها وفي الجامعات بصورة خاصة : الملعب ، فالملعب في هذه المنشآت كلها انما هو الروح ، لأن حياة الأميركان قائمة على الرياضة ، تهتم بها نساؤهم كما يهتم بها رجالهم ، لقد أنشئت في هذه الكلية أو في جوارها بيوت حديثة للضباط ومدارس لأبنائهم حتى يضمن للضباط كل شيء ، يضمن له تعليمه أول الأمر ، ثم يضمن لـه مأواه ، ثم يضمن له تعليم أبنائه ، فلا يشغل فكره بشيء من هذه الأمور وأبناء الضباط الذين يجيئون الى المدرسة عمرهم خمس سنين ، وفي جملة مايعلمونهم الرسم ، وأذكر أن التنكيت مستحكم في الصغار وفي الكبار فقد كان بين رجال مؤتمر الثقافة الاسلامية شيخ ذو لحية وعمامة ، فسأل أحد الصغار رفيقه : لماذا لايحلق هذا الرجل لحيته ، فقد استغرب هذه اللحية كثيرا وسأل صغير آخر رفيقه : ماذا على رأس هذا الرجل ، هل

يوجعه رأسه ، لقد أتعبت هذه العمامة صاحبها وخلقت له مشكلات كما ستأتي الاشارة الى ذلك في « هوليود » •

من أساليب الأميركان في تعليمهم الطريقة الآتية : شهدت في صف من الصفوف طالبا ينشيء محكمة وهو رئيسها ، المحكمة تحاكم بنتا وصبيا ، موضوع الدعوى : قراءة كتاب ، فالرئيس يتهم البنت بقراءة كتاب لافائدة فيه وعلى البنت أن تقنع الرئيس بأن الكتاب مفيد ، ولذلك لخصت له الكتاب ، ويظهر أن الغاية من هذا كله حمل البنت على قراءة الكتاب وعلى تلخيصه حتى تأتي ببرهان على استفادتها منه •

الثكنة .

ولا بدّ من الطواف بالثكنة مادمنا في كلية عسكرية •

يهيئون للجندي في الثكنة والسجن العسكري كل أسباب الراحة ، يهيئون له رفاهيته في أكله ونومه ولبسه ، في المطابخ المبردات والمسخنات على أحدث أنواعها ، ويقولون ان السبب في هذه الرفاهية كلها ان الجندي الأميركي ديمقراطي ، فهو لايألف الجندية ولهذا فانهم يكرمونه أبلغ تكريم حتى لايستوحش من خشونة الجندية •

لقد شهدت كل هذا النعيم وشهدت أمر آخر لابأس بالاشارة اليه ، ان المراحيض في الثكنة لاحواجز بينها ، فالجندي ينزع سراويله أمام رفقائه حتى تألف العين هذه المشاهد ، فلا يفكر في الذي أحبوا أن يسموه « الشذوذ الجنسي » ، وكذلك الأمر في المدرسة الثانوية ، فالتلميذ في قضاء حاجته ينزع سراويله أمام رفقائه للغاية نفسها •

ولكن هل تبطل هذه الأمور ماسموه : الشذوذ الجنسي ، هربا من تسمية الأشياء بحقائق أسمائها ، لقدمثلت روايةفي « واشنطن » صورت استفاضة هذا الشذوذ في الولايات المتحدة •

لقد وقفنا على شيء حديث من باب الاقتصاد في المكان ، فقد دخلنا المطعم للفرجة ، ولم أذكر أكان ذلك في الثكنة أم كان في الكلية العسكرية واذا مناضد الأكل والمقاعد مطوية في خزانة في الجدار غير ظاهرة ، فاذا جاء وقت الأكل فتحوا باب الخزانة فامتدت سفرة تسع عشرين طالبا ، فاذا فرغوا من الأكل طويت السفرة والمقاعد وأعيدت الى الخزانة على صورة آلية دون حملها أو تنزيلها ، وهذا غاية في باب الاقتصاد في المكان .

العرض .

أقام جنرال الحامية في « مونتري » على تلال شجيرة عرضا حضره المحامون في ولاية « كاليفورنية » وقيل لنا إن رجال الجيش يقيمون أمثال هذا العرض من حين الى آخر حتى يثبتوا للمكلف الأميركي أن الضرائب التي يدفعها لاتذهب سدى ، فالأميركي يريد أن يرى بعينه ، فهو قد ألف الآلات ، ألف هذا النمط من الحياة الميكانيكية ، فيجب أن يرى بعينيه وأن يسمع بأذنيه وأن يلمس بيديه .

علم الجنرال بقدومنا فدعانا الى العرض الذي دام ساعتين ، لقد جلسنا على مقاعد من خشب على شكل مدرج ، واشتد البرد فوزعت على الجمهور مبطنات من صوف اتقاء للبرد ، أخذ ضابط من الضباط يشرح للجمهور أنواع السلاح المعروض وأدوات الحرب ، كالقذائف والدبابات والنفاثات وغير ذلك ، وكان في أثناء الشرح يأتي ببعض النكت ، مما يدل على أن الروح الاميركية لاتقبل الجد حتى في أشد الأمور التي تستوجب الوقار وأعني بها الجندية .

ليس من خصائصي أن أعرف أنواع هذا السلاح ، وانما الذي استنتجته أن الحرب في عصرنا هذا تستلزم السرعة في كل شيء ، سرعة في اطلاق النار ، وسرعة في عدد الاطلاقات وسرعة في نقل الآلات ، فقد

كانت كل آلة من المسدسات أو الرشاشات أو الدبابات تقذف دفعة واحدة مايزيد على مائة قذفة وهذا أمر مخيف لايستطيع الانسان وصفه، فكنا نشاهد القذائف تلقى على بعد ، فتحرق الهدف ، فيتصاعد دخان ملون بجميع الألوان •

ثم جاءت النفاثات وهي أعظم شيء في السرعة ، فكانت المدافع تعين لها الهدف فتنقض النفاثة عليه وتقذف بنار جهنم وكانت النفاثات وعددها أربع تلعب بعد ذلك في الجو •

قيل إن هذا العرض كلف ألف دولار وخمسمائة دولار وهو تكليف قليل لايذكر بالقياس الى ماتكلفه الحرب في كل دقيقة ، وبعد أن امتحنوا أنواع السلاح ، كل نوع على حدة ، جمعوا الأنواع كلها وأطلقوا نارها دفعة واحدة والعياذ بالله ، فقد زلزلت الجبال زلزالها ، قالوا ان هذا العرض انما هو آخر عرض تشهده البلاد بسبب التكاليف•

هذا اليوم الذي قضيناه في « مونتري » كان خصب الصور ، فمن مدارس اللغات التي تؤلف بين الشعوب على وجه الأرض ، الى أماكن التربية والتعليم التي تنشر السلام في العالم ، الى ساحات الحرب التي لاتبقي ولا تذر ، فكأن البشرية لاتستغني عن الحروب ، وعبثا يقول رجال الفكر : ليت الدولة أنفقت هذا المال على كذا •• أو على كذا •• فان هذا القول يذهب جفاء ، فالأميركان يستعدون للسلم بهذه الحضارة المرفهة ، ويستعدون للحرب بهذه الآلات القاضية ، آلات جهنم •

احـــاديـــث

١٠ تشرين الأول ١٩٥٣

يميل الأميركان الى السوآلات رالجوابات ، فاذا زرت رئيس قسم في جامعة بادرك من فوره بعد الترحيب فقال : هل تحب أن تسأل عن شيء ، واذا زرت ثكنة وأراك رئيسها أقسامها قال لك حين الوداع :هل تحب أن تسأل عن شيء وفي الجامعات تكثر السوآلات في الصفوف حتى يكاد التدريس يضيع أثره •

في هذا المساء جعل لنا محل في المدرسة الثانوية في « مونتري »وهو قاعة وسط ، دخلها مقدار ستين رجلا وامرأة ، وقد انتدب بعض أساتذة من مؤتمر الثقافة الاسلامية الى الحديث في هذه القاعـة ، وكنت في جملتهـم ، قدمت المحاضرين سيدة أمريكيـة كانت تعلّم الفلسفة في الاستانة ، وذكرت خلاصة ترجمة كل محاضر ، ثم طرحت على كل واحد منهم سوآلا أو سوآلين وقد جلسوا على الكراسي في صدر القاعة •

كان نصيبي السوآلين الآتيين :

لماذا تفرض الحكومات المراقبة على الصحف •

على ذكر الانتخابات في سورية وترشيح تسع سيدات أنفسهن ماهو رأيك في المرأة السورية •

تبين لي أن الأميركان يحبون أن يعلموا أخبارنا ، فهم يجهلونهـا ولذلك يصغون الى مايقوله كل محاضر ، ثم ان لهم ميلا خاصـا الى

التنكيت ، فاذا سمعوا النكتة انبسطوا اليها وضحكوا وصفقوا ، وأذكر أني في آخر السوآلات أي بعد ساعتين جاءت سيدة وقالت لي : أشكر لك كثيرا النكت التي تخللت حديثك ، ثم جاءت الي سيدة ثانية وقالت : لماذا لم تتزوج ، لأنها سمعت وأنا أحدث عن المرأة السورية أني أعزب ، فقلت لها : جئت أميركة للزواج ، فهل أنت عزباء ، فضحكت كثيراً ، ثم لما طال الكلام وضاقت الصدور وأحب الناس التنفس وكادوا يسأمون ويضجرون كتبت ورقة صغيرة وأرسلتها الى السيدة الأميركية رئيسة الجلسة وفيها العبارة التالية : هذا وقت الشاي ، هذه الساعة الخامسة أفلم تنته الجلسة حتى نخلص من عناء السوآل والجواب ، فقرأت الكلمة على الجمهور ، فدوّى التصفيق وقد شهدت في بعض الصحف الأميركية أن التنكيت الأميركي قريب من التنكيت الانكليزي، فالنكتة في المجلة الأميركية لاتضحك بذاتها وانما تضحك بغرابة صورها وبغرابة أوضاع المتكلمين ، هذا أنفه طويل ، وهذا بطنه منفوخ وما شابه ذلك .

أما الحديثان اللذان ألقيتهما فهذه خلاصتهما :

بينت للجمهور في الحديث الأول أن مراقبة الصحف جعلت في أيام الحرب للتحفظ من نشر أخبار ينتفع بها العدو ، ثم صرفت الحكومات هذه المراقبة عن هدفها الأول وجعلتها مجنا لها تتقي به هجوم الأقلام، ومثل الحكومة التي تخاف الرأي العام كمثل المرأة القبيحة التي تخاف النظر الى المرآة ، فكما أن المرأة الجميلة الوجه لاتخاف النظر الى المرآة ورؤية محاسنها في هذه المرآة فكذلك الحكومة الصالحة فانها لاتخاف الصحف التي هي بمنزلة مرآة ينعكس عليها الرأي العام ، أما المرأة القبيحة الوجه فهي تنفر من المرآة حتى لاتقع عينها على مقابحها وكذلك الحكومة الفاسدة فانها تنفر من الصحف حتى لاتقرأ فيها أخبارها الفاسدة .

وذكرت للجمهور في الحديث الثاني خلاصة أطوار المرأة السورية في خلال أربعين أو خمسين سنة ، قلت في صـدر الحديث : أفليس من عجائب الأمور أن يتكلم على المرأة رجل أعزب لم يتزوج في حياته ، ثم شرحت أطوار المرأة السورية في خلال نصف قرن ، بدأت بأيام الكتاتيب المظلمة ثم انتقلت الى المدارس الابتدائية ثم وصلت الى المدارس الثانوية حتى انتهت الى الجامعة ولم أشأ أن أبين للأميركان نهضة المرأة السورية دفعة واحدة لأن عقليتهم درجت على فكرة « التطور » فهم يحبون أن يعرفوا ميلاد الأشياء ونموها وتكاملها ، ذكرت لهم كيف دخلت الفتيات في بعض كليات الجامعة السورية حتى أخذت تشارك الرجل في كثير من الأعمال وأخذ عدد الفتيات يقرب من عدد الفتيان ولا يبعد أن يزيد عددهن في وقت قريب وحينئذ تنشأ الثورة بين الرجل والمرأة ، فربما غلبت المرأة على الرجل ، فيثور الرجل ويطالب بحقوقه .

قلت للأميركان : أتقنت الفتاة السورية في الجامعة ماأتقنته الفتـاة الأميركية ماخلا أمراً واحدا فانها غير ماهرة فيه ، انها غير ماهرة في لعبة الفوتبول !

أحب أن أدون في هذا المقام حادثا حدث ، لما فرغت من الكلام ونزلت عن المنبر وخالطت الجمهور جاءني فتى عمره احدى وعشرون سنة وقال لي بالعربية ، بلهجة عراقية : انك لما تكلمت في الصباح في مدرسة اللغات قلت : هذا ولم تقل : هدا ، فقلت له : ان هذا هي الفصحى وان هدا هي العامية ، فقال : أنا أدرس اللغة العربية وسمعت حديثك في الصباح ، قلت له : ولماذا تدرس العربية ، قال : لأني أبحث عن مشكلات الشرق الأوسط ، قلت له : ولماذا تهتم بهذه المشكلات ، أفلا تفتش عن عمل لك آخر ، فتردد قليلا ثم قال : أنا يهودي ، أتعلم العربية لأدرس قضيـة فلسطين ووجهة نظر العرب ، ولم يطل الحديث بيننا ، ثم ودعني وانصرف

ولما غادرت « مونتري » توجهت نحو « لوس انجلوس » فوجدت في الفندق الذي نزلته كتابا من هذا الفتى باللغة الانكليزية وفي آخره هذه العبارة بالعربية :

شكراً جداً
في أمان الله
« آير فانبرك »

واللفظتان الآخيرتان اسمه •

أما الكتاب فقد أعلمني فيه بأنه طالب في مدرسة اللغات وانه سمع حديثي الذي ألقيته في المدرسة وشهد محاضرتي في قاعة المدرسة الثانوية في « مونتري » وذكرني أنه حادثني بعد هذه المحاضرة منفردا مقدار خمس دقائق وقال انه اتصل به أني سألقي كلمةفي « سان فرنسيسكو » في جامعـــة Stanford وانه يحب حضوره هذه الكلمة ، ثم طلب اعلامه بصحة مااتصل به حتى يجيء الى « سان فرنسيسكو » ويجتمع الي مرة ثانية •

ليس في هذا الحادث شأن كبير ، انما المهم أن نعلم أن هذا الفتى اليهودي يدرس العربية لا لغرض مادي وانما لغاية سياسية ، والمهم ان نعلم أنه حرص على حضور حديثي مرة ثانية لا للاستفادة منه ولكن له غاية أبعد ، قال هذا الفتى في نفسه : اني قد أمر بالشرقفييوم من الأيام بعد تعلمي العربيةوقد اجتمع الى هذا الأستاذ الذي سمعته في «مونتري» فما يمنعني عن تأكيد التعارف بيننا من اليوم •

فلننظر الى مرامي أفكار اليهود البعيدة ، فلننظر الى مبلغ اهتمامهم بقضاياهم ، لقد سأل بعد أن ودعني عن البلد الذي أتوجه نحوه وسأل عن الفندق الذي أنزله فكتب الي الكتاب ، أفلا نجد أن هــذا العدو مخيف •

لوس انجلس LOS ANGELES

١٢ تشرين الأول ١٩٥٣

غادرت « الكرمل » في الصباح الى القطار الذي ينقلني الى « لوس أنجلس » وأذكر أني مـررت على موقفين أجد اسميهمـا في دفتري : Salinas و King City من « سـالينـاس » ظهـرت سهـول مـزروعة تشبه سهول البقاع في لبنان ولكنها أعظم وتنتهي الى جبال جرد ، وفتنة هذا الطريق أن العين قد تمل فيه من الشجر والغابات فتشتهي رؤيـة السهول ، فتطلع عليها هذه السهول وأكثرها قد زرعت فيها الخضر ، يجتاز الانسان هذه السهول ، فيمر بأباطح متسعة ، ثم بأغوار تشبه غور « بيسان » في فلسطين ، ثم بأودية عميقة ، ثم تفاجئه جبال مخيفة كأنه في جبال « حلبون » أو « سرغايا » في الشام وهكذا تختلف علينا المناظر من حين الى آخر ، فلا يدخل الضجر على قلب الانسان ، ولذة هـذه المناظر أن بعض جبالها الجرد تشبه جبال بلادنا ، فأجد كثيرا من الأنس بها ، ثم يمر القطار على واد ، فيلفه حتى يكون القطار في أوله وآخره على شكل حافر الفرس وما زلت أتنقل في هذه المشاهد ، فأمر على مواقف لاأرى فائدة في ذكرها وعلى صحارى منبسطة على المحيط الهادىء ، ثم على جبال تكون مرة شجيرة ومرة جرداً ، حتى وصلت Santa Barbara وهي أقدم مستعمرة اسبانية ، قيل لنا ان أهلها مشهورون بالكرم ، والدور فيها تشبه الدور في جبال لبنان ، فهي منثورة عليها .

بعد هذا كله طلعت علينا « لوس انجلس » لقد ذكرت أقوال Guy في « أنربور » فقد قال : غداً ستجدون أخلاقا في الغرب تختلف عن أخلاق الشرق ، لقد وجدنا هذا كله ، فان القطار لما وصل الى « لوس انجلس » ودع مديره المسافرين بالمجهار وهذا الوداع لاعهد لنا بمثله في قطار من قطر « نيويورك » وشرق أميركة .

لكل بلد طابع خاص ، بعد المرور على صحارى وجبال وأودية دخلت في المساء مدينة زاهية بمختلف ألوان الكهرباء ، تدخل الابتهاج على القلب ، طابع المدينة أول كل شيء الترحيب بالناس ، ففي الفندق الذي نزلت عليه أوراق ترحيب بالمسافرين : أهلا وسهلا ... نحن في خدمتكم ... نحن بأمركم ... هذا شيء لاتعرفه أميركة في شرقيها ، طفقت آثار الأخلاق الاسبانية تظهر على المدن ، وهي أخلاق تشبه أخلاق العرب ، وطفق شجر يظهر لنا ولم نره على سواحل المحيط الاطلنطي : في الحدائق كثير من النخيل .

قيل لنا ان « لوس انجلس » ثالث مدينة في الولايات المتحدة من حيث الكبر وأكبر مدينة في العالم من حيث المساحة وعلى بعد ساعة منها أعلى جبال الولايات المتحدة ، تمتد من الشمال الى الجنوب ثمانين كيلو متراً ومن الشرق الى الغرب ستة وخمسين كيلو مترا ولكن مالي ولهذا كله ، أفكانت خواطري في تقويم البلدان .

اليهود في كل مكان ، في دور السينما ، في الطرق العامة ، والمقاعد في هذه الطرق عليها إشارات الصهيونية .

علينا قبل كل شيء أن نزور جامعة « كاليفورنية » تختلف هذه الجامعة عن غيرها ، حدائقها عبارة عن مروج خضر يقل فيها الشجر وهي غارقة في تل تحيط به جبال المدينة بدورها وقصورها المنثورة عليها .

تدخل المكتبة فتجدها في داخلها كأنها أندلسية بأعمدتها والفسيفساء

على هذه الأعمدة ، والمحراب في صدر المدخل ، والجامعة كلها ، في الداخل والخارج ، قد مزج فيها الطرز الاسباني بالطرز الانكليزي ، أما جامعات الشرق مثل جامعة « برنستن » وغيرها فهي قريبة من الطرز الانكليزي ، تقع العين في بعض مماشي الجامعة على قناطر تشبه قناطر مسجد بني أمية في دمشق •

سحن الطلاب قريبة من سحن الاسبانيين والحرية فيهم مثل الحرية في أكثر جامعات أميركة ، دخلت بهو الطلاب الذي يستريحون فيه فرأيت طالبة قد استلقت على حضن طالب فهو يخاصرها ويعانقها على مرأى من إخوانه ولا يبالي أحدهم بذلك ، خرجت من البهو فدخلت دكان الكتب ، فشعرت بميل الأميركان الى الغرائب ، لقد صورت على الكتب صور غريبة الأشكال ، وأكثرها صور حيوان ، هذا هو ذوق الأميركان •

فاذا غادر الانسان هذه الجامعة وطاف قليلا رأى الجبال الشجيرة والتلال المرتفعة وعليها القصور الشاهقة •

خطب وخطباء

في « لوس انجلس » ميدان اسمه : ميدان الجنرال Pershaing وهو حديقة صغيرة مربعة في ساحة صغيرة ، في وسط الحديقة مرج أخضر وعلى أطرافها مقاعد وبعض الشجر .

في هذه الحديقة حلق شتى ، طائفة من أهل هذه الحلق قد جلسوا على المقاعد وغرقوا في تأملاتهم وأحلامهم ، غلاينيهم على أفواههم ، والدنيا في نظرهم دخان وحلم ، ليس بينهم وبين الأميركان شيء من المشابه في طبائعهم ، فالكسل في معتقدهم أحلى من العسل ، وطائفة يخوضون في كل شيء ، في الدين والسياسة والاقتصاد على نحو مايجري في « هايدبارك » في لندن ، الا ان حديقة « برشين » لاتكاد تذكر الى جنب « هايدبارك » من حيث السعة ، فمثلها في ذلك كمثل زاوية من زوايا « هايدبارك » .

في أمور الدين يسألون هذا السوآل : هل النصرانية دين روحي أم دين مادي ، وهل يجوز للرجل ان ينام مع أخته .

في السياسة يسألون هذا السوآل : لماذا ندفع هذه الضرائب ، لماذا لاتنفق نحن والروس والصين ، لماذا نحالف الانكليز والفرنسيين .

يخطب الخطيب وهو واقف على الأرض وجمهور المستمعين من رجلين الى خمسة رجال ، فاذا خطب الخطيب وقال له أحد المستمعين : أنت حشاش ، قال له الخطيب : الحشيش في يديك ، وماذا في يديه ، انه

يحمل الكتاب المقدس ، فقد تبلغ حرية الكلام في هذه الحديقة المبالغ .

ولكن من هم الخطباء ، انك تجد في ميدان « برشين » شيخوخات متهدمة ، تعلو وجوه أصحابها صفرة مثل صفرة الموت ، كأن أجسامهم هياكل من عظم لا لحم فيها ولا دم ، سحنهم تدل على أنهم مجانين ، فهم إمّا مرضى وإمّا قد خرفوا ، هذه أغرب سحن رأيتها في أميركة ، والشرطي يجيء ويذهب بين هؤلاء الموتى محافظة على النظام .

هؤلاء هم الخطباء ، بينهم امرأة عجوز تتكلم على السيد المسيح أو عبد أسود مشفره نصفه يعزف بالكمنجا ، أو عبدة كأنها سعف نخل تغني له .

ترى الحماسة بادية على وجوه الخطباء ، هذا أنفه بارز يكاد يتحرك من الغضب وهذا عينه جاحظة وهذا ينظر اليك كأنه أبله ، يكلمك وأنت لا تعرفه ، فيشركك في آرائه ، يرفع حاجبا ويخفض حاجبا ويقبض كفا ويبسط كفا ويقدم رجلا ويؤخر رجلا ، ثم يهجم على خصمه الذي يناظره في الحلقة ، فتظن أنه يريد أن يأكله ، ثم يرتد عنه فيستمر في خطبته ، ثم تعود المعركة الى شدتها ، ثم تهمد العاصفة حتى ينهزم أحد المتناظرين ، فيقف المنهزم جانبا ، فيضع غليونه بين شفتيه ، ويدخن ، فاذا عاد اليه نشاطه عاد الى المناظرة .

اني لأكتب هذه السطور وأنا أرى أشباح هذه الشيخوخات البالية تملأ عيني بألوانها الشاحبة وأجسامها النخرة ، لقد أولعت الولع كله بهذه المشاهد ، فلم تساعدني نفسي على الخروج من ميدان « برشين » شهدت حلقة فيها ثلاثة مستمعين يخطب فيهم خطيب ولما فرغ من خطبته دنوت منه وهنأته وقلت له : كأنك « ديموستن » فحملق وقال : ديموستن ! ديموستن ! كأنه لم يعجبه هذا الخطيب اليوناني ، ثم تركني ومشى بعض خطى ، ثم عاد الي وشكر .

هذا مشهد لأنساه سجيس الليالي .

سهرة .

علم بقدومنا السيد « يوسف آدمو » أصله من الموصل وهو قد ولد في أميركة ، يتكلم بالعربية تكلما جيدا لأن والده كان شديد الاعتناء بها ، أما أبناؤه فلا يعرفونها ، كما علم بقدومنا أحد أقاربه السيد فايز القيم وهو من دمشق ابن أخ الدكتور شاكر القيم أحد الوزراء في أيام الانتداب ، درس السيد فايز في معهد الحقوق في دمشق ، وهو يذكر أساتذته القدماء ويعرف ناسا كثيرين من دمشق ، يحافظ على العربية ، أما أبناؤه فيتكلمون بالانكليزية ، والسيد فايز متعصب للأميركان ، مفتون بانسانيتهم ومسامحتهم ، ولكنه يقول انهم غير مصقولين ، لايلاطفون ولا يجاملون .

دعانا السيد آدمو الى قصره وهو واقع في ضاحية تشبه عاليه في جبل لبنان ، قصر منيف فيه حديقة أنيقة ، وقد قيل لنا ان السيد آدمو أغنى رجل في « لوس انجلس» دعانا في الساعة السابعة مساء فقضينا أربع ساعات ، ثم غادرناه قبل منتصف الليل مسرعين الى مطعم تتعشى فيه قبل أن تغلق المطاعم أبوابها .

أشرت الى هذه السهرة لأقول ان العربية أخذت تنقرض في دور أبناء العرب ولكنها طفقت تعيش في بعض المدارس والجامعات ، كمدرسة اللغات في « مونتري » أو كجامعتي « برنستن » و « شيكاغو » وغيرهما .

هوليود HOLLYWOOD

أمنيتان غلبتـا على نفسي في أميركة : زيارة شـلالات « نياكرا » وزيارة « هوليود » واذا أدركت مقدار حرصي على زيارة الشلالات فلم أدرك مقدار حرصي على زيارة « هوليود » لست من هواة السينما لأن عيني تتعب كثيراً من اطالة النظر ، وأنا لاأعرف من نجوم «هوليود» نجما واحداً وانما أسمع عن نجم سيأتي الكلام عليه ، فما الذي شوقني الى « هوليود » ولم أشهد في حياتي كلها أكثر من عشر روايات ولكن لابد من زيارة « هوليود » .

كيف كنت أتصورها قبل هذه الزيارة ، كنتأتصور المحيط الهادىء وأتصور جانبا من ساحلـه فرش برمل أبيض ناعم كـأنه حرير أملس ، والممثلات تمتد على هذا الرمل في النهار معرضة أجسامها اللينة للشمس، هذا كل ماكان يخطر على بالي في « هوليود » ولكني لم أدرك شيئا من هذه الأحلام .

قيل لنا لابد من زيارة حاكـم « لوس انجلس » حتى يتوسط لنا في دخول دور التمثيل في « هوليود » فذهبنا الى البلدية وكأنها أثر من محاسن الفن ، كأنها دار تحف ، وأعلمنا الحاكم برغبتنا في السلام عليه ، فانتظرنا وقتا غير قصير حتى أذن لنا فدخلنا عليه وهو شاب يكاد يبلغ خمساً وأربعين سنة ، رحّب بنا ، فذكرنا له رغبتنافي دخول دور التمثيل فوجدناه قد ارتبك بعض الارتباك ، فكأنه لاسيطرة له على هذه الدور ،

ولكنه لم يشأ أن يظهر ارتباكه ، وانما مهّد بكلام فهمنــا منه المقصد قال : ان الناس كثيراً مايحبون زيارة دور التمثيل في « هوليود » وأنا لاأرى شيئا يستوجب هذا الاهتمام ، فاستنتجنا من كلامه أنه غير قادر على التوسط في هذه الزيارة ، فاستأذناه في الانصراف وانصرفنا •

واني لعلى درج البلدية ومعنــا شيخ بجبته ولحيته وعمامته من أعضاء مؤتمر الثقافة الاسلامية اذ وقعتعين امرأة عليه ، فاستغربت هذا الزي والأميركان على الرغم من ميلهم الى الغرائب لهم أدب يمنعهم عن الفضولية ، فلم تستطع هذه السيدة أن تطوي ميلها الى معرفة صاحب هذا الزي الغريب ، فرجعت الينا وسألت : ماهوهذا الزي ؟ قلتلها : ان صاحبه شيخ مسلم ، هل أعجبك ، قالت : جداً •

مالي وللشيخ ، إنّا أريد الذهاب الى « هوليود » قال لنا الدكتور جواد علي أحد أعضاء المؤتمر : أنا أمهّد لكم الزيارة وقــد أخطأتم في مراجعة الحاكم ، فذهب الى الهاتف وطلب صديقا لــه في « هوليود » وسأله أنيمهّد لنا زيارةدور التمثيل ، فقالصديقه : احضروا وكلشيء جاهز ، فقصدنا الى هوليود •

زرتها مرتين ، مرة في الليل فلم أعرف شيئا عنها ، وانــما أذكر انّا صعدنا على مرتفع فيه مرصد يجيء اليه الأميركان للفرجة ، فوقفنا على مقربة منــه دقائق وهو يطل على شارع يمتــد من « هوليود » الى « لوس انجلس » طوله على ماقيل لنا أربعونكيلو متراً ، تتلألأ الأنوار فيه من أوله الى آخره ولا ينقطع عنه مرور السيارات في النهار والليل ، ولكن أين « هوليود » أين فتنتها ، أين محاسنها وحسانها ، هذا كله لم أهتد اليه في الليل •

وزرتها مرة في النهار لما أذن لنا في زيارة دور التمثيل ، انطلقنا نحو هذه الضاحية واذا نحن في ضاحية كلها فن ، شوارعها عريضة ، ودورها رائعة ، وحدائقها باسمة ، تحيط بها الجبال من كل طرف من أطرافهــا

والقصور منثورة على هذه الجبال ، فالتناسق بين الفن وبين الضاحية التي يمثل فيها الفن متكامل من جميع الوجوه .

هذه صورة « هوليود » فأنا لم أشهد رملاً كالحرير ولم أشهد أجساماً ناعمة وبلغ الجوع منا كل مبلغ ، فقيل لنا ان في « هوليود » مطعما تأكل فيه نجوم السينما ، فذهبنا الى هذا المطعم ودخلناه ، صور الممثلات معلقة على الجدران كلها ، فتردد الشيخ الذي معنا قليلا في الدخول وكاد يمتنع ، فأقنعته بأن هذا المطعم عام يدخله من شاء وأن هذه الصور على الجدران انما هي من باب الزينة ليس غير ، فرضي بالدخول بعد كثير من التردد ، فجلسنا في أول المطعم حتى لاتلتفت العيون الى الشيخ ، ولكن ماكدنا نجلس حتى ارتفعت الأبصار اليه ، الى عمامته وجبته ، فحسبته فتيات « هوليود » انه جاء ليدخل في رواية من روايات ألف ليلة وليلة ، وترك بعضهن الأكل وأخذن يصعّدن النظر فيه ويصوبنه ، فقد أتعبت هذه العمامة صاحبها وأتعبتنا وأتعبت الناس معا .

استرحنا بعد الأكل قليلا في منزل رجل من فارس يشتغل في دار من دور التمثيل وهو الذي استأذن لنا في الزيارة ، ثم قصدنا الى احدى هذه الدور وبقي الشيخ في المنزل ، هل علي من حرج اذا اعترفت في هذا المقام بأني قبل زيارة « هوليود » كنت لاأعرف معنى : Studio على كثرة سماعي لهذه اللفظة ولم أتصور على أي شيء تدل وقد حملت جهلها كل حياتي ، فلما قيل لنا اخترنا لكم Studio كذا لزيارته شرعت أفهم شيئاً قليلاً من معنى اللفظة ، لم أدرك معناها الادراك كله الا بعد أن دخلت هذا المكان .

قيل ان دور التمثيل الكبيرة خمس والدار التي اختاروها لنا من الخمس الكبيرات احترقت مرة فكلفت سبعة ملايين دولار ونصف مليون .

ماذا في هذه الدار ، مدينة قائمة بنفسها ، فيهـا الصحارى لتمثيل رواية في الصحراء وفيها البحار وعليها السفن الماخرات ، وفيها القصور، وفيها العمال ، فكأن هذه الدار أكبر من المعمل الذي زرته في «ديتريت» .

الآن فهمت معنى Studio ، لقـد حضرت في حيـاتي كلهـا عشر روايات في السينما ، فكنت أعجب من القصور والبحار ومشاهد الطبيعة ولكن هذه العظائم قد صغرت الآن في عيني ، انها كلها مزيفة فلا قصور ولا بحور ولا سفن ، وانما دور من خشب تهدم في دقيقـة وأمواه مجموعة تنقطع في دقيقة وسفن تفك في دقيقة ، حتى النجوم نفسهـا التي كنت أشهدها في السينما ، فان جمالها ابن الصنعة ، الممثلة يُعنى بتزيينها وتجمّلها العناية كلها ، حتى تصبح على الصورة التي نراها عليها في السينما .

من حسن حظي أن الدار التي دخلتها كانوا يمثلون فيها مشهدا من مشاهد رواية ، فرأيت الغرفة التي كان فيها الممثل والممثلة ولـم أسأل عن اسميهما وقيل لي انهمـا مشهوران ، رأيت كيف يلتقطون الأصوات ويضبطون الحركات ولكني رأيت الاتقان كله ، وهذا وحده كاف ، فقد تعاد الحركات والأصوات عدة مرات حتى تضبط الضبط كله وحتى يصح التقاطهـا للمرة الأخيرة ، تعاد في بعض الأحيان مـدة ساعتين ، فالحركات والأصوات التي تستغرق على « الشاشة » خمس عشـرة ثانية يقضون في اتقانهـا في دار التمثيل سـاعتين أو أكثر بحيث قد ينقضي النهـار كله حتى يضبط مقطع صغـير من الرواية ، لا مشهد بأجمعـه .

أما الممثلة فانها في خلال التمثيل غيرها على « الشاشة » فلا حسن ولا جمـال ولكنها اذا عرضت على الشاشة شغلت القـلوب وذلك بسبب ما سماه أبو الطيب المتنبيء : التطرية ، فلا تزال تتزين وتتجمل حتى تصبح طرية أي غضة .

آفا غاردنر

على ذكر « هوليود » ونجومها اللامعات وقع في نفسي الكلام على ممثلة ذهبت شهرتها في عالم السينما وأعني بها : « آفا غاردنر » لقد كنت في مجالسي الخاصة أسمع عن فتنتها أشياء كثيرة ولكني لم أحضر رواية من رواياتها ولما كنت في « لوس انجلس » أو في « سان فرنسيسكو » لا أذكر ذلك قيل لنا انه ظهر نوع من السينما يختلف عن النوع الشائع ، اني لا أميل الى السينما ، فلم أسأل عن هذا النوع و لاعن اسمه ، ولم أبال بشيء من هذا كله ، ولكن رفيقي اقترح علي الذهاب الى هذا السينما ، وأصر علينا الدكتور جواد علي في رؤيته لأنه يستوجب هذه الرؤية ، فرضيت بهذا الاقتراح وبهذا الاصرار وأنا لم أسأل عن الرواية ولم أهتم بموضوعها ، أذكر أني دخلت سينما ما كنت أتصور فخامة مثل فخامة قاعته ، ومن حسن الاتفاق كانت « آفا غاردنر » تمثل في تلك الليلة ، بقي في ذهني أن الرواية جرت في صحارى أفريقية ، وأن بطلا من أبطالها كان مشهورا بصيد الآساد والنمور والفيلة ، لهذا البطل زوجة صحبته في الصيد كما صحبته « آفا غاردنر » نفسها ، قد يختلف موضوع الرواية ، ربما كانت فيه زيادة لا أذكرها أو كان فيه نقص لا يمر على بالي ، انما المهم في هذا كله : « آفا غاردنر » نفسها ، كانت مهمة آفا غاردنر في هذه الرواية صرف الصياد عن زوجته أو صاحبته وجرّه الى حبها ، هذا هو الشيء الذي شغل ذهني في الرواية كلها ، لم أر في حياتي

امـرأة مثل « آفا غاردنر » لا من حيث محاسن جسمها ولا من حيث قوة جاذبيتها ولا من حيث شدة شخصيتها ، والأذواق في هذا الباب تختلف كل الاختلاف ، ولا جدال في الذوق ، رزقت « آفا غاردنر » سحرا لم يرزقه كثير من النساء غيرها ، ان لها سيطرة على من تخاطبه عجيبة ، وقد يعينها على هذه السيطرة خفة في روحهـا ، فهي صاحبة نكتة ، ويزيد في محاسن نكتتها انها تضحك الناس ولا تضحك ، وانما تبتسم ابتساما لا يكاد يظهـر أثره ، عنيت « آفا غاردنر » في هـذه الرواية بصرف الصياد عن المرأة التي كانت معه وجذبه اليها ، فسلكت الى ذلك المسالك كلها وكانت في كل مرة يتعصَّى عليها البطل الصياد تدخل غرفتهـا ، فتمزق ثيابها أو تكسر أوانيها أو تزوي ما بين عينيها أو تعض شفتيها الى غير ذلك من الحركات العصبية ، ثم كانت تهدىء أعصابها وتعود الى صاحبها فتشرع في ايناسه واضحاكه وجذبه واستمالته ، وما زالت به حتى أدخلته قلبهـا ، فهدأت نفسها واطمأن بالها وأخذت تذوق لذة عذاب عاشقها .

هذه الطبقة من النساء عرّفها كتاب نشره « بورجه » أدق تعريف وسمى المـرأة التي على شكل « آفا غاردنر » Coquette وسميناها بالعربية : الخلاّبة[1] ، لقد نفضها الكتاب نفضا ، فتغلغل الى أعماقها وكشف عن بواطنها وعرضها على أبصارنا وقلوبنا لحما ودما وروحا ، فصوّرها أبلغ صورة وأعمر ومن أجل بلاغة هذه الصورة وعمقها لم أشأ أن تبقى مطوية في كتب الأدب الفرنسي ، قال صاحب التعريف :

« من خصائص الخلاّبة أنها تريد أن يحبها الرجل دون أن تحبه

---

(١) جاء في روضة المحبين لابن قيِّم الجوزية ان الخلابة هي الحب الخادع والخلبة الخدّاعة من النساء وعلى هـذا أرى ان الخلاّبة أصلح من المفنـاج لكلمة Coquette ، لأن المفناج لا تفي بالمعنى الذي شرحه كتاب « بورجه » .

وأن تولد في قلبه الأهواء من غير أن تشاركه فيهـا ، فهي من هـذه الناحية امرأة قاسية ، همّها الوحيد التعذيب وسبيلها الى هـذا كله المخادعة ، فهي تجهد قبل كل شيء في أن تأتيك ببرهان على أنك قد تركت فيها أثرا عميقا كله جـد ، فهي تحاول أن تجرك الى طـريق الفاجعة ولذلك فان كل همها مصروف الى اقناعك بأنك تلفت النظر ، فقد اوتيت في هذا المعنى فنا متكاملا ، انها تسأل عنك معارفك حتى تهتدي الى الأفكار التي تلذك : مثل ذوقك الخاص في الكتب أو في التصاوير أو في المسرح وما شابه ذلك وهي تحدثك بهذه الأمور كلها على شكل يقنعك بأنك اذا لم تكن حاضرا ملء عينهـا وسمعها فهي تفكر فيك طويلا ، وهي تجعـل فرقا عظيما بين أسـلوب استقبالك وتلقيك وبين صلتها بغيرك من الناس ، بحيث يدخل عليك الزهو من ذلك ، فاذا كان من عادتها أن تمازح الناس فانهـا تلازم الجد معك حتى تكاد تظهر عليهـا الكآبة ، بحيث تعتقد أنت أنك بمحضر امرأة لا يعرف بواطنها أحـد ، واذا كانت عادتها الوقار فانها تطرح معك الكلفة والحشمة ، واذا كانت من أهل الموسيقى فانهـا تنتخب قطعا لا تغنيها الا لك واذا فرغت من ضربهـا بالبيـانو فانك تدهش من حركتهـا وهي تغلق البيانو ، حركة تدل على ظاهر خجلها وورعها ، واذا كانت تعنى بالتحف فانهـا تستشيرك في مشترياتها ، واذا كانت المروحة العتيقة التي يعرضها عليها البائع لا تعجبك فهي تستعد لاعادتها اليه على الرغم من فرط حبها لها ، انها لا تقرأ من الكتب الا ماتوصيها بقراءته واذا لم تكن من أهل الموسيقى أو الفن أو الأدب فانها تعرض عليـك تطريتها « Toilette » وتسألك عن ثيـابها كأنهـا طـرحت مصيرها على قدميك .

هذه هي مبادىء الخلاّبة ، تلك المبادىء المكتوبة بلغة لم يستطع أحد من الناس أن يحل طلاسمها حتى اليوم •

فاذا أقنعتك الخلاّبة على هذا الشكل بأنك دخلت قلبها فانها هي التي دخلت قلبك ، ولا تدري كيف كان ذلك وحينئذ تشرع في تعذيبك واجدة في هذا التعذيب أقسى لذة •

تكسن TUCSON

١٥ تشرين الأول ١٩٥٣

وصلت الى « تكسن » في الليل ، اني الآن في ولاية : أريزونة « Arizona » لم أر شيئا على الطريق بسبب الظلام ، ولكني استفقت على شروق الشمس في الصحراء ، والطريق أكثره صحراء ، دخلت مدينة هادئة ساكنة ، لا بساتين تطيف بها ولا جبال شجيرة ، فالمدينة منبسطة في سهل على سفح جبل والنخيل باسق في الحدائق العامة القليلة ، اني في صحراء .

لا حياة « لتكسن » في الليل ، فترى شوارعها خالية من النساء الذاهبات الجائيات ، تجد فيها أنوار الكهرباء الساطعة ولكنك لاتجد فيها أنس النساء والفتيات ، انها موحشة ولا وحشة الصحراء وأظن أن أكثر شبابها يتزوجون في سن. العشرين ، فيها بعض الملاهي ولكن ليس فيها ضجة المدن ، وفتنتها في الليل في ليلة قمراء وذلك اذا خرجت الى أعاليها ، الى هذا التل الذي يسمونه : تل العشاق ، لانتياب العشاق ايّاه في الليل ، فترى أمامك مدينة مائجة بأنوارها ، منبسطة تحيط بها جبال جرد وصحراء ماحلة ، هذه هي فتنتها ، فهي كالكوكب اللامع في ظلمة الليل .

أول ما زرته في « تكسن » الجامعة ، وقد علم بقدومنا رجال جامعات الغرب ، فكانوا يرسلون سياراتهم الى المحطات لاستقبالنا وكانوا يدعوننا الى الغداء أو العشاء في جامعاتهم ، وكنا نطوف

بسياراتهم على المدينة وضواحيها ، اني لا أزال أذكر كلمة Guy
غدا ستجدون أخلاقا في الغرب تختلف عن أخلاق « نيويورك » .

دخلت جامعة « أريزونة » فشعرت بأنها بنت الصحراء ، فالنخيل مغروس على أطرافها وهي كلها حديثة البناء ، فقد أنشئت من ثلاث وستين سنة ولكنها معزولة عن المدينة بسروها ونخيلها وزيتونها ، الجامعة للحكومة وموازنتها تبلغ في السنة أربعة ملايين دولار وتأتي اليها الاعانات والمساعدات للاعتناء بالزراعة .

في هذه الجامعة متحف نسيج وحده ، معنى ذلك أني لم أشهد مثله قبل اليوم ، فيه بسط من نسيج الهنود سكان البلاد في الاصل ، وفيه مقطع شجرة عمرها ألف وسبعمائة سنة ، محيطها ثمانية أمتار ، فالمتحف مختص بلباس الهنود ، ولا سيما لباس رقصهم ، بأدوات صيدهم ، بسلاحهم ، بموسيقاهم ، بحيوان صحرائهم ، وأكثره الغزلان .

سألوني في الجامعة أن أحضر مناقشة من مناقشات الطلاب ، فدخلت صفا اجتمع فيه فئة من الطلاب للمناقشة في موضوع الأديان والأستاذ يرشدهم ، فهم يضبطون الجلسة وفي الجلسة التالية يقرأ أحدهم خلاصة المناقشات الماضية وهذه طريقة من طرائق الأميركان في جامعاتهم .

طلب الي الأستاذ أن ألقي كلمة مناسبة ، فقلت للطلاب وعددهم قليل :

ان الأديان بضاعة صدرت عن بلادنا الى البلاد الثانية ، اشتغلنا فيها زمنا طويلا ، فأدت اختلافات الناس في دينهم الواحد الى كثير من البغضاء وأدت اختلافاتهم في أديانهم المتباينة الى كثير من المنازعات ، فاذا أرادت أميركة أن تشتغل بالمناقشات فيها فلست أعلم ماذا تكون

العاقبة ، الأديان كلها توجه البشرية نحو الخير ، فعليكم أن ترموا في مناقشتكم فيها الى ما يقوي حب البشرية .

سرّ الأستاذ كثيرا وقال لي : تمرّ علينا عشرون سنة حتى نصادف أستاذاً أجنبيا في جامعتنا يزورنا ويحدث طلابنا .

ثم شهدت أستاذا يحاضر طلابه وكان عددهم ثمانمائة طالب ، وهو أستاذ الفلسفة ، يجمع طلابه مرة في الأسبوع في مدرج كبير ، فيلقي عليهم محاضرة عامة لا سؤال فيها ولا جواب ، موضوع محاضرته : ارسطاطاليس ، وقد تبين لي أنه موضوع جاف ، وجدت ان عناية الطالبات بالاستماع كانت أشد من عناية الطلاب ، فكنّ يلخصن أقوال الأستاذ أكثر من الطلاب .

هذه خلاصة ما علق بذهني من جامعة « اريزونة » ثم ودعت رجالها وانصرفت .

الرياضة .

على مقربة من الفندق الذي نزلت به في « تكسن » واسمه : Santa Rita حديقة عامة ذهبت اليها في المساء ، في أول عتمة الليل ، فرأيت فيها ملاعب ، الناس يلعبون ولكني لم أعرف اسم لعبتهم ، انها تشبه حلقا يضعون ثماني منها في الأرض فيقف لاعبان من جهة ولاعبان من جهة ثانية ويدحرجون الحلقة حتى تمس أختها من الطرف الآخر .

هذا النوع من اللعب يروّض العين واليد والجسم كله بالانحناء والنهوض ، الذين كانوا يلعبون هم فلاحون تركوا مزارعهم القريبة يوم السبت ، فهم يلعبون ساعتين أو أكثر ، وبينهم نساء ، يتراوح عمر الرجل بين ستين وخمس وستين سنة وعمر المرأة بين خمسين وخمس وخمسين سنة ، أجسامهم كلها قوية منتصبة ، تغلب البساطة

على ظواهرهم ، بساطة الفلاح ، انهم بدلا من أن يذهبوا الى الملاهي يذهبون الى حديقة عامة يروضون فيها أجسامهم ، والفلاح في الولايات المتحدة يغتنم فرصة الجمعة أو السبت أو الأعياد فيجيء الى المدينة ، ومعه زوجته وأولاده ، ويجد لذة عظيمة في هذه الجيئة ، ثم يعود الى المزرعة ، فتكون مشاهد المدينة وملاعبها أو ملاهيها موضوع أحاديثه في السهر في داره .

والمرأة الفلاحة تلبس لباس الرجال ، تلبس سراويل الرجل وقميصه وقبعته ، وتركب الخيل ، فهي بالرجل أشبه منها بالنساء ولا غرابة في ذلك لأنها تعاون زوجها في المزرعة .

الصحفيون .

جاءني صحفي في « تكسن » وسألني هـذا السؤال : هل أنت مسلم ، سني أم شيعي أم بهائي .

استغربت هذا السؤال فقلت له : ان هذه السؤالات بطلت في بلادنا وهي لم تبطل بعد في بلادكم ! .

ثم جاءني صحفي آخر وأنا في جامعة « أريزونة » وشرع في طرح السؤالات عليّ ومن جملتها : هل من سبيل إلى اتفاق الشرق الأوسط ، فقلت في نفسي : تغدّ به قبل أن يتعشى بك ، فأخذت أطرح عليه السؤالات ، فسألته عن جريدته والمحررين فيها ، وعن مقدار ما يطبع منها ويبيع وعن موضوعاتها ، ثم قلت له : هل لك أولاد ، قال : نعم ، قلت له : هـل هم متفقون في دارك ، قال : نعم ، ثم اختصر الكلام وانصرف ، فلمـا خرج رأيت أمين الجـامعة يضحك ويستغرق في الضحك ، فسألته عن السبب في ذلك ، فقال : انكم معاشر الشعراء أنصاف آلهة ، لمـاذا سألته عن اتفاق أولاده ، أفكنت تعلم أن أبناءه يتقاتلون كل يوم في الدار ويتخانقون وقد عجز عن الاصلاح بينهم ،

أفلم تر أنه خجل من بعد هـذا السؤال وعجّل في الانصراف لأننـا واقفون على حاله في داره ، فسترى أنه لاينشر حديثك غداً فيجريدته ولا ينشر صورتك جزاء لك وهو سينشر حـديث زميلك وصورته ، ولمـا طلع الصباح علينا لم أجد في صحيفة هذا الصحفي حديثي ولا صورتي وقد أحب أن يعتذر فقال لأمين الجامعة : اني خجل جدا من ضيفكم ، صدرت الجريدة وليس فيهـا شيء عنه ولا فيهـا صورته والسبب في ذلك اهمال المحرر •

الهنود .

قربنـا من الهنود ، من قراهم ومساكنهم ومزارعهم ، زرناهم في عدة ولايات ، زرناهم في قريتهم القريبة من « تكسن » ان لهم دورا من الطين ومن الخشب الخاص « بتكسن » ولا يوجد منه في غير بلاد ، شكله عمودي يبلغ طوله مترين أو ثلاثة أمتار وله شوك يشبه شوك الصبَّارة في بلادنا وكذلك قشره فانه يشبه قشر شجرة « الصبَّارة » الى جنب دورهم العتيقة دور حديثة من الآجر الأحمر ، بسيطة جدا ، يعيشون بالزراعة ولا يزرعون الا ما يسد حاجتهم ، ويتنازعهم مذهب الكاثوليك ومـذهب البروتستان وتقع خـلافات دينية بينهم ، فاذا أنشئت كنيسة للكاثوليك جـاء البروتستان وهدموها ، وعلى الرغم من انتشار النصرانية فيهم ان لهم رسوما قديمة يحافظون عليهـا في رقصهم وعباداتهم ، ولهم ميل الى الشعر وهذه حالة الأمم الابتدائية وهم يركبون الخيل في مزارعهم ، وفلاح هـذه الولايات له اعتنـاء بالخيل لقطع المسافات في مزارعه وله اعتناء بالسلاح للدفاع عن نفسه وملـكه •

دخلت كنيسة من كنائسهم ، فيهـا شُرَف على الطـريق وقد خطّطها القسس والرهبان وبناها الهنود بأيديهم ولها قبب وعلى القبب

صور رسوم دينية وتجد في الكنيسة تمثال أحد القديسيين وهو ملقى على فراش الموت وجسمه مغطّى ، ما عـدا وجهه ، يأتي اليـه الهنود ويضعون الى جنبه شيئا من المال آملين اذا مرضوا أن يشفيهم أو اذا غاب أهلهم أن يعودوا أو غير ذلك من الآمال .

أردت دخول دورهم ورؤية رقصهم فقيل انهم غائبون في المزارع ومع هذا دخلنا احدى الدور واذا فيهـا سرر والدار مفروشة ببسط من نسج الهنود وفيها مكتبة ومقاعد ومطبخ حـديث ولكن صاحب هذه الدار أرقى طبقات الهنود ، درس في جامعة وهو معلّم وليست الدور كلها على هذا النمط ، فاذا بعدت القـرى عن المدينة اختلفت دورها اختلافا كبيرا وظهر عليها البؤس وغلبت عليها الشقاوة وسيأتي وصف بعضها في حينه .

بيوت هذه القرية التي زرتها من طين وسقوفها من خشب وقش وقد رأيت غرفة من غرفها ، فهي بالية تشبه غرف أشد القرى فقـرا في بلادنا ، وأهل القرية يتبعون الفرنسيسكان ولهم دار خـاصة من أجل اجتماعاتهم العامة ، ومدينة « تكسن » التي تقرب منها هـذه القرية هي أقدم مدينة يسكنها الهنود من ثلاثة آلاف سنة وكان لها سور في الماضي وهي المدينة الثـانية في الولايات المتحدة من بعـد هجرة الأوروبيين .

اليازو EL PASO

١٦ تشرين الأول ١٩٥٣

جئنا « اليازو » وهي على مسافة ساعة من « تكسن » بالطائرة ، مررنا بجبال وصحراء ، ورؤية الجبال والصحراء من الطائرة أحلى منها من القطار ، فالشيح والقيصوم وشجر الجبال وغير ذلك يظهر كأنه قطع الشطرنج .

تقع « اليازو » على حدود المكسيك ، فهي مثل اختها « تكسن » غارقة في صحراء ، تحيط بها الجبال ولكنها أكثر ضجة في الليل والنهار ، والنظافة فيها قليلة ، يشعر الانسان من حين دخوله بأنه ليس في مدينة أميركية كمدن الشمال أو الشرق ولكنه في مدينة اسبانية ، فالمقاعد في الحدائق العامة مملوءة بالناس وهذا لا تجده في الشمال والشرق الا قليلا ، والسحن مختلفة ، فالناس سمر ، وأما اللغـة فان نصف أهل المدينة يتكلمون بالاسبانية حتى ان الذين يتكلمون بالانكليزية يغلب على لهجتهم أثر الاسبانية .

استقبلتني في الفندق آنستان شقيقتان : سكينة ومريم وابوهما السيد عابد عثمان ، أصله من الحصن القريبة من تل كلخ في سورية وأمهما من احدى قرى حمص الشرقية ولا تزال تنطق بالقاف ، ولهذه الأسرة ولدان أحدهما فؤاد وهو جندي في الجيش والآخـر محمد العـابد .

الآنستان من ألطف الأوانس وأجملهن ، الواحـدة حنطية اللون والثانية بيضاء رشيقة القوم ، ولهما سيارة ساقتها مريم ، انها كاتبة في احدى المخازن ، أما سكينة فلا تزال طالبـة ، انهما تتكلمان بالعربية ولكن على صورة ضعيفة ، فحديثهما بالانكليزية ، طفنا بالبلد قليلا على سيارتهما ، ثم ذهبنا بنا الى الدار ، فاستقبلتنا أمهما بلهجتها العربية ورحَّبت بنا أكرم ترحيب وكانت تناديني : يا أخي ، وفي المساء جاء رب الأسرة السيد عابد وهو من أطيب النـاس ولا يزال على فطرته الأولى وقد كان قضى في الهجـرة خمسا وثلاثين سنة ، معظمهـا في المكسيك ولذلك يتكلم بالاسبانية هو وزوجته ، أما الآنستان فانهما لا تعرفان هذه اللغة .

فرح بنا الأب فرحا شديدا ، وهيؤا لنا في الدار عشاء شرقيا فاخرا وكانت الأم تطبخ وبنتها مريم تعاونها ، دار بيني وبين الآنستين حديث الزواج ، فالآنسة مريم تريد زوجا يفهم ليس غير ، ولا يهمها الشكل ولا الغنى ، انها عصبية ذات فهم ثاقب ، والآنسة سكينة تريد زوجا متعلما ، لا جميلا مفـرطا في الجمال ولا قبيحا مفرطا في القبح ، واذا كان غنيا فلا بأس بذلك .

لقد أرادتنا الآنستان وأهلهما على البقـاء في بلدهما ، فاعتذرنا فقد كان عليَّ أن أسافر الى مدينة ثانية لموعد بيني وبين جامعتهـا ، طلبت الى الآنستين أن تسافرا الى الشام وأن تتزوجـا في وطنهمـا فقالتا : هذا أمر عسير لأننا ألفنا هـذا الطرز من الحياة فلا يمكننا تغيـيره[1] .

---

(١) الا ان الآنسة مريم قد مالت الآن الى تغيير هـذا الطرز ، فقد كتبت اليَّ انها ترغب في المجيء الى دمشق لتتعلم لغتها العربية وتعلِّم هي اللغة الانكليزية في الجامعة السورية ، هذا هو حلمها .

سهرت سهرة في دار السيد عابد عثمان لا أذكر أني شعرت بالأنس شعوري به في هذه السهرة ، ولكن لا بد من المكدرات ، فقد علم بقدومي شابان من سورية ، فقصدا الى دار السيد عابد للتكدير والتنغيص في الباطن ، وللسلام عليّ في الظاهر ، ولهما معرفة بي وأحدهما لم يخرج من دمشق الا قبل ستة أشهر ، جاء هذان الشابان ليطعنا على القرآن في دار رجل مسلم : ما هذه الشريعة ! السنّ بالسن والعين بالعين ... جاء هذان الشابان ليطعنا على اللغة العربية أمام رجل يعبد هذه اللغة عبادة : ما هذه اللغة ! ان أكثرها آرامي الأصل ! جاء هذان الشابان ليحملا على أميركة اذا أرادت أن تساعد العرب : هل يستحق العرب شيئا من المساعدة ! هذا حديثهما وهذه عاطفتهما وهذا أدبهما ، عنصران من عناصر التهديم ، ولا أريد أن أذكر اسم الحزب الذي ينتسبان اليه ، لقد دافعت كثيرا وناقشت كثيرا حتى ثارت أعصابي واربدّ وجهي وجحظت عيني وكدت أخرج من نفسي ، قضيت ساعتين في تفنيد أباطيلهما وكان يجب عليّ أن ألجأ الى السخرية ولكني لم أفطن الى ذلك الا في خاتمة الأمر ، فقد ظننت في البدء أنهما صاحبا نية حسنة ، وأن مجادلتهما يلزم أن تكون بالتي هي أحسن ولما انكشف لي خبث النية في كلامهما ندمت كل الندم على هذا الطرز من المجادلة ، والخلاصة انهما كدّرا علينا رونق السهرة ونغّصا علينا صفاء الليلة وذهبا بعد أن قام كل واحد منهما بالواجب في التكدير والتنغيص ، حتى اضطر السيد عابد صاحب الدار بعد انصرافهما الى الاعتذار والى المبالغة في هذا الاعتذار لأن الأمر جرى في داره ولم يستطع وفقا للتقاليد التي ألفها في وطنه أن ينهرهما في داره .

ولم يخفف من سورة الغضب الا نزهة بعد السهرة في صحراء « الپازو » والتنفس في هذا الطريق واسمه : طريق العشّاق .

البـاكركي ALBUQUERQUE

١٨ تشرين الأول ١٩٥٣

سهول وصحارى وجبال ومراع وبعض دور في الأرياف ، هـذا ما تقع عليه العين من « الپازو » الى « البـاكركي » نحن لا نزال في ولاية « نيومكسيكو » والذي رأيته أن النزعة الدينية غالبـة على الصحارى التي مررنا بها بسبب أهل المكسيك الذين كانوا فيها من قبل ، فالصليب على قمة جبل عال والكنيسة في قلب الصحراء .

أما « الباكركي » فخصائصها مثل خصائص المدينتين الغـارقتين في الصحراء : « تكسن » و « الپازو » تحيط بها جبال اسمها جبال البطيخ وذلك لأن الشمس اذا غابت عنها كان لون الجبال أصفر ومن وراء الجبال غابات تعكس عليهـا ألوانها الخضر ولهذا سميت جبال البطيخ بالاسبانية ، ولكن في « الباكركي » شيئاً أكثر من جارتيها ، ان فيها نهرا عجيبا ، ماؤه الجاري على وجه الأرض قليل ، فماء هذا النهر يجري تحت الأرض على عمق ميـل ، حول هـذا النهر شجر وبساتين وهذا لم أره في مدينتي الصحراء ، وفي الشتاء يفيض النهر فيغمر المـاء الشجر كله ، وقد جعلوا من ماء النهر بحيرة صغيرة للبط الى جنب حديقة عامة ، وهذا لم أره أيضا في مدينتي الصحراء .

محاسن « البـاكركي » كمحاسن مدينتنا دمشق ، فان الانسان يأتي من الصحراء فتأخـذ عينه دفعة واحـدة غوطة فيهـا الحدائق

والبساتين وكذلك دمشق يأتيها الانسان من الصحراء فيرى الجنّة فيها •

في المدينة حديقة صغيرة للحيوانات ، فيها دبة تختلف ألوانها عن الدبة التي في بلادنا بسبب الاقليم ، لونها أسود على الأغلب ، وفيها أسود من غابات الاقليم وفيها نسور وكل هذه الحيوانات من جبال البلاد نفسها وغاباتها ، وقد رأيت طائفة من الغزلان الكبيرة تأكل قشر الشجر ، فقد يجوز أن شجر الغابات انقرض معظمه بسبب أكل قشره لأن الشجرة تضعف فتموت ، وتضاف الى ذلك أسباب ثانية مثل الحريق ومثل قطع الشجر للدفء •

المدينة في الليل هادئة هدوء « تكسن » فليس فيها زحمة « الپازو » وضجتها •

في طرف من أطراف المدينة مطار ، اذا أحصيت الطائرات التي تهبط اليه في الأربع والعشرين ساعة كان معدلها على ما قيل لنا طائرة في كل دقيقتين ، وفي « الباكركي » مركز لدراسة القنبلة الذرية وكهوف في الجبال لاتقاء خطر العدو •

شاهدت في أحد من الآحاد مساءً سيارات كثيرة في المطار فيها أمّهات ومعهن أبناؤهن الصغار وقد جئن بهم ليروا الطائرة وهي تهبط الى الأرض ، وكذلك في حديقة الحيوانات فقد رأيت مثل هذا المرأى ، معنى ذلك أن الطفل الأميركي يشب على الدراسة العملية قبل الدراسة النظرية ، فهو يرى بعينيه قبل أن يرى بعقله ولا ريب في أن الدراسة على هذا الشكل أقوى وأرسخ •

الدور في « الباكركي » من أنماط مختلفة ، من نسط مكسيكي وهو بسيط جدا مربع أو مستطيل وعلى أطرافه الشبابيك ، الى نمط أسباني ، الى نمط أميركي ولكن أكثر المباني على طرز هندي ، لقرب

المدينة من قرى الهنود ، فالدار مربعة وهي ذات طابق واحـد وبدلا من أن تكون على شكل هرم إنها مسطحة ولها سطح واحد ، وأمام الدار حديقة على الشارع من ستة أمتار الى عشرة أمتار وفيها شجر الحور والسرو ، ولم تقع عيني في المـدينة على النخيل وانما رأيت فيها الصنوبر •

أما الجامعة في « الباكركي » واسمها : جامعة « نيومكسيكو » فانهـا متصلة بالمدينة ، بنيت على طرز هندي إسباني ، جدرانها مائلة وهي مكلسة بكلس من تحته آجـر وأكثر سقوفها بارزة ، تمتـد أعمدتها الى خارج الغرف ، وللغرف كوى ولهـا شُرف من خشب ، فالطرز هندي محض ، وهو الغالب على الدور والفنـادق : خشب وشُرف من خشب ودرابزين ، ليس في هـذه الجامعة عظمة جامعة الشرق والشمال ، في حـدائقها حور وسرو وصنوبر ومـروج خضر وليس فيهـا نخيل ، وللأساتذة دور في أرض الجامعة ، والسيارات حولها ، أما دار الرئيس فمظهره حقير جـدا بالنسبة الى قصر رئيس جامعة « برنستن » •

من دخول الجامعة يشعر الانسان بطرزها الهندي ، على الجدران صور هندية وصور تمثل تقارب الحضارتين المكسيكية والهندية ومن الصور المعلقة صورة تمثل أميركيا يقف بين رجل هندي وبين رجـل مكسيكي ، قابضا بيده اليمنى على واحد ، وبيده اليسرى على آخر، فكأنه يقول لهما : اذهبا ، فالبلاد أصبحت بلادنا ولكن الصداقة باقية•

كتب على جدران الصفوف في هذه الجامعة : لا تدخنوا ، وهذا لم أره في جامعة ثانية ، فالبنات اللواتي يدخنّ في الجامعـات يكاد عددهن يزيد على عدد الشباب المدخنين •

في الجامعة أربعة آلاف تلميذ وبعض أساتذتها نساء ، منها أساتذة

تدرس الاسبانية وشعار جامعة « نيومكسيكو » : حيوان يشبه الذئب .

والخلاصة مهما تكن هذه الجامعة بسيطة في مظهرها فان لها سرًّا بنعش القلب : حدائق وشجر ، فالطالب في نزهة في كل حين .

الهنود .

من خصائص مدينة « الباكركي » وجود الهنود في أطرافها ، زرت قرية من قراهم ، بيوتها من حيث الحقارة تشبه بعض البيوت الحقيرة في قرانا : التراب متراكم على الطرق ، وعلى كل باب تنور للخبز ، طفنا بهذه القرية ودليلنا قندلفت الكنيسة وكان معنا شيخ جبته سوداء فكان هذا القندلفت يظنه قسيسا فيناديه : أبانا ! أبانا ! بالانكليزية .

بعض البيوت لا بأس به ، البهو فيه بساط ودواوين ومدفأة وتخت ومنضدة ومرآة وراديو ، والمطبخ من المطابخ الحديثة ، ولكن الدار التي أصفها انما هي دار حاكم القرية ، وفي بعض قرى الهنود مدرسة ابتدائية .

سانتافي SANTA FE

٢٠ تشرين الأول ١٩٥٣

اذا غادرت ثلاث مدن غارقات في صحراء تشبه الصحراء الممتدة بين دمشق وبغداد ، اذا غادرت هذه المدن بعد أن أقمت بها أسبوعا أو أقل فأول شيء تشتهيه انما هو الانتقال الى أفق أخضر تستأنس بخضرته ، انك لا تكاد تخرج من « الباكركي » حتى تستقبلك بعد قليل تلال وجبال منبسطة ، غرس عليها الشجر فكاد يغطيها ، وانك لتمر على هذه الغابات المفرقة على يمينك وعلى شمالك فتصل الى مدينة وقد تلبد وجه السماء واستفاضت الغيوم في أعنانها وأخذ المطر ينزل قليلا قليلا ، فتدخل هذه المدينة الصغيرة « سانتافي » في ولاية « نيومكسيكو » مدينة يسكنها ثلاثون ألفا ، فتأخذك الدهشة من طرقها التي لا تشبه طرق المدن الكبيرة ، فتظن أنك تارة في بعض شوارع بحمدون وتارة في بعض شوارع زحلة في لبنان ولا بد لرجل عاش في الشام ولبنان من أن يستأنس بهذه المدينة لأنها تذكره وطنه ، يقيم « بسانتافي » اسبانيون وهم مهاجرون قادمون من المكسيك ويقيم بها أميركان ولهم على تلالها دور يصيفون فيها ولكن طرز العمران في « سانتافي » غالب عليه الشكل الاسباني والشكل الهندي لأنها قريبة من قرى الهنود ، الدور معظمها قد لوّن باللون الأبيض الذي يشبه الكلس ، فهي لا تشبه في شيء دور الأميركان في الشمال

والشرق ، وبعضها طلي بالسمنت على شكل الطين في بلادنا ، وقد دخلت دار الحكومة وهي نظيفة جدا تكاد تكون غاية في النظافة ، فيها ساحة مكشوفة مثل دورنا القديمة في دمشق ، وفي الساحة بركة ماء وفي مدخل دار الحكومة من الوسط برج عال يظنه الانسان مئذنة ودخلت فندقا عظيما فيه ساحة مكشوفة أيضا وفي وسطها بركة ماء مما يدل على أن الطرز اسباني قديم وقد أنست كثيرا بهذه الساحة وجلست على مقربة من البركة أتذكر دمشق ودورها القديمة ، والعمران أغلبه من خشب ، فترى باب الفندق من خشب والدرابزين من خشب والشبابيك تحجزها قضبان من خشب ، وفي ساحة هذا الفندق جسور خشب بارزة من الحيطان وفي الزوايا كلها جسور خشب بارزة ، وأعجب شيء فيهذه المشاهد كلها الفليفلة الحمراء المعلقة على الجدران ، إن فندقا أنيقا مثل هذا الفندق لاتخلو جدرانه من الفليفلة .

استرحت قليلا في الفندق الذي نزلت به واسمه : El-Fadel سمّاه صاحبه باسمه وهو رجل من لبنان اسمه الفاضل ، فجاءني موظف من موظفي الغابات بسيارة من سيارات الحكومة ، فركبنا وطفنا على الجبال والتلال ، اني في بيئة اسبانية من حيث السحن والدور ولكنني اذا طفت على الجبال شهدت نفسي في سورية في جبال العلويين الخضر وتلالهم ، فالجو جو خريف والغيم في السماء والثلج على الجبال ، فأين هذه المشاهد من مشاهد الصحراء .

خصائص أميركة أنها متنوعة الطبيعة لا يكاد الانسان يمل منها ، تقلبت في الجبال والتلال ثلاث ساعات بين خريف أصفر يتناثر فيه الورق على الأرض بعد أن فارق الحياة وربيع أخضر يتعصّى على الموت فلا يريد أن يموت ، تقلبت في هذه الجبال في طرق تنخفض مرة وترتفع مرة ، طرق ضيقة لولا أن بللها المطر لثار ترابها فيالفضاء ،

حتى بلغت قرية ، فظننت نفسي في بعض قرانا ، البيوت على الطريق قد غطيت بهذه الفليفلة الحمراء التي يشمسونها ليأكلوها كما نشمس في قرانا قمر الـدين ، والساقية الصغيرة تمـر على جانب الطـريق والدجـاج يبحث عن أكله في الأرض والحطب قد صف على أبواب البيوت ليستدفىء به الفلاحون في الشتاء والحمار يفر من مرج الى مرج ، هذا أطرف شيء رأيته في هـذا اليوم ، ومـا زلت أتنقل من مشهد الى مشهد حتى وصلت الى قرية هنـدية ، ودور الهنـود في قراهم تكاد تكون متشابهة : ساحة في وسط القرية وقد صفت عليها البيوت بطينها وخشبها وشبابيكها الضيقة وأبوابها الصغيرة وتنـانير خبزها وزرائبها وحظائرها ، فلا طرق مزفتة ولا أثر من آثار الحضارة ، هكذا يريد الهنود أن يعيشوا ، فقد اكتفوا بهذه المـزارع البسيطة وبحياكة البسط وصياغة الخواتم والأساور والحلق ، وصناعة الفخار الملون بأطرف الألوان وأزهاها ، وبالرقص في نيويورك أو غيرهـا ، بعضهم تحوّل الى النصرانية وبعضهم حافظ على دين آبائه وأجداده ونزل تحت الأرض يمارس هذا الدين حتى لا يراه أحد .

خرجت من هذه القرى الهندية الشامية ، فوقفت على تل مرتفع أصغي الى موسيقى الطبيعة الهـادئة وهي موسيقى حفيف الشجـر وخرير المـاء ، وما زلت ألهي أذني بنغماتها الواحـدة التي لا تتغير وألهي عيني بخضرة الـربيع وصفـرة الخـريف حتى انحدرت الى « سانتافي » الى هذه المدينة الساكنة ، الى هـذا الفندق البسيط ، اني أدوّن هذه الخواطر واذني تسمع أغاني الأميركان على الراديو ، أغـاني أميركان الجنوب ، أغاني الاسبان وأهل المكسيك ، هؤلاء الأميركان الذين حافظوا على لغتهم وموسيقاهم ، فالنـاس في ولاية « نيومكسيكو » أكثرهم يتكلمون بالاسبـانية وموسيقـاهم على

الراديو لا تزال نغماتها اسبانية ، فالتنازع مشتد بين اللغتين : بين الانكليزية والاسبانية ، ولكن عاقبة الاسبانية كعواقب اللغات التي جاءت الى أميركة ثم خفيت آثارها .

٢١ تشرين الأول ١٩٥٣

الهنود .

خرجت من الفندق في الصباح فشعرت ببرد فقلت لرفيقي : هذه القرسة قرسة ثلج وما كدت أفرغ من هذا الكلام حتى ظهر لي الثلج على الجبال الشاهقة .

جعلنا هذا النهار لزيارة قرية اسمها : Taos Pueblo قيل لنا انها مشهورة بالفن ، فن قصورها القديمة في الضواحي ، وان فيها رجال فن ، بيننا وبين القرية ساعتان بالسيارة ، فركبنا السيارة العامة ، وما زلنا نقطع في الطريق كثبانا من شجر لا من رمال ، انها كثبان مبعثرة في الصحراء على مدى بعيد ، يعلوها الشجر حتى وصلنا الى « تاوس » وهي قرية سكانها وسكان ضواحيها خمسة آلاف ، لكنها قرية غريبة الشكل ، الحفر في بعض طرقها وقد اجتمع الطين والماء فيها ، دورها على نماذج غريبة ، تجد على سطوح بعض الدور أبراجا على أبراج ، أما مقدمة الدار من عند السطح فانها قد قطعت تقطيعا بدلا من أن تكون على خط مستقيم ، وبين كل قطعة وقطعة فراغ ، ثم تجد في وسط المقدمة خطا منحيا والدور في داخلها سقوف من خشب تسندها جسور ضخمة من الخشب والسمنت فوقه ، وأكثر هذه الدور بني على طرزين متمازجين : الطرز المكسيكي والطرز الهندي ، أمّا المخازن في الأسواق فانها واقعة على جملة أروقة من خشب لا من حجر ، والسبب في شيوع الخشب في هذه الولاية كثرة الغابات .

دخلنا مكتب الغابات للاتصال بمديره حتى نطوف بسيارته على

أطراف القرية فوجدنا أمام كل موظف مخططا من جصّ أخضر يمثل الدائرة التي عهد اليه الاعتناء بهـا ، ووقعت عيني على مجلة اسمها : مجلة الغابات Journal of Foresty يكتب فيهـا أساتذة اختصوا بأمور الغـابات ، كلهم من جامعات أميركة ، والولاية فيهـا خمسة مكاتب للغابات .

ولكني لم أذهب الى « تاوس » لاحصاء الغابات ومكاتبها ، فأنا بعيد عن تدوين مثل هـذه الأمور في الرحلة ، ذهبت الى « تاوس » للفرجة ، ذهبت لأزور قرية هندية تشتمل على فن القصور ، ركبنـا سيارة مدير مكتب الغابات وانطلق بنا نحو قرية قيل انها أكبر القرى الهندية ، مشهورة بحسن الرقص ، فيهـا متافح ومزارع ذرة ، وهي تقع على سفح سلسلة من الجبال الشاهقة التي يغطيها الثلج وأمامها سهل منبسط ، أما الطرق في القرية فانها مثل طرق قرانا في الشتاء ، فيها الحفر والطين ، وأما الدور فلم نشهد مثلها في القرية الهندية التي زرناها من قبل ، فهي على كل حال من طين وخشب ولكن شكلها من أغرب الأشكال ، فالدار قد تكون عدة طاقات ، الا أن هذه الطيقان لا يركب بعضها بعضا ، فترى طاقا على الأرض يعلو بعضه ، من جانب طاق آخر ومن جانب فضاء ، ثم من ورآء هذا الفضاء طاق آخر الى جنبه فضاء ، ثم من ورآء هذا الفضاء طاق ، هـذا هو الفن الهندي القديم : طيقان من طين وخشب ، منفصل بعضها عن بعض ، هذا هو الفن العجيب الذي ركبنا السيارة سـاعتين من أجله ، أمام كل دار تنور خبز على شكل قبة ، فهو لا يشبه تنانير بلادنا ، وليس في القرية كهرباء ، وانما يستصبح أهلها بزيت الكاز ويشربون من ماء النهر على علاته وبعضهم لهم آبار على أبواب دورهم ، يسحبون المـاء منهـا بالحبل والسطل .

زرت المقبرة وهي في وسط القرية ، فوجدت على الصلبان أسماء مكتوبة ، كلها أسماء مكسيكية أي أسبانية ، معنى هـذا أن هؤلاء الهنود أخذوا عن المكسيك أسماءهم .

قال لنا أحد الهنود : هذه القرية عمرها ألف وسبعمائة سنة والله أعلم ، يأتي اليهـا الأميركان رجـالهم ونساؤهم للفرجة ، فالهنود أصبحوا آثاراً قديمة كالآثار المكدوسة في المتاحف .

بعض الرجال يضفرون شعرهم ويلفّون غـدائرهم بنـوع من القماش ، وهم مـرد لا شعر في وجوههم ، واذا نبت الشعر تتفوه ، وأكثرهم سمان ووجوههم مخيفة ولا جمـال في رجالهم ونسائهم ، وأهل هذه القرية يبلغ عددهم تسعمائة نفس .

تكاد تكون الفليفلة الحمراء مقدسة في نظـرهم ، فهم يعلقونها على جدران البيوت من الخارج حتى تجف كمـا يعلقون عماشيش الذرة على أشكالها المختلفة : البيضاء والصفراء والسوداء والحمراء وعمشوش الذرة كبير .

ينتخب أهـل القرية حاكما لهم ونائب حـاكم لستة أشهر واذا اضطروا الى اجتماع عام طلع أحـدهم سطح دار من الدور وصاح بأعلى صوته ايذانا بالاجتماع .

من أسباب معاش الهنود المزارع والمراعي والغابات في الجبال ، فهم يرعون البقر ويركبون الخيـل ويعيشون من أموال المتفـرجين وتستخدم الولاية شبابهم في إطفاء النار في الغابات ، وهم ماهرون في ذلك ، ويذهبون من حين الى آخر الى « نيويورك » للرقص ، وهم فقراء في ظواهرهم ، وقد شهدت شيخا منهم يجرّ جسمه جرّاً من البرد وقد لفَّ بدنه بمبطّنة .

لا يتزوجون الا امرأة واحدة .

مررت على بعض مزارعهم فوجدت انهم يستخدمون في الزراعة عجلة من خشب مستطيل يجرها رأسان من الخيل •

على باب هذه القرية شاب من الهنود مشهور بفن التصوير ، تصوير اليد ، وصوره صور رجال الهنود ونسائهم وثيابهم وأدوات رقصهم ، وصور بعض الحيوان ولا سيما الطير ، وفي الدكان كثير من مصنوعات الهنود وأعجبها الفخار لجميع الأواني ، والخواتم والأساور والحلق من الفضة والزمرد •

أوقد صاحب الدكان النـــار في الكانون من شدة البرد ، فملأت رائحة العود الطيبة جوانب الدكان كلها •

هذا أعظم ما قيّد نظري في هذه القرية على وجه عام •

ما كدنا نخرج من الدكان والقرية حتى دخل بنا صاحب السيارة داراً بناها أحد السكان ، فاشترتها الحكومة ووهبتها لرجال الفن في « تاوس » وعددهم سبعون ، دخلنا هذه الدار وشهدنا آثار الهنود والمكسيكيين ، وأكثر هذه الآثار عبارة عن سلحفاة في الأرض يبصق فيها المجتمعون في سهرة أو سمر ، وأدوات السلاح في القديم ، وهي القوس والنشاب ، وثياب النساء ومهود الأطفال وأحذية رجال غريبة لا يمكن أن تنطبع آثارها على التراب والفخّار وما شابه ذلك •

والصورة التي استوقفتني انما هي صورة عجلة تجرها الخيل ، وقد ركبها الأميركان وحملوا بنـــادقهم وسددوها الى الهنود الذين كانوا يلحقون العجلة على خيلهم لقتل أصحابها أو سلبهم ، وســـلاح الهنود القوس والنشاب ، هكذا كانت الحال بين الأميركان والهنود في بدء الأمر حتى قضى الأميركان عليهم •

تدل الدار التي جمعت كل هذه التحف على أن فن الاسلام قد أثر في القديم في فن الاسبان ، ان للدار جــدارا على الطريق عاليـــا

ومن وراء الجدار ساحة مكشوفة وفيهـا بئر وقد رفع الجدار حتى لا يرى المارون النساء في هذه الساحة .

أما حضـارة المكسيك فلم أر إلاّ عشاميش الـذرة المعلقة على الجدران بألوانهـا المختلفة ، والفليفلة الحمـراء والقفف والسـلال والعجال الزراعية التي تجرها الحمير ، وبين هذا كله رجال موسيقى علقت صورهم على الجدران .

ارض السحر

تعبنا من هذا المطاف ومن هذه الدور والصور والآثار ، فقلنا لصاحب السيارة : اذهب بنا الى الطبيعة .

صعدنا على جبال عالية غطّاها ألأرز الأخضر، ثم انحدرنا الى أودية قد غمر الثلج أكثرها ، فكنا نسير على الطريق والثلج على جوانبنا ونحن في تشرين الأول ، جبال وأودية خضر يأتي اليها الأميركان في الصيف ، فيستأجرون في بطون الأودية بيوتا من خشب ، ويطبخون بين الشجر على كوانين من حجر ، ويقعدون على مساطب من خشب في واد يقيهم لفحة الرمضاء ، يقضون فيه أسبوعا أو أسبوعين ، وقد نفرت عنهم أسود الجبال ودببها لأنها تبعد عن الانسان ، إلاّ اذا ضايقها ، هكذا قال لنا صاحب السيارة وهو صيّاد .

لقد شرع أهل هذه البيوت يوقدون النار في بيوتهم ، فيصعد الدخان من المداخن ونحن في تشرين الأول .

اذا فتشت عن وصف لهذه الجنّة التي طفت بها أكثر النهار فلا أجد أبلغ من هذا الوصف وقد قرأته على مؤخرة السيارة التي ركبناها ومعناه : أرض السحر ! ولذلك سميت هذه الرحلة : أرض السحر .

ان هذه الولاية كلها ، « نيومكسيكو » أرض السحر وهذا أصدق وصف لها .

أمّا خاتمة المطاف فقد كانت عشاءنا في مطعم فرنسي في قرية

« تاوس » صاحبه من « الألزاس لورين » جاء القرية من سبع سنين وزوجته المانية من « مونيخ » واذا جمع الذوق في محل فقد جمع في هذا المطعم الصغير ، سقفه منخفض يكاد الانسان يمسه برأسه ، وهو من خشب وقد سندته جسور من خشب ، وعلى الجدران عشاميش الذرة والمقالي والبسط الهندية وقطع من خشب الغـابات ومصابيح ضئيلة الأنوار تزيد في رونق هـذا المطعم ، وكراسي غريبة الشكل ومناضد أكل أغرب •

المطعم كله ذوق وفن ، انه ملائم لهذه الطبيعة الساحرة التي نعمنا بسحرها كل النهـار •

٢٣ تشرين الأول ١٩٥٣

حرية التصويت .

تركت « سانتافي » في الظهر ، البرد شديد والغيوم في أطـراف السمـاء وعلى رؤوس الجبـال ، وصلت الى محطة اسمهـا : Lamy وانتظرنا القطار وقد ركبت معنا معلمة من « سانتا في » ومعها مقدار ثلاثين طالبا صغيرا يتراوح عمر كل واحد منهم بين خمس وستسنين، جاءت بهم الى مدينة ثانية فيالولاية ، الىمدينة الصحراء « الباكركي» ليتعرفوا الى أجزاء وطنهم •

جمعت هذه المعلمة طلابها في غرفة الانتظار في المحطة ثم سألتهم :

من أراد أن يخرج من الغرفة الى العراء فليرفع يده •

من أراد أن يبقى في الغرفة فليرفع يده •

وقد كان هذا السؤال ضروريا لأن البرد في العراء شديد ، على هذا الشكل يتعلم الطفل حرية التصويت والانتخاب من بدء حياته ، فالحرية في أميركة منسجمة ، يبدأ بها في الدار ، ثم تنمو في المدرسة ، ثم تتكامل في الجامعة ،حتى اذا اندفع الأميركي في الحياة العامة كان ملآن منهـا •

ولما طلع الطلاب القطار طافوا به من أوله الى آخره والمعلمة معهم حتى يروا فيه كل شيء ، حتى يروا مراقده ومغاسله ومشاربه ومآكله ، فيتدربوا على متاعب السفر ، تتعلم العين في أميركة قبل العقل •

سألت هذه المعلمة : هل طلابك مطيعون ، قالت : أرجو ذلك •

٢٤ تشرين الأول ١٩٥٣ Grand Canyon

بعد الادلاج في صحراء طويلة وصلت الى هذا الموقف المشهور : Grand Canyon

نزلت من القطار واذا البرد قارس لأني على جبال تعلو عن الأرض ألفي متر ، لست في قرية ولا في مدينة ولكني في محل فيه فندقان أو ثلاثة فنادق ، وفيه بعض البيوت ، يبلغ سكانها ألف نسمة ، رزقهم على السيَّاح ، والفندق الذي نزلته واقع ورآء المحطة على بعد دقيقة أو دقيقتين • ما كدت أتوجه نحوه حتى رأيت الغزلان سارحة بين الشجر على الطريق العام ولكنها غزلان لا تشبه غزلان الصحراء ، انها غزلان الغابات والحراج ، فقلت في نفسي : هذا صباح الخير •

وصلت الى باب الفندق فوجدت بناء من خشب ، جسور وأعمدة مصقولة ، اني في بيئة كلها غابات ، والعمران فيها تقليد لعمران الهنود القدماء ، أرض الفندق من خشب وحيطانه من خشب ، وسقوفه من خشب ، الا أنه خشب حسن الشكل ، وهكذا نجدهم يحافظون على ما يسمونه : صباغ المكان • استرحت بضع دقائق فرأيت السياح ينطلقون نحو جهة على بضعة أمتار من الفندق ، فانطلقت بانطلاقهم واذا مشهد لم أر مثله في كل البلاد التي ضربت فيها •

رأيت هوة كبرى ، ولكن أين أولها وأين آخرها ، وما هي المسافة بين طرفيها ، وما قصتها ، هذا شيء لم يتصل بي علمه بعد ، رأيت هوة

أسمها بالانكليزية : Grand Canyon ومعناها الهوة الكبرى ، وهـذه قصتها على وجه الاختصار :

بعد وصولنا بساعة أو ساعتين ركبنا سيارة كبيرة فيهـا خمسون سائحا وأخذت هذه السيارة تسير بنـا في جبال شجيرة مقدار خمس ساعات ، قبل الظهر وبعده ، على طريق مزفت تؤنسنا فيه الغزلان من حين الى آخر ، لأنها أمنت شر الانسان ، فقد علمت أن صيدها محرم ، فكانت تسير مرة على الطريق العام ومرة على جوانبه ، أي في الغابات. كانت السيارة تقف بنا من حين الى آخر على مشهد من مشاهد الهوة وفي كل مشهد نرى أشكالاً لم نر مثلها من قبل .

قصة هذه الهوة على ما حاضرنا به أحد الأميركان في قاعة مطلّة عليها أنها في الأصل كانت صحراء ، وأظن انها كانت صحراء شجيرة تتاخمها جبال وهي جبال « كاليفورنية » فخسفت الأرض بهذه الجبال ، فوقع ضغط على جدارها اتصل بهذه الصحراء ، فارتفع بسبب هـذا الضغط عن الأرض نهر اسمه « الكولورادو » فزادت سرعتـه كثيرا حتى شق الصحراء ، وبانشقاق الصحراء ارتفعت الأرض المقابلة لهـا فجرى النهر فحدثت الهوة الكبرى ، وبين طرفي الهوة المتقابلين مسيرة عشرة أميال ، واذا نظرت اليهما حسبت أنك تستطيع أن تقطع الهوة في مدة قصيرة ، وفي كل طرف من هذين الطرفين تعيش حيوانات تختلف عن الطرف الآخر ، وليس في العـالم مكان تشبه حيواناته حيوانات هذه الهوة ، وقيل ان طرفيهما يشتملان على طبقات الأرض بأجمعها ، الطبقة السفلى التي لم تظهر الحياة فيها ، ثم فوقها الطبقات التي تمثّل الأدوار الجيولوجية كلها .

ظهر في هذه الهوة جبلا نار لا يزال أثرهما قائما ، وظهرت رسوم قرية هندية اندثرت باندثار أهلها وبقيت آثارهم وآثار أوانيهم من الفخّار ، وفي الجبال على جانبي الهوة حديد ، فاذا نزل الثلج في الشتاء وارتفع

مقدار ستة أمتار عن الأرض ثم ذاب حدثت منه شلالات لونهـا لون الحديد ، أي أحمر .

أما النهر الـذي يجري في بطن الوادي وهـو « الكولورادو » فيقولون ان عمقه أربعون مترا ويرتفع موجه في بعض الأماكن ١٢ قدما ولا يكاد الانسان يسمع هديره لترامي المسافة بين الواقف على رأس الوادي وبين بطنه ، وهو سريع جـدا في جريانه ، وقيل انه قطعه في سنة ١٨٦٩ رجل أميركي على زورق ، ثم عجـز عنه في محل سماه : الشيطان القذر ! فنصب لهذا الرجل تمثال في بطن الوادي ، وفي كل أربع وعشرين ساعة يمر بهذا النهر مليون طن من الطين ، ولونه لا يكاد يميز من رأس الوادي لشدة تعكيره .

اذا مشى الانسان من أول دائرة الهوة الى آخـرها قطع مسافة طولها ثلاثة آلاف ميل ، وقد سقط في الوادي ثلاثة طيارين ، فحطمت طائراتهم ، فظلت الحكومة ترسل اليهم الطائرات العمودية خلال عشرة أيام حتى استطاعت أن تنقـذهم ، وقديما سكن الهنود الحمر هـذا الوادي وبقيت آثار طرقهم فيه تسير عليها بغال المتفرجين في هذا اليوم ، ويسكن الآن في أعلى الوادي وفي بعض بطونه هنـود لا بيوت لهم ولا خيم ، وأكثرهم يموتون من البرد .

هذا ما يتعلّق بالوادي وبالنهر ، أمّا مقاطع الجبـال التي تحيط بهذه الهوة فهي من أغرب المقـاطع ، بعضها منحدر الى بطن الوادي على خط مستقيم ، وبعضها على خطوط منحنية ، حتى يكاد الانسان يظن نفسه في مدرج ، وعلى المقاطع كلها شجر من الأرز عظيم ، الا أنه لبعد المسافة بين رأس الوادي وبين بطنه يحسب الانسان هذا الشجر عشبا صغيرا . بعض المقاطع لا تجد عليهـا خطوطا ، لا مستقيمة ولا منحنية ، ولكنك تجد عليها تلالا قد لزّ بعضها الى بعض حتى تكاد

تؤلف جبالا وأودية يتصل بعضها ببعض ، والطرق التي تسير فيها البغال واقعة على هذه المقاطع ، ولا تزداد سيرا على أطراف الوادي من فوق الا ازددت رؤية لمشاهد يختلف بعضها عن بعض ، تجد فيها أشكال الهندسة بأجمعها ، كما تجد فيها ألوان التراب بأجمعها ، وكما تمثلت الأشكال والألوان في هذه المشاهد فقد تمثلت فيها عظمة الطبيعة حتى حارت العقول فيها . وفي هذه المقاطع صخرة سوداء قيل انها أقدم صخرة في العالم وعمرها على ما قدره علماء الجيولوجية في جامعة Yale ألف مليون سنة وليس فيها أحافير حيوان ولا نبات.

ليست الهوة الكبرى واحدة وانما تجد جملة هوًى متصلة على طول الوادي كله ، وطوله مائتا ميل وسبعة عشر ميلا ، والجبال تقوم في وسط الوادي من أوله الى آخره ، ومنها جبل اسمه المدرعة ، لأنه على شكل المدرعة ، ولم يدرس خصائصه أحد من العلماء حتى هذا اليوم ، ورؤوس جوانب هذا الوادي مرة تكون مستقيمة ومرة تكون كالأسنان .

هذه على وجه الاجمال صورة الهوة الكبرى ، واذا عظمت الطبيعة في موضع من مواضع أميركة فان عظمتها تظهر في شلالات « نياكرا » وفي الهوة الكبرى ، في الشلالات عظمة الماء وفي الهوة عظمة الجبال والأودية ، هناك رهبة الماء وهنا وحشة الصخر .

وقد انتهى بنا المطاف الى مقصف على طريق الغابات يستريح فيه السيَّاح ، فيشربون القهوة أو الشاي ، وهو مقصف مطل على الوادي المخيف ، لكنه مقصف غريب الصورة ، يكاد يكون مغارة في جبل ، سقوفه وجدرانه وكانونه من صخور مصفوف بعضها الى بعض ، أما الكانونة التي تبلع النار فلا يكاد الانسان يتصور كبرها ، فالنزهة شعرية من أولها الى آخرها ، وقد نسي سائح يهودي دراهمه عند صاحب المقصف فصاح به وأعطاه إياها ، وهذه على ما أظن أول مرة ينسى فيها يهودي دراهمه ! .

عدنا الى الفندق على السيارة ، فشهدت على هذه السيارة شيئا من طبيعة المرأة الأميركية ، انها تحب الضحك والتنكيت ، تصغي الى أحاديث السائق وتصفق اذا أعجبها شيء من هــذه الأحاديث ، وأنا الآن أدوّن هذه الخواطر على القطار في أول الليــل ولا أزال أسمع قهقهة المرأة الأميركية الىجنبي ، فالأميركان يحبون التنكيت ، رجالهم ونساؤهم ، وأذكر أن الرجل الذي حاضرنا بتاريخ الهوة الكبرى كان يرمي بالنكتة من وقت الى آخر ، فيمزج جـد العلم بهزل الحياة ، فكان الحضور يصغون اليه نساء ورجــالا وينبسطون الى نكته ولا بأس ببعض هذه النكت ، فقد قال :

« اذا صبرنا على هــذه الهوة الكبرى مــلايين من السنين أفلا نستطيع أن نصبر على حكم « ترومان » أربع سنين ! » .

رقص الهنود .

أحبوا قبــل أن نغادر الهوة الكبرى الى القطار في المســاء أن يعرضوا علينا رقص الهنود في ساحة كبيرة أمام الفندق ، فاجتمع ثلاثة شبان وولد صغير وفتاة وامرأة ، رقصت الفتاة وحدها ، ورقص الولد وحده ، ورقص شابان وامرأة . أصوات الرقص تطبيل وخشخشة ، اني غير مختص بفن الرقص ولكن حركات الراقصين كانت تدل على مهارة أقدامهم ، وحلاوة هذه الحفلة كانت في ثياب الراقصين ، وكلها من أنواع الريش الملوّن على الرأس والصدر والأفخاذ .

وهكذا أصبح الهنود الحمر رقّاصين بعــد أن كانوا أصحاب أعظم قارة ، يرقصون طمعا في دولار أو نصف دولار يرمي به السائح اليهم .

سان فرنسيسكو SAN FRANCISCO

٢٨ تشرين الأول ١٩٥٣

دعيت الى « سان فرنسيسكو » فدخلتها مـرة ثانية ، ان فيهـا جماعة يهتمون بالزوّار الأجانب ، فكلما جاءت فئة منهم دعوهم الى دار خاصة للتعارف ، ذهبت الى هــذه الدار ، فكان فيها طائفة من السيدات يستقبلن الزوار ، وقد وجـدت أن اسمي مقيـد في سجل الزيارة من بدء رحلتي ، وعند هذه الجماعة خلاصة ترجمتي • استقبلتني سيدة أميركية تعـرف بعض الفرنسية ، فآنستني ، ثم استأذنتني في استقبال أساتذة جاؤا بعدي ولكنها لم تفارقني الا بعد أن هيأت لي سيدة غيرها تتكلم بالفرنسية ، ولم يبق في ذهني ما قلت لهـا قبل أن تفارقني ، وأظن أني استعملت في مخاطبتها لغــة شعرية ، فقالت لي : قيل لنا قبل زيارتك انك شاعر ، وقد ثبت عندي الآن هذا القول •

فارقتني دقيقة ، ثم جاءت بسيدة أميركية لتجالسني ، فلاطفتني هذه السيدة كل الملاطفة ، يبلغ عمرها أربعين سنة وتظهر عليهـا آثار الغنى ، والسيدات الأميركيات على وجه عام يلاطفن الزوّار الأجانب ويؤنسنهم ويبالغن في هــذه الملاطفة والايناس ، وقد شهدت قبـل اجتماع « سان فرنسيسكو » اجتماعاً آخر في مكتبة الكونغرس في « واشنطن » فقد دعي أعضاء مؤتمر الثقافة الاسلامية الى شـرب الشاي ، فكانت السيدات يطفن عليهم ويبالغن في إكرامهم •

لم أسأل السيدة عن اسمها وانما سألتني الى أين أذهب بعد الاجتماع ، قلت لها : الى بالو آلتو Palo Alto وهي ضاحية تبعد عن « سان فرنسيسكو » ساعة في القطار ومعي تذكرة السفر ، قالت : اني مقيمة بجوارها ، فأرجو أن ترافقني في سيارتي ، فاعتذرت ، ثم ألحت عليّ فشكرت لها .

جاءني في خلال هذه الاحاديث زائر لا أعرفه وقال لي فجأة : أفلا تجد أن صلواتكم الخمس في النهار تعطل أعمالكم وكذلك صلوات رجال الحكومة فانها تعطل أعمال الناس ، فلم أجد بدا من إزالة هذا الوهم ، قلت : لا شيء من كل ما ذكرت ، ان المسلم يستفيق في الصباح ، فيتوضأ ويصلي الصبح ، وهذا لا يستغرق بضع دقائق ، ثم يتوجه نحو عمله ، أفتجد في ذلك تعطيلا للعمل ، قال : لا ، قلت له : وفي الظهر يذهب الى داره ليتغدى ، فيتوضأ قبل الغداء ويصلي الظهر وهذا لا يستغرق بضع دقائق ، ثم يتغدى ويعود الى عمله ، أفتجد في ذلك تعطيلا للعمل ، قال : لا ، قلت له : وبعد العصر انه يغلق دكانه ويذهب الى داره فيتوضأ ويصلي العصر ثم يصلي صلاة المغرب ، وهذا لا يستغرق بضع دقائق ، أفتجد في ذلك تعطيلا للعمل ، قال : لا ، قلت له : ولم يبق عليه إلاّ صلاة العشاء وهذا يستطيع أن يفعله قبل النوم ، فأين تعطيل الأعمال ، ولما لم يجد قدرة على الرد قال : وأعمال الحكومة ، قلت له : ان الحكومات في بلاد المسلمين أكثرها يعمل من الساعة الثامنة في الصباح الى الساعة الثانية بعد الظهر ، فالموظف يستطيع أن يصلي الصبح قبل المجيء الى عمله ، أما الظهر فهو يصليه بعد انصرافه عن العمل ، فأين تعطيل أعمال الناس ، فانصرف ولم ينبس .

لم أدون هذا الحديث الا لأمر واحد ، فان الأميركان لا يعرفون

شيئا عن الاسلام والعرب ، وهم يتطلعون الى هذه المعرفة ولكنا نحن مقصرون في الأمر ، ترسخ أوهام في أذهانهم ، فلا نحاول أن نمحوها ، وتشيع أباطيل وأضاليل فلا نجتهد في القضاء عليها ، ويسمعون عنا كل سوء وليس في أميركة من يدفع عنا هذا السوء .

أين سفارتنا ، أين بعثاتنا ، أين الجامعة العـربية ؟

PALO ALTO بالوآلتو

٢٩ تشرين الأول ١٩٥٣

قضيت في اجتماع « سان فرنسيسكو » ما يقرب من ساعتين ، ثم تركت الاجتماع ورافقت السيدة الأميركية ، وما كدت أخرج من الدار حتى لقيت زوجها وهو ينتظرها ، فعرفتني اليه ، فدعاني الى السيارة التي يسوقها ، ركب رفيقي الدكتور ايلي سالم الى جنبه وركبت أنا والسيدة في صدر السيارة ، قطعنا مسافة قصيرة ، فوقف بنا زوج السيدة ودعانا الى مطعم صغير على الطريق ولكنه مطعم جذّاب ، أكلنا ما أكلنا وشربنا ما شربنا والوقت وقت العشاء ، ثم انطلقت بنا السيارة نحو « بالو آلتو » .

لا يكاد الانسان يصدّق نوع الحديث الذي دار بيني وبين السيدة في السيارة ، سألتني : ما هي الألعاب التي أتقنها ، هل ألعب بالفوتبول أم بالتنس أم بالبزبول وكلها ألعاب مشهورة ، أم أعرف السباحة ، فوجدت أن أهون شيء عليّ أن أقول لها اني كنت أسبح في القديم لما كان عمري سبع سنين ، كنت أسبح في بركة ماء كبيرة في دارنا في دمشق ، فأدركت أني غير ماهر في الرياضة وقطبت قليلا .

زادني هذا الحديث ايمانا بأن الرياضة تشغل الأميركان كلهم ، رجالهم ونساءهم ، فان هذه السيدة لم تقبض وجهها الا لأني لست من أهل الفن ، فأنا لا أتقن من الرياضة الا المشي ، ولكنها ما لبثت

أن بسطت وجهها وما زالت تبسطه حتى بلغنا « بالو آلتو » ولكن القطار لم يصل بعد ، فنزلنا من السيارة ، وانتظرنا دقائق ريثما تصل الآنسة التي كلفتها جامعة « ستانفورد » أن تستقبلنا في المحطة ، فلما وصلت الآنسة بسيارتها ودعتني السيدة وزوجها أكرم وداع ، فشكرت لهما عنايتهما ورقتهما ومضيا •

« بالو آلتو » ضاحية قريبة من سان فرنسيسكو ، أهلها يسمونها : مدينة الحدائق ، وهي نظيفة جدا ، يبلغ عدد سكانها ثلاثين ألفا ، وفيها شارع يمتد منها الى « سان فرنسيسكو » الى المحيط الهادىء ، بين دور وأشجار وحدائق • قيل لنا ان المطاعم في هذه الضاحية قد حرم عليها بيع الخمور بسبب الجامعة فيها وبسبب الطلاب الأحداث •

أما الجامعة فقد أنشأها Herbert Hoover وهو رئيس الولايات المتحدة الواحد والثلاثون ، تبرعت بأرض الجامعة أسرة أميركية كانت في رحلة الى ايطالية ، ففقدت في هذه الرحلة ابنها الوحيد ، فتبرعت بأرض الجامعة إحياء لذكره ، وسمتها باسم الأسرة : « Stanford » وقد كان ربها حاكم « كاليفورنية » وبعض الأبنية في هذه الجامعة انشىء بالهبات والعطايا ، أما لذكر ولد فقد ، أو بنت فقدت •

جامعة « ستانفورد » فخمة جدا ومدخلها من أروع المداخل ، حدائق وأشجار وملاعب ، والسيارات محشوكة في جميع الطرق •

في الجامعة بناء للتمثيل لم أر مثله في غير الجامعات ، وفيها مكتبة مشهورة بكتب الشؤون الخارجية ومسائل الشيوعية ، وهي أول مكتبة في العالم من هذا النوع ، يقع بناؤها على طبقة أرضية ويقوم من سطحها الى السماء برج من أعجب الأبراج ، تخزن فيه الكتب ، علوه ٢٨٥ قدما ، طلعت هذا البرج حتى رأسه ، وهو يطل على المدينة

كلهـا ، بحدائقها وتلالها وجبالها ، وترى منه أبنية الجامعة ، فيظنّ المرء نفسه على طائرة ، وفي رأس البرج جملة نواقيس كبيرة ، قيل لنا انهم يعزفون بها في الأسبوع مرة ، فتسمع أنغام الموسيقى البلجيكية ، يكشف البحر من هذا البرج في أيام الصحو ، شعار جامعة « ستانفورد » شجرة من شجر كاليفورنية ٠

الجامعة واسعة جـداً بحيث اذا أراد الأساتذة أن يسكنوها فان لهم مساكن فيها ، ومن خصائص بعض أبنيتها أن فيهـا أروقة طويلة وقناطر من حجر لم أر مثلها في الجامعات الثانية ، قيل انهـا من طرز مكسيكي لتأثير أهل المكسيك في كاليفورنية من القديم ٠

أمّا كنيسة الجامعة القائمة في وسطها فقد بنـاها عمال ايطاليون جيء بهم من ايطالية ، وتقاطيع مدخلهـا وحيطانه من أحسن التقاطيع والحيطان ، أمام هـذه الكنيسة ساحة عظيمة وطريق مستقيم تشقه ثلاث قناطر ، فنهـا من أروع الفنون ، وحول الساحة أشجار باسقة وأروقة تحيط بالساحة من جوانبها الأربعة ٠ داخـل الكنيسة لم أر أحسن من فسيفسائه ، الصور على الجدران وألوانها من الفسيفساء وحسب هذه الصور انها فن ايطالي ، وعلى المذبح صليب من بيزانطة عمره خمسمائة سنة ، من بين هذه الصور صورة قيام السيد المسيح ومن تحته صورة البشرية القائمة أيضا ، وفي هـذه الصورة نفسها صورة ابن المتبرع بالجامعة ، أي ان المصورين حاولوا أن يصوروا على قدر الامكان ولدا يشبه هذا الابن الذي مات في ايطالية ٠

لا أستطيع أن أصف الصور كلهـا ، بعضها يمثل أبطال حروب ، وبعضها ذو صبغة دينية ، وبعضها يمثل نساء على جمال ، وهي صورة أيوب وامرأته في الصحراء ٠

في وسط أحـد أبنية الجامعة ساحة عظيمة فيها صهريج يتدفق

الماء فيه ، وحول هذه الساحة مجتمع الطـلاب ومطعمهم ومرقدهم ، الساحة من أجمل الساحات ، لم أر مثلهـا في جامعة ثانية ، والطلاب فيها على بسط من العشب الأخضر .

اشتهرت جـامعة « ستانفورد » بتدريس الهنـدسة وبمكتبتها الوحيدة في العالم ، وأكثر طلابها في قسم الآداب بنـات ، فهن يأتين للتفتيش عن خطيب على ما قاله لي استاذ فرنسي فيها ، ويبلغ عـدد طلابها سبعة آلاف طالب .

لم أخرج من هـذه الجامعة بعد جولاني فيهـا الآن على هدوء الطبيعة وهدوء السيارات الجائيات الذاهبات وهدوء أنغام الأرغن في الكنيسة ، فكأني لا أزال أسمع هـذه الأنغام التي تسحر القـلوب بخشوعهـا .

طعـام وكلام .

دعاني أساتذة جامعة « ستانفورد » الى العشاء والى المساهمة في مناقشة ، وقد دعي الى مثل هذه الغاية الاستاذ محمد خلف الله أحمد عميد كلية الآداب في الاسكندرية والدكتور البهي أستاذ الفلسفة في الأزهـر .

لبيت الـدعوة وأنا لم أدر ما هو موضوع المنـاقشة ، فحضرت العشاء ولم يحضر الأستاذان المومأ اليهما .

دار بيني وبين بعض الأساتذة حديث على العشاء ، قلت لأحدهم : ان الأميركان لهم عقلية ميكانيكية ، فينبغي للانسان أن يعرف كيف يخاطبهم ، لا ينبغي له أن يخاطبهم بلغة الشعر ، قال الاستاذ : هـذا صحيح من جهة ، فالانكليز والأميركان يفرقون بين لغة الشعر وبين لغة الأمر الواقع .

أما استاذ الأدب الفرنسي فان حديثه معي كان عن الزواج ، ففي

رأيه ان لكل ثلاثة رجال في أميركة امرأة واحـدة ولذلك فان المرآة الأميركية تغير ثلاثة أزواج ولا غضاضة عليها ، وفي رأيه أن الجامعات أصبحت مصايد للزواج ولمـا سألته : هل أنت متزوج ، ظهرت على وجهه آثار الكآبة بعد المرح ، قال : نعم ، اني خطبت طالبة من طالباتي وتزوجتها وعشت معها زمنا على أحسن حال ، ثم ذهبت في صيف من الأصياف الى الكندا وأرسلت إليّ كتابا تقول فيه : فتش عن زوجة غـيري !

لما رأيت الحزن على وجه هذا الأستاذ أشفقت عليه ، فقطعت هذا الحديث وقد قرب وقت النهوض من السفرة ، وقد رأيت شبابا من طلاب الجامعة يخدمون على الأكل .

قال لي أساتذة الجامعة : لم يحضر حتى هـذه الدقيقة الأستاذ خلف الله والدكتور البهي ، فهل أنت مستعد للانفراد بالمناقشة وحدك ، قلت لهم : إني مستعد .

الاسلام وأطوار الحياة الحديثة

اجتمع في قاعة من قاعات الجامعة فريق من الأساتذة والطلاب والأهلين ولما استقر المقام بهم عرض عليّ أحد الأساتذة هذا السؤال فجأة : هل يسع الاسلام أطوار الحياة الحديثة .

لقد امتحنت العقلية الأميركية بعض الامتحان ، يحب الأميركان أن يدركوا الأمور من أقرب الطرق ، ولذلك يميلون الى ضرب الأمثال التي تقرّب هذه الأمور من أذهانهم وأفهامهم ، فلا يريدون الخوض في النصوص التي تشتت هذه الأذهان والأفهام ، وعلى ما به خاطبتهم على مقادير عقولهم ، لايحضرني كل ماقلته في هذا الاجتماع ، وانما أذكر روح الذي قلته :

ان الأديان تنزل عادة من السماء لتقرير السلام على وجه الأرض، فهي توضّح الصلة بين الله عز وجل وبين الانسان ، ثم توضّح الصلة بين المرء وأخيه ، فأمور الايمان والعقائد لا تثبت بأدلة رياضية كما تثبت قضية هندسية أو معادلة جبرية ، وانما العقائد والايمان مصدرها القلب ، فهي راسخة لا تتلحلح ، أمّا الحياة فانها تنتقل من طور الى طور كل حين ، ففي كل يوم مذهب جديد وزي جديد وما شابه ذلك ، فالحياة لا تستطيع أن تبقى على نمط واحد ، وقد يمكن المسلم أن يتتبع أطوارها وأن يبقى مسلما ، فالاسلام انما هو إسلام على كل حال ، لا يضيق ولا يتسع ، وانما الذين يضيقونه أو يوسعونه هم المسلمون أنفسهم .

كان الخليفة عمر بن الخطاب متشددا كثيراً وكان الخليفة معاوية ابن أبي سفيان متساهلا كثيراً ، الأول لم يتتبع أطوار الحياة الحديثة بعد وفاة النبي ، والثاني خاض في هذه الأطوار الخوض كله ، فقد كان في دمشق يجاري البيزنطيين في مواكبهم الثقيلة والاسلام يمنع عن المشي على الأرض مرحا ، ومع هذا كله مات عمر وهو أمير المؤمنين ومات معاوية وهو أمير المؤمنين وبقي الاسلام اسلاما ، في تشدد الأول وتساهل الثاني .

ثم انتقلت الى ضرب أمثال ثانية فقلت : كانت لغة العرب قبل الاسلام لغة بدو لا تتسع لغير مظاهر الصحراء ، فلما جاء الاسلام أصبحت لغة حضارة تتسع لأمور الدين والسياسة والفلسفة والعلم والاجتماع وغير ذلك ، فلم يجمد المسلمون في تفكيرهم وشعورهم وذوقهم ، وانما تتبعوا أطوار الفكر والشعور والذوق في مجامع مظاهرها ، وبقي الاسلام إسلاما ، وبقي المسلمون مسلمين .

وفي عصرنا هذا انتقلت الأسرة من حال الى حال وانتقل العمران من حال الى حال وانتقلت المرأة من وجه الى وجه ، حتى أصبحت تجاري نساء الغرب في كثير من الأمور ، وانتقلت سياستنا من طور الى طور ، فاقتبسنا أكثر دستورنا أو أقله أو بعضه من دساتير الأمم ، وتتبعنا أطوار الحياة الحديثة ومذاهب الاقتصاد والاجتماع الجديدة ولم يؤثر هذا كله في ديننا ، فقد بقي الاسلام إسلاما ، وبقي المسلمون مسلمين .

فالذين يريدون أن يسع الاسلام كل شيء في الحياة يخرجون به عن طبيعته ، والذين يريدون أن يضيق الاسلام عن كل شيء يظلمونه ، فقد يستطيع المسلم أن يتتبع أطوار الحياة الحديثة على قدر الامكان وأن يبقى مسلما ، فيجب على الأميركان أن يتصلوا بالمسلمين مباشرة ،

وأن يقفوا على آرائهم في مثل هذه الأمور الخطيرة حتى يصلوا الى الحقيقة ، لأن الانقياد الى آراء بعض المتحاملين على الاسلام أو بعض المتعصبين ، سوآء أكانوا من أهل السياسة أم كانوا من الجامعات والصحافة في أميركة وغير أميركة ، يبعّد المسافة بين الأميركان وبين الشرق ، وأميركة الآن تحاول أن تنقل سياستها من المحيط الاطلنطي الى المحيط الهادىء ، لعل البشرية تهدأ بعد هذا الانتقال ، فيستقر السلام في العالم •

وبعد هذا البيان المختصر أخذ الحضور يطرحون الأسئلة عليّ بحسب الطريقة الأميركية ، لأن الأميركان يريدون أن يعلموا كل شيء في أسرع وقت ، فكنت أخلط الجد بالهزل وفقا للعقلية الأميركية حتى تملصت •

في هذه الأثناء دخل الاستاذ محمد خلف الله والدكتور البهي وكانا قد وصلا الى « پالو آلتو » قبل خاتمة الاجتماع وآثار التعب بادية عليهما ، فقلت للاستاذ خلف الله : انتهت مهمتي ، أرحني من عناء السؤال والجواب أراحك الله ، فطرحت العبء عن كتفي وودعت القوم وانصرفت ولم أدر الموضوع الذي اقترح على الاستاذين بعد انصرافي •

مغيب الشمس .

هذا اسم مجلّة في « پالو آلتو » ولم أشر اليها في هذا المقام إلاّ لروعة حديقتها ، ان في بناء إدارتها حديقة تصلح لأن تكون حديقة ملوك ، ومن شهرتها ان السيّاح يجيئونها للفرجة ، وقد رأيت خمسة عشر دانماركيا منبسطين على عشبها الأخضر يصورهم أحد رفقائهم للاحتفاظ بهذه الذكرى •

لقد ألهتني محاسن هذه الحديقة عن السؤال عن المجلة وعدد

المطبوع منها وعن كتّابها ، إلا أني علمت أن هـذه المجلة موضوعها البيت أو الدار ، فهي تعنى بأمور الأكل والطبخ وتدبير المنزل ، وفيها مطبخ للتجربة •

وعلى ذكر المطبخ لا بأس بالاشارة الى أن المطبخ الأميركي على تعبير الغـربيين غير متقن ، وأنا أريد بذلك الطبخ نفسه ، فالأميركان في مطاعمهم العـامة وفي مطاعمهم الخاصة لا يتقنون فن الأكل ، فهم يأكلون للغذاء لا للذة الأكل ، سوآء عليهم أكان الطبخ جيـداً أم لم يكن ، وقد يجوز أن يكون طبخهم في أذواقهم جيدا • تقدم المطاعم لونا واحدا في صحن واحد يشتمل على نوع من أنواع اللحم كلحم الدجاج أو السمك أو العجل أو الغنم ، وعلى نوع من أنواع الخضر ، وهم يبدأون بالأكل في المطاعم على الوجه الآتي : قبل كل شيء الماء المثلوج ، فعلى قدر إقلال الأوروبيين من شرب المـاء على الأكل نجد إكثار الأميركيين من شربه ، ولم أجـد في مطعم من مطاعمهم خموراً على الأكل ، ثم يأتي الحساء الساخن بعد الماء البارد ، ثم يأتي اللون الذي يريده الانسان في صحن واحد ، وبعد ذلك الفاكهة أو شيء من المثلوجات وهو ما يسمونه : Ice Cream وقد سألني أحـد الأميركان قال : كل بلد مشهور بشيء ، فبأي شيء ترى شهرة أميركة ، قلت له : شهرتها بهذا المثلوج : Ice Cream • وبعد الفراغ من الأكل لا بد من القهوة أو الشاي •

هذا هو أكلهم على وجه عام ، ومطاعمهم متشابهة فيأميركة كلها ، واذا كان في بعض المدن الكبيرة مثل نيويورك مطاعم فاخرة فروقها في المكان وزينته وأدوات السفرة فيه ، أما الطبخ فيكاد يكون واحدا ، ان لهم ذوقا غريبـا في الأكل ، فتجد الأكل الـذي يحتاج الى شيء حامض حتى يشتهيه الانسان يضعون فيه شيئا حلوا حتى تكاد تتقزز النفس منه ، وأذكر أني دخلت مطعما عظيما في « نيويورك » في فندق :

Hotel Caryle في شـارع Madison وهـو قريب من المتحف ، والفندق فخم جدا ، فكان الأكل يومئذ ديكا روميا ، وهو أكل عيد الميـلاد ، ويكاد يكون أفخر شيء في أميركة ، إلا أن هـذا الديك مخلوط بشيء حلو تعافه النفس ، فاضطررت الى عزل هذا الحلو عن اللحم حتى آكل اللحم وحده .

لا ريب في أن المطبخ الفرنسي من أحسن المطابخ في العالم ، وهذا شيء مجمع عليه ، وقد رأيت بعيني الزحمة في المطـاعم الفرنسية في أميركة ، مدنها وأريافهـا ، في كل مطعم فرنسي نجد ذوقا في ترتيب المطعم نفسه وفي تزيينه وفي الأكل . الأميركان جماعة عمل لا جماعة اعتناء بالأكل ، همهم أن يملأوا معدهم في أسـرع وقت حتى يعودوا الى عملهم أو حتى يذهبوا الى لهوهم في المساء .

نجد مطاعم شـرقية في مدينتين عظيمتين : نيويورك وواشنطن ، أصحابها من سورية أو لبنان أو فلسطين ، اذا قيس أكل هذه المطاعم الى الأكل الأميركي كان نعمة من النعم ، ولكن اذا قيس الى الطبخ في بلادنا فانه يعوزه بعض الاتقان ، وعلى كل حال فان الشرقي اذا علم بهذه المطاعم زحف اليها على أي وجه كان حتى يعرف ماذا يأكل .

فاذا كانت مجلة : مغيب الشمس تعنى بالأكل فهي مصيبة في ذلك لأن الأكل في أميركة في حاجة ماسة الى مثل هذه العناية .

سان فرنسيسكو SAN FRANCISCO

٣١ تشرين الأول ١٩٥٣

هذه هي المرة الثالثة التي أدخل فيها « سان فرنسيسكو » ومن حسن الاتفاق أن السيدة الفرنسية التي استقبلتني في المرتين الأولى والثانية هي نفسها التي استقبلتني في المرة الثالثة ولم يكن معي غير رفيقي الدكتور ايلي سالم .

هذه السيدة Mrs. Thompson عصبية المزاج ، ثاقبة الفهم ، حلوة الحديث ، لها دار فخمة ذات عدة طيقان ، فيها مصعد ، ويظهر على زوجها انه من الموسرين الأغنياء ، يتكلم قليلا بالفرنسية ، ولكنها فرنسية ضعيفة ، أما السيدة « تمسن » فانانكليزيتها جيدة ، ليست لها الا بنت واحدة تبلغ ست عشرة أو سبع عشرة سنة ، وهي سيئة الحظ بنتها ، فقد كنا على العشاء ، فجاءت البنت ووشوشت أمها ، ثم انصرفت ، فقلت للسيدة « تمسن » : لماذا لا تحضر العشاء معنا ، قالت انها مشغولة ، ثم عادت بعد فترة الى الحديث فقالت : ان بنتي مريضة بنوع من المرض لم يهتد الأطباء الى دوائه .

للسيدة « تمسن » فضل علي عظيم ، فقد أرتني سان فرنسيسكو كلها ، طفت على جميع ضواحيها ، وهذا لا يتيسر لي وحدي ، وهي صاحبة وفاء ، فقد أرسلت الي بطاقة تهنئة بعيد رأس السنة ، وهي صاحبة ثقافة فقد وضحت لي أمورا كثيرة .

تهمني الفرجة قبل كل شيء ، فقد هيأت لي السيدة « تمسن » سيارتها ، فقضينا أربع ساعات في أطراف « سان فرنسيسكو » حتى أحطت بهذه المدينة الفتّانة من مجامع جهاتها ، فقد سرنا أربع ساعات بين تلال أكثرها شجير وبعضها أجرد ، فكنت وأنا على تل أرى مدينة ثانية على تل آخر منحدرة من أعلى التل الى أسفله ، كنا مرة بين تلال ومرة بين أودية ، حينا بين جبال وحينا بين حراج ، فكنا نرى بحيرة وقتا وبحرا وقتا آخر ولست أبالغ اذا قلت ان « سان فرنسيسكو » أحلى مدينة في أميركة .

الا ان الفرجة تنتهي ، فلا بد من الأحاديث والسيدة « تمسن » محدثة من الطراز الأول ، لقد دخلت في كل نوع من الأحاديث ، تكلمت على بعض مشكلات « كاليفورنية » من مشكلات هذه الولاية مشكلة الأرض ووضع ضريبة عليها حتى لا يحتكرها الرجل الذي يشتريها فيتربص بها غلاء الأسعار ، فالانسان لا يكاد يشتري قطعة أرض في أطراف « سان فرنسيسكو » حتى تزيد أسعارها بعد حين على صورة عجيبة .

ومن هذه المشكلات مشكلة الشيوخ الذين يبطىء الموت عليهم ، فالحكومة مضطرة الى سد عوزهم حتى الموت ، فهي لا تقطع الرواتب عنهم ، ولذلك أوعزت الى أصحاب المعامل باستخدامهم دون أن يتقاعدوهم عن العمل ، فهم أشد انتباها من الشباب .

ومن هذه المشكلات مشكلة الشباب الذين ليس لهم عمل ، فالحكومة يجب عليها أن تهتم بهم وأن تجد لهم مرتزقا .

ثم جاء ذكر اليهود ، فقالت السيدة « تمسن » ان بعض الفنادق والأندية لا تستقبل اليهود وبعض الجامعات تحدّد عددهم فيها ، وهذه السيدة شديدة الكراهة لليهود ، واقفة على طبائعهم التي أورثتهم

اياها الماضي ، وعلى أمزجتهم وبواطن عقولهم ونفوسهم ، فهي تعلم مقدار ميلهم الى الشكوى والتوجع وما شابه هذه المظاهر •

ثم جاء ذكر المرأة في القديم والحديث فقالت : ان الرجل الأميركي يقوم بمعاش المرأة في الماضي ، ثم دخلت الحياة في أطوارها الحديثة ، ولا بد للمرأة من مساعدة زوجها ، فهي تعمل مثله ولكنها اذا ولدت ولدين اضطرت الى البقاء في الدار والى الشغل في الدار بسبب أزمة الخدم ، فتأتي حينئذ بأمها لتعاونها ، فتكثر النفقات على رب الدار فتقع المشكلات •

قالت السيدة « تمسن » ان عشرين في المائة من النساء حكيمات ومحاميات وهن شهيرات ، فاذا تزوجن اضطررن بعد الحبل الى الانقطاع عن العمل وفي هذا بأس •

ثم جاءت مسئلة الخدم ، فقالت ان قلة الخدم في أميركة تحمل على الاقلال من الدعوات الخاصة ، وبالاقلال من الدعوات تقل الأجتماعات الخاصة ، فيفقد الحديث رونقه ولذته ، لقد اعتاضوا عن الدعوات الخاصة الدعوات العامة التي يسمونها : Coacktails فقالت ان أشباه هذه الدعوات لا تقوي الأحاديث ، فالرجل يجلس الى رفيقه دقيقتين ثم ينتقل الى رفيق آخر فيقضي معه دقيقتين ، فيفقد الحديث قيمته ، ولذلك ليس للأميركان أفكار ، انهم يستغنون عن التفكير ، فالجرائد كثيرة والمجلات كثيرة والاذاعات والتلفيزيونات كثيرة ، وهذه كلها تغني الرجل في أميركة عن التفكير •

انظر الى هذه النتائج ، فالحياة في أميركة أصبحت آلية • قالت السيدة « تمسن » دعيت الى عشاء على مدرعة فرنسية أرست في « سان فرنسيسكو » فقضيت على السفرة أربع ساعات ، فكنا ندخل في حديث فلا نقتضبه اقتضابا ، وانما كنا لا نخرج منه حتى نأتي على موضوعه ، فالفكر على هذا الشكل يتسلسل تسلسلا منطقيا •

مصرع العـربية .

لا بدّ من زيارة أسرة عربية في « سانفرنسيسكو » أخذ صاحبي الدكتور ايلي سالم دفتر الهـاتف وفتش عن أسماء أسرة « مالك » وهي أسرة أصلها من قريته : بطـرام الكورة ، وله صلة قرابة بهـا وبالدكتور شارل مالك ، فان أصله من بطرام أيضا . اهتدى الى هذه الأسرة وهي مؤلفة من أم عجوز ولها ولدان : أحدهما متزوج والثاني أعزب اسمه جورج ولها ثلاث بنات ، اثنتان متزوجتان وواحدة طلقت زوجهـا .

دعتنا هذه الأسرة الى العشاء في دارها مرة ودعانا « جورج » الى العشاء في مطعم علىالبحر واعتنت بنا الاعتناء كله وأخذتالأم العجوز تسأل الدكتور ايلي عنأقاربها في بطرام وتحن الى وطنها الأولوتلومه على خطبته فتاة من أميركة وزهده في بنات قريته .

كان ربّ هـذه الأسرة يتكلم بالعـربية حتى توفاه الله ، وبقيت امرأته تتكلم بالعـربية ولكنها عربية غريبة الشكل ، انهـا لم تتقن الانكليزية الاتقان كله ، ولم تنس لغتهـا النسيان كله ، فاذا تكلمت خلطت العربية بالانكليزية ، واشتقت من الكلمات الانكليزية كلمات تكاد تشبه لغة مالطة فكلمة : ساق معناها في الانكليزية : To drive فالسيدة لا تعرف السوق بالعربية ولهذا تقول فيحديثها : درّفالكار أي ساق السيارة ، فالكار معناها السيارة وكذلك كلمة أنهى معناها في الانكليزية : To Finich فالسيدة في أثناء كلامها تقول : لما فنّش ابني السكول ، أي لما أنهى التحصيل والسكول معناها : المدرسة ، أما بناتها اللواتي انفصلن عنهـا وتزوجن فهن لا يعرفن كلمة عربية ، لأن أزواجهن أميركان ، وكذلك أبناؤهن فهم لا ينطقون بالعربية .

وقد حضرت صلاة في كنيسة في « سان فرنسيسكو » والأصح

أني حضرت حفلة اكليل ، فكانت الصلوات نصفها بالعربية الضعيفة ونصفها بالانكليزية ، فالدين على قوته لم يستطع أن يقف في وجه الانكليزية ، ولا شك في أن هذه اللغة ستحل على الأيام محل العربية حتى في الصلوات ! •

لما ظهر الاسلام وحمل الى الدنيا كتابه ولغته ثبَّت هذه اللغة في أكثر الآفاق التي انبسط عليها ، وصارع اللغات التي مرّ عليها أو التي خلّفها الماضي ، حتى غلب على معظمها ، كانت لغته لغة دين ولغة دولة ، فلم يجد الداخلون في دين الله مندوحة لهم عن نسيان لغتهم وحفظ اللغة الجديدة التي جاءتهم ، ولقد جرى مثل هذا الأمر في أميركة ، فقد فتح الأميركان هذه البلاد العظيمة التي لا يكاد الانسان يتصور عظمة جبالها وسهولها وشلالاتها وبحيراتها وغاباتها وصحراواتها ، ثم جاءتهم عناصر شتّى من أكثر الأمم ، جاءتهم جماعات من الألمان والطليان والسويديين والدانمركيين والفرنسيين واليونانيين والصينيين واليابانيين والعرب والأرمن وغيرهم ، جاءتهم هذه العناصر الجديدة بلغاتهم ولكن لم يمرّ عليها بطن أو بطنان حتى نسيت لغاتها وتعلمت الانكليزية ، فالناس مقيدون بمصالحهم ، فكما أن الاسلام في القديم قضى على كثير من اللغات لدخول أصحابها في دين جديد ودولة جديدة فكذلك الانكليزية في أميركة قضت على غيرها من اللغات لأن أصحاب هذه اللغات دخلوا بلادا جديدة فوجدوا فيها رزقا واسعا وعيشة راضية ، فنسوا لغاتهم وتعلموا لغة الذين فتحوا لهم باب الرزق ومهدوا لهم سبيل هذه المعيشة •

حديث جورج عن الزواج .

أولعت بصاحبنا جورج الولع كله ، أولعت بطرز حديثه ، فانه يخلط العربية بالانكليزية خلطا عجيبا ، ولا بد في كل جملة نصفها

انكليزي ونصفها عربي من سب الدين على لهجة لبنانية قوية ، أولعت بشكله ، انه مثل البرميل من حيث رشـاقة القوام ، أما سحنته فلا أعرف أغرب منها ، اذا قلت انه مخيف بوجهه فلا أبالغ في قولي ، وما علي بعد هذه الصفة أن لا أدخل في تفاصيل هـذا الوجه ، تفاصيل العين والأنف والفم واللون ، واني لأخشى اذا دخلت في هذه التفاصيل أن أدخل الخوف على قلب القـارىء الكريم ، فحسبي أن أقول في أخينا جورج : انه مخيف ، مخيف بشكله وأكله وشربه . ولكن هذه المخاوف كلها تنقلب انسا اذا حـدثنا جورج عن مشكلات زواجه ، فهو خفيف الروح ، قلت له : هـل أنت متزوج يا جورج ، قال : لا ، قلت : لماذا ، ولا بد قبل أن يخوض في الأسباب من سب الدين مرتين أو ثلاث مرات ، قال : تريد أمي أن أتزوج بنتا من أصـل عربي في « سان فرنسيسكو » وهي لا تريد الأميركان ، قلت : وما يمنعك عن ذلك ، قال : لاشيء، ولكن البنات العربيات في « سان فرنسيسكو » غايتهن النهب والسلب ، فالفتاة تريد كذا ... وتريد كذا ... واذا اشتريت لها ما تريد ذهبت ثروتي كلهـا ، فأنا أستطيع أن أهتدي في كل يوم الى فتاة أميركية أتزوجها ، ولكن أمي تريد فتاة عربية ، هذا حديث « جورج » عن الزواج ولكني لا أستطيع أن أصور حـركاته وهو يحدث أو أعيد حلاوة ألفاظه التي يستعملها ، ولذة هذا الحديث في صورة جورج وفي ألفاظه ، وقد اغتنم هذه الفرصة فسألني السؤال نفسه : هل أنت متزوج ، فلم أجد بدا من ذكر الحقيقة ، قلت له : اني غلطت في حياتي غلطة فخطبت ، ثم تبين لي أن الفتاة وأهلها غايتهم في هـذا الزواج المـال وحده ، فصحوت وملصت ، فكأني ألقيت على جورج بهذا الحديث ماء باردا ، فضحك حتى كاد يستلقي على الأرض، ثم حلف عليَّ أن أحـدث أمه بهذا الحديث حتى تؤمن بطمع بنـات العرب وبميلهن الى النهب والسلب في الزواج .

الاعتماد على النفس .

نعود الى السيدة العجوز ، سيدة دار « مالك » قلت ان لها ثلاث بنات ، احداهن « فرنسيس » وعمرها احدى وثلاثون سنة ، دعتنا الى شرب الشاي في دارها وهي متزوجة وزوجها في « آلاسكا » لهذه السيدة ولد عمره ثلاث عشرة سنة ، اسمه : ادوار ، لقد عرفت في حياتي أطفالا من عمره رزقهم الله كثيرا من قوة العقل ، ولكني لم أعرف أقوى عقلا من « ادوار » في مثل هذه السن ، لقد أنس بي كثيرا ولما علم أني عميد كلية الآداب أخذ يسألني عن عدد الطلاب والطالبات وعن التدريس ومواده ، ولما وجدت انه أنس بي هذا الأنس أحببت أن أزيد في ايناسه فأخذت أسأله عن المدرسة التي يدرس فيها وعن نوع العمل الذي يميل اليه ، فتركني دقيقة وخرج الى غرفته الخاصة ثم جاءني ببرامج زراعية ، قلت له : ما هذا ، قال : كتبت الى وزارة الزراعة أن ترسل الي برامج زراعية للاطلاع عليها ، قلت له : وما حاجتك اليها ، قال : اني أميل الى الزراعة وقد عزمت على أن أكون مزارعا ، فلا بد لي من الاستعداد لهذا النوع من العمل من اليوم .

هنيئا للأهل الذين يرزقهم الله أمثال هؤلاء الأولاد ، واذا كان البنون زينة الحياة الدنيا فان ادوار زينة أهله في قوة عقله وشدة رزانته ، ولما ودعته لم يسعه الا معانقتي وتقبيلي . سألت الدكتور ايلي سالم عن السبب في هذا الاستئناس الزائد قال : لا غرابة في ذلك فان الأولاد الأميركان لا يجدون من أهلهم مثل هذه البشاشة التي وجدها ادوار منك ولهذا استأنس بك كثيرا .

أما أم ادوار فانها لما رأت تعلق ابنها بي أثّر فيها هذا المنظر ، فلما دنوت من توديعها قالت : قبّلني ، وهذه عادة شائعة في بعض الأسر التي تشتد الالفة بينها وبين زوّارها .

خرجت من « سان فرنسيسكو » وآخر أثر من آثارها هذه القبل الصافية .

مصارعة العجول .

اتفق أنه وقع في هذه الأيام عيد البقر في « كاليفورنية » فقد دخلت الفندق الذي نزلته في « سان فرنسيسكو » فوجدت في احدى زوايا البهو عجلا جاء به فلاح من الفلاحين لعرضه ، وقد اعتنى به الاعتناء كله ، فكان يحسن القيام على علفه وشربه ، وهو عجل سمين، قد ركب شحمه بعضه بعضا بحيث كاد العجل يتفزر ، فسألت عن هذا الضيف الكريم ، فقالوا لي : انا نحن الآن في أسبوع عيد البقر ، وفي ليلة من الليالي اقترح عليّ رفيقي الدكتور ايلي سالم أن نقضي السهرة في قصر البقر ، وهو قصر بعيد عن « سان فرنسيسكو » فركبنا السيارة العامة ووصلنا بعد ساعة أو أقل .

ما هذا القصر ، انه ملعب من الملاعب الكبيرة يسع ثلاثين أو أربعين ألف رجل وهو على شكل مدرج ، يقطع الناس بطاقاتهم ويجلسون في مجالسهم ، فقطعنا بطاقاتنا ودخلنا وقد غص المكان بالمتفرجين رجالا ونساء وأطفالا .

الفرجة نوعان : سباق الخيل ومصارعة العجول ، أمّا سباق الخيل فلم أجد فيه شيئا طريفا ، فقد ألفنا هذا النوع من الرياضة في بلادنا وشهدنا كثيرا قفز الخيل على جسور من خشب ، وقد كان بين الفرسان الذين يقفزون بخيلهم فتيات واتفق أن أحد الفرسان عثر به حصانه ، ولكنه لم يصب بأذى .

إلا أن الفرجة الطريفة انما هي مصارعة العجول ، وأظن أن هذه المصارعة تختلف عن مصارعة الثيران في اسبانية أو في أميركة الجنوبية

فليس فيها شيء من سفك الدم وانما هذا الضرب من الرياضة يستلزم بعض الخفة والسرعة ، والمصارعة على شكلين ، في الشكل الأول ينطلق عجل من محل معين فيلحقه فارس على حصانه وبيده حبل ، فيلقي الحبل على رقبة العجل حتى يمنعه عن الركض ، وعلى قدر إسراع الفارس في منع العجل يكون نجاحه ، ففي بعض الأوقات تحتمل هذه الرياضة مقدارا من الثواني وفي بعض الأحيان يجمح العجل فيتعصّى على الفارس ويتفلت منه ، وفي الشكل الثاني ينطلق العجل فيتبعه الفارس حتى يصل اليه ، فاذا وصل نزل عن حصانه وصارعه حتى يصرعه ويلقيه على الأرض ، وقد يخفق الفارس في بعض الأوقات ، فلا يبلغ العجل ، أو اذا بلغه فلا يقدر عليه ، وفي آخر الفرجة تقرأ أسماء الناجحين وتوزع الجوائز عليهم وهي مبلغ من الدولارات لا بأس به .

هذا النوع من الرياضة طريف بالنسبة اليّ فلم أشعر فيه بشيء من الملل والضجر ، فقد يقضي الانسان في قصر البقر ساعتين أو أكثر من دون أن يشعر بحاجة الى الخروج من القصر .

لم يلفت نظري قصر البقر المنيف بقدر مالفت هذا النظر الازدحام عليه ، فالأميركي مخنوق من كثرة العمل ، فهو يفتش في كل وقت عن متنفس يتنفس فيه ، ولكن ميله في مثل هذه المتنفسات منصرف الى الرياضة ولا ريب في أن مصارعة العجول نوع من هذه الرياضة وهو نوع شديد ، ولذلك نجد الأميركان يقبلون عليه إقبالا شديدا .

بـركلي BERCKLY

٣ تشرين الثاني ١٩٥٣

على نصف ساعة من « سان فرنسيسكو » أو أكثر تقع قرية اسمها : « بركلي » فيها جامعة كان عليَّ أن أزورها . فقد غادرت « سان فرنسيسكو » في ٢ تشرين الثاني فوصلت الى « بركلي » بعد الظهر وجلت قليلا في هذه الضاحية ، وهي هادئة وفيها شارع كبير على نحو مدن أميركة ، ففي كل مدينة شارع كبير وهو الشارع الرئيس ، تحيط بهذه الضاحية جبال مخضرة وعلى هذه الجبال بيوت أو قصور ، انك في ولاية « كاليفورنية » بيئة الغابات والحدائق والسهول .

استفقت في الصباح واذا الضباب يغطي القرية كلها ويغطي جبالها ، فيشعر الانسان في مثل هذه الحال بهدوء ولكنه هدوء الكآبة ، فلا شمس مشرقة ، ولا جبال ضاحكة ، ولا حدائق باسمة ، استفقت في الصباح وسلكت الطريق الى الجامعة ، فلما وصلت اليها بعد دقائق معدودة أخذت عيني غاباتها وحراجها وتلالها وأوديتها ، في كل جامعة خصائص ، وجامعة « بركلي » فيها حدائق منسقة يتخللها شجر ومروج خضر ، وفيها زيادة على هذا كله غابات وحراج وأودية ، فترى الجامعة غارقة في هذا كله ، تحيط بها الجبال الشجيرة ، فما أشد التناسب بين هدوء الطبيعة وبين هدوء جامعة « بركلي » في مثل

هذا النهار ، ما أشد التناسب بين كآبة الطبيعة وبين كآبة هذه الغابات والحراج ، هذه خصائص جامعة « بركلي » انك تنتقل فيها من وهود الى أنجاد ، ومن أنجاد الى وهود •

جامعة « بركلي » فرع من جامعة « كاليفورنية » وجامعة « كاليفورنية » عبارة عن تسعة فروع موزعة في مدن مختلفة ، وفي كل فرع كلية خاصة أو أكثر من كلية وهذه الجامعة من أكبر جامعات أميركة ، قيل لي انها الجامعة الثانية بعد جامعة « نيويورك » ان جامعة « كاليفورنية » من جامعات الحكومة وفرعها جامعة « بركلي » فيه ثلاثة عشر ألف طالب وخمسمائة طالب ، أمَّا أساتذتها فقد يزيدون على الألف • فيها مركز لدراسة لغات الشرق ودياناته وحضاراته ، كاللغات السامية ، العربية والعبرية وغيرهما ، وكاللغات المصرية والقبطية والفارسية والتركية ، وكلغات بابل وغير ذلك •

مباني هذه الجامعة حديثة كلها ، لا خصائص لها ، ما خلا بناءً أو أكثر بني على طرز يجمع بين الفن الاسباني والفن الأميركي الحديث، وهذا التناقض يلفت النظر في بعض الأحيان •

لم أجد في أبنيتها بناء يحبس العين بدقة فنه أو روعته ، كما وجدت في أبنية ثانية ولكني وجدت ما أجده في أكثر الجامعات ، فان مكتبتها مثلا أنشئت ذكرى لرجل اسمه : Franklnin Doe ، معنى هذا أن الهبة لها الفضل الأعظم على جامعات أميركة ، فأكثر أبنيتها من مال الأغنياء ولولا ذلك لصعب إنشاء الجامعات •

سألت أحد الأساتذة هذا السؤال : لماذا يدرس الطلاب لغات الشرق كالعربية وغيرها ، فقال : انهم يدرسونها على أمل أن تقلدهم الحكومة مناصب سياسية في بلاد هذه اللغات أو على أمل أن يذهبوا الى بلاد النفط وهم يعرفون لغة البلاد •

أبرز شيء في جامعات أميركة الملاعب ، فالرياضة هي روح الجامعات في أميركة ، وفي جامعة « بركلي » ملعب يسع خمسة وثمانين ألف مقعد ، وفيها دار للطلاب الأجانب ، ومعنى الدار أن الأجانب يجدون فيها ناديا لهم وغرف قرآءة وغرف نوم وغير ذلك ، ولكن هذه الدار تختلف عن غيرها من حيث أن الطلاب الأميركان يستطيعون اذا شاؤا أن يساكنوا الطلاب الأجانب ، وعلى هذا الوجه تشتد الصلة بينهم ويقوى التعارف ويقرب التبادل بالأفكار ، أمّا دور الطلاب في غير هذه الجامعة فانها مقصورة على الأجانب وفي ذلك شيء من العزلة •

قيل إن جامعة « بركلي » مشهورة بالتسامح ، وقد طلب الى الأساتذة أن يتعهدوا أن لا تكون لهم أفكار شيوعية فأبوا ، لأن مثل هذا التعهد يناقض حرية الفكر ، قال لي أحد الطلاب : لماذا لا يأتون بأستاذ شهير لتدريس الشيوعية ومبادئها ، فلا خوف من تدريس الشيوعية ما دامت الديمقراطية هي الغالبة وسألني رأيي في ذلك ، فقلت له : اذا درستم الشيوعية فقد تخشى الحكومة أن يقوّي هذا التدريس مذاهبها في البلاد •

اجتمعت إلى رئيس قسم الدراسات الشرقية ، فوجدت سحنة تدل على أنّ صاحبها غير أميركي ، وما زلت أتلطف في السؤال حتى علمت أنه يدرس في جامعة « بركلي » من ثماني سنين وكان قبل ذلك أستاذاً في الجامعة العبرية في القدس ، فعلمت أنه يهودي واسمه : Fischel وهو يعرف دمشق ويعرف الأستاذ العلاّمة المرحوم كرد علي ، سألته عن المادة التي يدرّسها ، فقال : انه يدرّس حضارة الاسلام وقد وصل الى آخر بني العباس ، حرصت على أن أحضر درسه فوجدت أنه كان يتملص من ذلك ، لم يدعني الى درسه وانما دعاني الى الغداء في مطعم

الأساتذة في الجامعة ، وقد جرى على الأكل حديث الجاحظ ، فقلت له : ان الجاحظ خبيث ، لقد تكلم على اليهود والنصارى في بعض كتبه ، فقال لي : انه ضرب النصارى ، فقلت : لم يضرب النصارى وانما ضرب اليهود ، فقد قال في اليهود : انهم حسدوا المسلمين على نعمة الدين والاجتماع والتواصل ، وشبهوا على العوام ومالؤا الأعداء ، أمّا النصارى فقد كانوا ملوكا قبل الاسلام فجاء الاسلام وكرّمهم وعظّمهم ، وكان لهم امتياز في مراكبهم وملابسهم وصناعاتهم ، وكانوا كتّاب السلاطين وفرّاش الملوك وأطباء الأشراف ، أمّا اليهودي فكان صبّاغاً أو دبّاغاً أو حجّاماً أو قصّابا أو شعّابا أو خمّارا ... فلم أر على وجهه أثر الارتياح بعد هذا الحديث ، ثم أخرج ساعته فنظر فيها وودع وهرول .

زرت أستاذ اللغة الفرنسية وهو أميركي الأصل ، درس في السوربون والأميركي يسألك قبل كل شيء هذا السؤال : كيف رأيت أميركة ، وما هو الفرق بين شرقها وغربها ، ولما أنهيت إليه نتائج شعوري في هذا المعنى قال : انها صحيحة ونتائج الشعور الأولى هي الصحيحة ، ثم تكلمنا على العقلية الأميركية وعلى العمل في أميركة وعلى المرأة وغير ذلك ...

انه يوم كآبة ، وكأن برج الساعة القائم في ساحة من ساحات الجامعة أحسّ بهذه الكآبة ، فأخذت أجراسه في الظهر تدق الدقات المناسبة لهدوء هذا النهار وكآبته ، هدوء الغابات والحراج ، انها موسيقى هادئة خاشعة ، تأخذ بمجامع القلب ، فكل شيء في هذا النهار كئيب ، حتى الطلاب والطالبات ، فانك لا تجد المرح على وجوههم كما تجده على وجوه غيرهم في الجامعات ، فقد جلس كل طالب الى

طالبة تحت ظل شجرة من الشجر وأخـذا يتأملان وينظران في الورق الأصفر المتناثر على الأرض ويمعنان في النظر والتأمل ، واذا لم يكن الى جنب الطالبة طالب أخرجت السجارة من علبتها وشعلتها وبدّدت دخانهـا في الفضاء ، فاجتمع ضباب الطبيعة الكئيب وورق الشجـر الأصفر ودخان السجارة الملتهبة .

أيّ حزن أعمق من هذا الحزن !

سياتل SEATTLE

٦ تشرين الثاني ١٩٥٣

في هذا الصباح شعرت بأني على أبواب الشتاء ، فقد نهضت من النوم وسلكت الطريق الى جامعة « سياتل » واذا الجوّ مثقل بالغيوم والضباب ، اني في ولاية كلها غابات وحراج ، على حدود الكندا ، فما كنت أرى في طريقي الى « سياتل » من « بركلي » إلاّ الغابات والأنهار ، يشحنون الخشب على هذه الأنهار ، فهم يقطعون الشجر ويلقونه في الماء ويحبسونه في دائرة معينة حتى لا يجرفه الماء ، فاذا تمّ القطع أطلقوا الخشب يجري على صفحات الماء نحو الجهة التي يريدونها ، واذا فتنني شيء على الطريق فقد فتنتني هذه الدور البسيطة المبثوثة في مزارع غير كبيرة ، كلّ فلاح وداره في مزرعته وحطبه على بابه وبقره بمرأى منه ، والشتاء قد هجم ، ما له ولضوضاء المدن ، ما له ولمشكلاتها ، يشتغل في النهار هو وزوجته وأولاده ، ويضمّهم البيت في المساء حول مدفأة ، يتساقطون أحاديث عملهم في النهار ويتمتعون من حياة الأسرة التي تكاد مفقودة في المدن ، هذه لذة المزارع ، كل فلاح يشعر بأنه مالك أرض وبأنه ملك صغير في أرضه وهذا ما يحبّب الأرض اليه ويجعله يهون الموت عليه في سبيلها ، أمّا المزارع الكبيرة التي يملكها المزارعون ويشتغل الفلاحون عندهم بالأجرة فان هؤلاء الفلاحين عيونهم فيها كل وقت ، وقد سألني أحد

الصحفيين : ما الذي استهواني في أميركة ، قلت له : تمنيت أن أكون فيهـا طالب جامعة أو صاحب مزرعة ، فقال : ان المـزارع لا تجلب لأصحابها من الخيرات على قدر ما تجلبه المعامل للنـاس ، ولذلك فان خمسة وعشرين رجلا في المائة هم مزارعون في أميركة ، فقلت له : مالي وللربح ، غايتي في الحياة التمتع من مشاهد الطبيعة !

مالي ولهذه الاستطرادات ، أعود الى « سياتل » هذه المدينة التي تحصِّنها جبال شجيرة قد بنيت عليها دور وقصور مطلة على بحيرتين متصلتين بالمحيط الهادىء ، أعود الى هذه المدينة الساكنة على الرغم من شوارعهـا العظيمة ، فهي تشبه « سـان فرنسيسكو » من أكثر الوجوه ، انهـا بنيت على التلال ولذلك تجد الشوارع تنخفض مرَّة وتعلو مـرَّة ، تقف في بعضها فترى شـارعاً تحت أقدامك متصـلا بالبحيرة ، وترى شـارعاً فوق رأسك ، فهي فريدة في تركيبها ، كنت أظن أن « سـان فرنسيسكو » لا شبيه لهـا واذا بمدينة « سياتل » تشبهها ، ولكنها لاتجاريها فيالعظمة ، لا فيكبرها ولا في عدد سكانها ، إلاّ أنها صورتها الصغيرة ، لا أقل ولا أكثر .

واذا التفت النظر فيها الى شيء فقد التفت الى هذا الأثر القائم في أحد شوارعها وهو عبارة عن جـدار من مرمر مصقول ، كتبت على وجهه أسماء الجنود الذين قتلوا في الحربالماضية ، لا تماثيل للقواد ، ولكن التماثيل للذين بفضلهم اشتهر القواد ، وهم الجند .

ولكن أين الجامعة ، لقد وصلت اليها بعد سير قليل ، إنها متصلة بالمدينة ، غير منفصلة عنهـا مثل كثير من الجامعات ، دخلتها والجوُّ أسود قاتم ، والضباب يملأ السماء والبرد شديد ، والورق يتناثر على الأرض ، فشعرت فيهذا الدخول بشيء لم أشعر به في كل الجامعات ، شعرت بهيبة الجامعة وبهيبة العلم ، شعرت بأني طالب بين الطلاب ، لم

أر تلميذة تدخن ولا تلميذاً يخاصر ، فالطلاب أكثرهم يسيرون وعلى وجوههم أثر التحصيل والجد ، فلا جمال يفتن ، ولا محاسن تشغل ، وليس في الجامعة غابات وحراج وحدائق كبيرة ، ولكنّ فيها على الأرض بسطا من العشب الأخضر يتخللها الشجر من مكان الى مكان.

ألقيت النظر على بعض الصفوف ، فاذا الطلاب كلهم مصغون الى الأستاذ ، يكتبون عنه ، فلم أر الاهمال الذي تعودت أن أراه ، ولا رأيت الملل .

قيل لي ان في هذه الجامعة ثلاثة عشر ألف طالب وخمسمائة طالب، وهي مشهورة بأمور كثيرة ، منها دراسة الغابات ودراسة لغات الشرق الأقصى وتاريخه وأدبه ، ومشهورة بالتمثيل ، فيها ثلاثة مسارح ، مسرحان في داخلها ومسرح آخر في خارجها وهو باخرة على البحيرة ، يتعلم فيها الطلاب ، وهذا لم أره في جامعة ثانية .

الجامعة للحكومة وفيها متحف يشتمل على آثار الهنود الحمر في ولاية « واشنطن » في القديم .

أمّا طرز المباني فبعضها نمطه إنكليزي محض ، وبعضها يجمع بين النمط الانكليزي والنمط الهندي .

لقد ملأت هذه الجامعة عيني هيبةً وهزّت شعوري ، انها تدرِّس الغابات وهذا أمر طبيعي ، لأن ولاية « واشنطن » كلها غابات ، وانها تدرِّس أمور الشرق الأقصى وهذا طبيعي لأن الشرق الأقصى قبالتها من وراء المحيط الهادىء ، وهكذا نجد أن الجامعات تعنى بالأمور التي تحيط بها ، فهي قريبة من الحياة ، متصلة بها .

لم أخرج من هذه الجامعة إلاّ بعد أن اجتمعت الى أستاذ اسمه : Shelmi dine وهو يدرِّس التاريخ ، أي تاريخ جزء من الشرق الأدنى ، وقد سألني عن زميلي في كلية الآداب الدكتور جورج حداد

وأعطاني نسخة كتاب هـذا الزميل الفاضل عن سورية ولبنـان ، ثم أعطاني برنامج تدريسه نفسه ، وهو برنامج حافل بأمور العرب ، مثل سيادتهم واستقلالهم ووحدتهم وغير ذلك من الموضوعات التي تهمنا ، حرّف اسمه فقال : اسمي شيخ المدينة ! زار مدنا كثيرة في الشرق من جملتها دمشق الشام ، فقد زارها سنة ١٩٣٠ ولكن الفرنسيين منعوه عن الاتصال بأحد من الرجالات ، ثم هنّأني بالتخلص منهم .

شاء هذا الأستاذ أن يكون حديثنا عن شيء من السياسة ، سألني رأيي في قضية فلسطين ، قال : اني عدو اليهود ، واني أسمع تناقضات كثيرة في مسئلة فلسطين ، فلا أعرف رأي العـرب على حقيقة وجهه ، نحن في أميركة نسمع أقوال اليهود وحدهم وهذا غير كاف ، قلت له : ان قضية فلسطين بسيطة جداً ، ومعقدة جداً ، انهـا بسيطة ، اغتصب اليهود فلسطين اغتصاباً ، فحلّ هذه القضية متوقف على إعادة الحق الى أهله ، انها معقّدة ، احتلّ اليهود فلسطين فيصعب عليهم التخلي عن بلاد اغتصبوها فاحتلّوها ، العرب متشدّدون في المطـالبة بحقهم واليهود متشدّدون في المطالبة بباطلهم .

خضنا كثيرا في أمور اليهود ، انهم أصحـاب تأثير في أمـيركة ، يؤثرون بجرائدهم ومجـلاتهم واذاعاتهم ودور سينماهم ومصـارفهم ومعاملهم ، انهم يفهمون العقلية الأميركية فيخاطبون الأمـيركان على مقادير عقولهم ، يصورون لهم الباطل فيصورة الحقفيقنعونهم بذلك، أمّا العرب فكأنهم لا أثر لهم في أميركة ، فينبغي لهم أن يجيئوا اليهـا وينتشروا في آفاقها ، ويتصلوا بصحفها وأنديتها وأساتذتها ورجـال سياستها ، وأن يشرحوا للأميركان قضية فلسطين بأسـلوب يرضـاه الأميركي ولا يستنكره ، الأميركي صاحب عقلية محسوسة لا مجردة ، فهو لا يؤمن إلاّ بالأمر الواقع ، بالأمر الذي تراه عينه وتلمسه يده ،

أمّا اللغة الشعرية فلا محل لها في المخاطبات العامة ، فالعرب مقصّرون في كل هذا المعنى .

قال هذا الأستاذ الفاضل : إنّ في أميركة كثيراً من أعداء اليهود وقد أخذت القلوب تتحول عنهم قليلا ، ولكن تأثيرهم لا يزال قوياً ، فمن يومين صرّح الرئيس ايزنهور بأنه سيقطع الاعانات عن اسرائيل ، ولكنه ما لبث أن نقض تصريحه بعد يومين لضغط اليهود الشديد ، فالمسئلة مسئلة زمن ، وأرجو أن لا تضيق صدور العرب عن الأميركان الذين يحبّون الصراحة وحرية القول ، فقلت له : ان العرب ضعفت ثقتهم بالأميركان وضعفت ثقتهم بهيئة الأمم المتحدة وبمجلس الأمن ، تحاول أميركة في هذه الأيام أن تحوّل سياستها عن المحيط الأطلنطي الى المحيط الهادىء لتقرب من الشرق كله على اختلاف أقسامه ، ولتكون أقوى صلة به ، فجدير بها أن تجيء بالبراهين على إنصافها وأن تعمل بوصية جورج واشنطن الذي كان ينصح لأميركة أن لا تفضل في سياستها الخارجية دولة على دولة .

هذا بوجه التقريب ما دار من الأحاديث بيني وبين « شيخ المدينة » ولما ودعته وحاولت الانصراف أعطاني كتاباً عن الصليبيين للاطلاع عليه ، صاحبه عزيز عطية ، ففتحت الكتاب ووقع نظري على قصيدة فرنسية لشاعر فرنسي من أيام الصليبيين اسمه : Eustache Deschamps وفيها بيتان يحث فيهما الشاعر قومه على جمع الكلمة وتأليف القلوب لانقاذ الأرض المقدسة ، فقلت للاستاذ : اقرأ هذين البيتين ، اقرآهما في الليل والنهار ، لأنكم معاشر النصارى أولى بانقاذ الأرض المقدسة .

نزهة .

تعرفت الى أستاذ آخر في هذه الجامعة وهو روسي من الروس البيض اسمه : Ivar Spector ، وقد أهدى إليّ كتابه : العصر

الذهبي في الأدب الروسي .

دعاني هذا الأستاذ الكريم الى غداء في مطعم قريب من الجامعة ، ثم دعاني الى نزهة في ضواحي « سياتل » جاءت زوجته بالسيارة وهي من الكندا وانطلقت بنا نحو ضاحية مرتفعة ، لقد اشترى الأستاذ « سبكتور » قطعة أرض في هذه الضاحية تطل على البحيرة ، وهو مفتون بها ، مفتون بموقعها وبجودة الهواء فيها ، ففي رأيه أن « الروماتزم » يشفى في دقيقة في هذه البقعة ! لا شك في أن الضاحية موقعها من أحسن المواقع ، أمّا أن يشفى « الروماتزم » في دقيقة ، فهذا موضوع آخر ، فقد خرجت من « بركلي » المبللة برطوبة الغيم ، ثم دخلت « سياتل » التي لا تقل عنها رطوبة ، فتحرك « الروماتزم » في جزء من بدني ، فلم تشفه ضاحية الأستاذ « سبكتور » . قلت للاستاذ : لماذا لا تبني دارك على هذه الأرض من اليوم ، قال : اني عملت في الجامعة كل هذه السنين حتى استطعت أن أشتري الأرض التي تراها ، فمن أين لي تكاليف البناء ، الحقيقة ان رواتب أساتذة الجامعات قليلة بالنسبة الى تكاليف الحياة في أميركة ، وقد سمعت شكاوى كثير من الأساتذة في هذا المعنى ، فقد سألت الأستاذ « شيخ المدينة » أن يزور دمشق ، فقال : من أين لي نفقات السفر ، ثم شكا إليّ رئيس جامعة قلة راتبه وغلاء الأسعار ، وأنا أعرف فتاة تعلم الأدب الانكليزي في احدى الجامعات وراتبها أقل من مائة دولار في الشهر . أمّا الأساتذة الذين لا بأس برواتبهم في الجامعات فهم أساتذة قسم من العلوم ، لأن هذه الطبقة تستطيع أن تجد لها أعمالا ثانية في غير الجامعة ، فالمهندسون وأساتذة الكهرباء والكيمياء وما شابه ذلك لا يشكون قلة الرواتب ، أمّا أساتذة الأدب أو التاريخ أو

الفلسفة أو الجغرافية فان رواتبهم قليلة جـدا بالنسبة الى الحياة في أميركة ، وما أظن أن هذه الرواتب تزيد عن أربعمائة دولار في الشهر أو خمسمائة وهو الحد الأعلى ٠

اني لم أرم في هـذه السطور الى وصف النزهة وانما رميت الى التنبيه على قلة الرواتب في جامعات أميركة ٠

سولت ليك سيتي SALT LAKE CITY

١٠ تشرين الثاني ١٩٥٣

خرجت من « سياتل » وقد أزعجتني رطوبة هوائها ورطوبة هواء « بركلي » من قبلها حتى اشتدّ عليّ ألم الأعصاب ، فلما وصلت الى « سولت ليك سيتي » بعد صحراوات قطعتها شعرت بأن لهذه المدينة فتنة خاصة ، فقد دخلتها في الليل ، فأول ما أخذ نظري كنائس متلألئة وقد آثرت النوم على السهر من التعب •

جلت في الصباح في المدينة وأطرافها ، واذا أنا في مـدينة تشبه في وضعها مدينة دمشق من كثير من الوجوه ، فيهـا أحياء مرتفعة تحدق بها جبال جرد راعبة ، تشبه هذه الأحياء حي المهـاجرين في دمشق ، ومن تحتها المدينة نفسها ، ومن ورآء هذه المدينة سهول منبسطة ، اني في صحراء تنتهي الى جبال • قيل لي ان المدينة ترتفع عن البحر مقدار ألف متر وخمسمائة متر ، حقاً ان هواءها جاف جـداً ، وقلما تجد في أميركة مدينة من هذا الوضع ، فقد مررت بمدن سـابحة في الصحراء ولكن ليس لهـا فتنة مدينة « البحيرة المالحة » انك لا تكاد تجد في أميركة مدينة تحدق بها جبال جرد ، فهي بلاد الغابات والحراج والجبال الخضر • ان جمال « سولت ليك سيتي » لا يتجلى إلا في الليل ، فاذا خرج الانسان الى أحيائها المرتفعة الواقعة على سفح جبال جبـارة ، وسرح طرفه في المدينة من رأس هذه الأحيـاء وقع هـذا الطرف على

الأنوار الساطعة وعلى الشوارع الطويلة العـريضة ، وتذكـر بيت البحتري الذي تكاد القصور اللامعة فيه تضيء الظلام للساري ، يشعر المرء في مثل هذه المناظر بشيء لا يسهل عليه التعبير عنه ، هذا الشيء انما هو سحر المنظر الذي يغلب على شعوره وتفكيره ، فينقاد الى هذا السحر غير مبال بشعور أو بتفكير .

هذا قليل من خصائص مدينة « البحيرة المالحة » ولهذه المـدينة الفتّانة شيء خاص تجده في جمال فتياتها وفي مركزها الحربي ومركزها الديني ، أمّا جمال الفتيات فقد ظهر في أعيـاد الجامعة ولا سيما في مهرجان لعبة الكرة ، وأمّا مركزها الحربي فهي واقعة في وسط أميركة بوجه التقريب ، ومنها تتشعب الخطوط العسكرية الى نواحي أميركة كلهـا .

ولكن هـذا كله لا شأن له ، أمّا الشأن كل الشأن في مركزهـا الديني ، انها قبل كل شيء عاصمة ولاية « يوتا » ودار الحكومة فيها آية من آيات العمران ، كلها من المرمر وقبتها من أروع القبب ، وعلى القبة صورة الطير : « أبو سعد » وقصة هذا الطير ان « المرمون » لما دخلوا المدينة وزرعوا أرضها أكل الجراد زرعهم ، فصلوا ، فأرسل الله اليهم « أبا سعد » فأكل الجـراد كله ، فحرموا صيد هـذا الطـير ، وخلّدوا ذكره على قبة دار الحكومة ، والصور البـاقية المنتشرة على أطـراف القبة والجدران تمثل انتقال الولاية من طور الى طور ، وفي وسط دار الحكومة تمثال عظيم لرجل هندي أعان « المرمون » على فتح المدينة .

اشتهرت « سولت ليك سيتي » بمركزها الديني وبنزعتها الدينية، انها بيئة « المرمون » وقصة هؤلاء المرمون انه من مائة سنة أو أقل أو أكثر وأنا لا أهتم بهذه التواريخ ظهر أحد الأنبياء المذكورين فيالتوراة

وهو « مرمون » لرجل من(نيويورك) اسمه : يوسف سميث وقال له : ان في الصحراء بحيرة مالحة ، فازحف اليها ، واجعلها قاعدة لك ولجماعتك ، وأوحى اليه دين المرمون ، فالتف حول سميث جماعة ولما أخذت فكرته تشيع وتقوى قتلته الجماهير واضطهدت الحكومة جماعته ، ففروا الى الصحراء الموعودة ، فمات أكثرهم من البرد والثلج على الطريق ، ولما وصلوا الى سفح الجبال الواقعة تحتها مدينة البحيرة المالحة ظهرت البحيرة ، فقال لهم رفيق سميث الذي زحف بالجماعة : هذا هو المكان الموعود ! فنصب لهذا القائد واسمه : « Young » تمثال في سفح الجبال في أعلى المدينة وعلى دائرة التمثال جماعته وهم على خيلهم وعجالهم وفي سلاحهم ، وكتبت تحت التمثال هذه العبارة This is the place ومعناها : هذا هو المكان ! وفي أكبر شارع في المدينة ، في شارع يبلغ طوله من دار الحكومة الى أحد الجبال مقدار ثمانية وأربعين ميلا وهو أطول شارع في أميركة نصب لهذا القائد قوس وعليه على ما أظن صورة نسر ، وقد نصب هذا القوس على مقربة من مزارعه القديمة ، من دوره التي جعلت اليوم متاحف .

أمّا « المرمون » فهم نصارى ولكنهم يعتقدون أن الكاثوليك والبروتستان ليسوا نصارى في حقائقهم ، فهم لا يمثلون النصرانية على النحو الذي أراده السيد المسيح ، وقد اجتمعت الى رجل من أكابر رجالهم وأخذ يقص عليّ حقيقة معتقداتهم ، وفي جملة ماقال لي : اننا نؤمن بنبيكم محمد ، فقلت له : هل أستطيع اذا رجعت الى بلادي أن أقول لهم هذا القول ، فتردّد حينئذ دقيقة وأخذ يشرح لي معنى ايمانهم بأنبياء الديانات ولا بد لي من أن أعترف في هذا المقام بأن صدري ضاق من الدخول في أمثال هذه الأمور ولكني أستطيع أن أقول وهو كل ما بقي في ذهني من شرح صاحبنا انهم يقولون بتعدد

الزوجات وقد كان لقائدهم Young عشرون زوجة ، ويتزوج الرجل منهم ثلاث أخوات ويجمع بينهن ، ويتزوج أمّاً وبنتها ، وقد كانت الحكومة في الماضي ساكتة عن ذلك ، أمّا اليوم فقد منعت تعدد الزوجات ، فاضطر المرمون الى الاكتفاء بزوجة واحدة ، ولكنهم في المبدأ لا يزالون يعتقدون تعدد الزوجات ، معنى هذا أن الحكومة اذا سمحت لهم بهذا المبدأ عادوا اليه ، وقد قرأت مقالا في بعض المجلات الأميركية لرجل مرموني يشرح قصته ويقول : عندي خمس زوجات ، ولماذا يعجب الناس من هذا الأمر ، اذا سألنا كل أميركي عن رأيه في النساء أفلا يشتهي أن يكون عنده أكثر من امرأة !... انهم يهتمون بأمر الزواج كثيرا ، فقد وقف شاب منهم على باب هيكلهم وأخذ يعظ الناس ويحملهم على الزواج بواسطة الكنيسة لأن الزواج المدني كثر فيه الطلاق ، ثم أخذ يتكلم على الزواج في شريعة المرمون ويقول لهم : ان الزواج لا يكون في الدنيا وحدها ولكنه أبدي يمتد الى ما بعد الحياة ، معنى هذا أن الرجل اذا مات فقد تبقى امرأته زوجته بعد موته ، ولما سمعت عجوز هذا القول استغربته وكادت تشهق ، ثم قالت للخطيب : أاذا مات زوجي أفلا يحق لي أن أتزوج بعده ! فارتبك الشاب وتردد قليلا ثم قال : يحق لك ذلك ! وطفق الجمهور يضحكون !

من قواعد المرمون : لا تدخين ولا سكر ولما كان أحدهم يشرح لي هذه القواعد قلت له : ولا نوم ، قال : وكيف ذلك ، قلت : كيف يستطيع الرجل الذي عنده في داره عشرون زوجة أن ينام !

لا أريد أن أدخل في تفاصيل هذا الدين ، فقد ظهرت فيه كتب مفصلة يستطيع الانسان أن يرجع اليها اذا شاء ، ولكني سمعت أن عددهم في العالم كله أكثر من مليون ، وهم منتشرون في أوروبة كلها ، وفي الشرق الأدنى لهم مبشر ، ومن محاسنهم أنهم أرسلوا الى إخوانهم مساعدات مالية تبلغ تسعة ملايين دولار ، فانهم ينقطعون في الشهر مرة

عن الأكل فيأكلون في النهار مرة واحدة بدلا من ثلاث مرات ، ويرسلون أثمان الأكلتين الى اخوانهم الفقراء ، ولهم معامل ينسجون فيها أنواع الأقمشة ، ويوزعونها على فقرائهم ، ويربون البقر والخنازير ويجمعون اللحوم والألبـان ، وعندهم مجففات ولهم مصانع في بعض الولايات تهيء لهم كل حاجاتهم كالصابون والكولونيا وغير ذلك من الضروريات والكماليـات ، وقد زرت معملهم الكبير في « سولت ليـك سيتي » فضاق صدري بهذه الزيارة حتى كدت أختنق من رائحة الجبن المخمر المكنوز والبيض المجموع ، وما فرّج عني إلاّ الخروج من هذا المعمل الى نزهة على شواطىء البحيرة المالحة ، وفي جبال النحاس !

هذا بعض الشيء عن المرمون ، فالمدينة نزعتها دينية . في الفندق الذي نزلته وهو أمام هيكلهم إعلان على السفرة نجد فيه :

دعنا في هذا الاسبوع نذهب الى عبادة الله ، والى جانب هـذه العبارة عبارة ثانية مأخوذة عن الشرطة السرية وهي :

« تستطيع الأسر الأميركية أن تساعد على الاقلال من الجرائم في أميركة بحثّ أبنائها على الروحانيات .. »

في مدينة « البحيرة المـالحة » مستشفى للامراض النفسية تقوم أميركة في مخابره بتجاربها في هذا الباب .

وفيها جامعة وهي جامعة « يوتا » وفيها البحيرة المالحة وهي تبعد عنها ساعة أو أقل بالسيارة ، ويستطيع الانسان أن يرى قسما منها في النهار اذا صحا الجو ، وذلك من أحد مرتفعات المدينة ، تبلغ مساحة هـذه البحيرة خمسين ميلا في ثلاثين ميلا ، وقد ذكر علمـاء طبقات الأرض أنها كانت من آلاف السنين ممتدة الى المدينة ، أي الى سفح الجبال ، ثم انحسر الماء حتى بلغ مكانه اليوم .

وفيها معادن نحاس وذهب واذا قلنـا معادن فلا نعني بذلك أن

المعدن مخبوء في أرضه ، فقد زرت معدن النحاس ورأيت العمال كيف يعملون وكيف يستخرجون النحاس من أرضه ، ثم يحولونه الى نحاس مصقول ، والمحل الذي يستخرجون النحاس منه أشبه شيء بمدرج كبير ، وفي قاع المدرج ساحة كبيرة يجمعون منهـا المعدن ثم ينقلونه على عجال تسير على خطوط من حديد ، يمر القطار من نفق حتى يصل الى المعمل وقد انتشرت هذه الخطوط على مقاعد المدرج كله ، فعلى كل درج يمرّ خط من الخطوط وألوان الجبال في هذه البقعة مختلفة ، وقد كانت هذه الجبال في الأصل داخلة في ملك المرمون ، ولكنهم لم يضعوا أيديهم عليهـا ، وانما اعتنوا بالزراعة ليأكلوا ولم يفطنوا الى الجبال ، فملكها غيرهم لأن المعادن ملك الأفراد لا ملك الحكومة .

جامعة يوتا UTAH
مهرجان الكرة

تختلف جـامعة « يوتا » عن غيرها من الجـامعات وأعني بهذا الاختلاف وضعها وحدائقها ومداخلها ، فلا تكاد تجد فيهـا شيئا من الحدائق الغلب أو الحراج أو الشجر ، ويظهر أنهـا فقيرة وان كانت مبانيها لا بأس بها ، فهي واقعة على سفوح جبال جرد ، فيشعر الانسان بأنها جرداء مثل هذه الجبال ، ولكن لهذه الجامعة فضلا عليّ عظيما ، فيها شعرت بالحياة الجامعية وبالنشاط الجامعي ، لقد شهدت في هذه الجامعة أربعة مشاهد : مشهد الغنـاء ومشهد الاستعداد للعب الكرة ومشهد التمثيل ومشهد اللعب نفسه .

أمّا المشهد الأول فقد دعاني اليه أستاذ اللغة الفرنسية وهو شاب من سويسرة الألمانية ، فقد اجتمع في قاعة من قاعات الجامعة في الليل أساتذة اللغات الأجنبية وطلابها كالفرنسية والايطالية وطفقت كل جوقة من الطلاب والطالبات تغني على المسرح أغنية من الأغـاني الفرنسية والايطالية ، وأذكر أن من جملة الأغـاني الفرنسية : « المارسييز » وأغنية : تحت جسر باريز ، وأغنية السين ، والخريف ، والقبّرة ، ثم عرضت مشاهد السينما وهي تمثل جزءا من البلاد التي يدرس الطلاب لغاتها مثل فرنسة وبلجيكة وايطالية .

وأمّا المشاهد الثلاثة فهذه خلاصتها :

اذا أردت أن تعرف اهتمام الأميركان بالرياضة فراقبهم في الجامعة ، تظهر خصائصهم كلها في الجامعة ، تظهر أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم وأمزجتهم وغير ذلك ، واذا كانت الجامعة صورة الأمة فجامعات أميركة أنطق صور للأميركان .

طفت في الليل بجامعة « يوتا » فقد قيل انها تهيء لعبة الكرة ليوم السبت الواقع في ١٤ تشرين الثاني . لقد كانت الحياة ظاهرة آثارها على الجامعة في الليل أكثر من ظهورها في النهار ، فقد انتشر الطلاب والطالبات في الأزقة الممتدة عليها أنديتهم المختلفة وبيوت جمعياتهم ، كل طالب يخاصر طالبة وتخاصره ، فتجد الطلاب والطالبات ذاهبين جائين ، مقبلين مدبرين ، فهم روح هذه الأزقة ، هم مرحها وسرورها ، ينظرون الى هذه التماثيل والتصاوير التي عملها كل ناد على مقدمة بنائه ، تقع العين في بعض الأحيان على عشر صور ، على أقل أو أكثر ، صنعها الطلاب والطالبات وجمعوا فيها كل ما يملكونه من ذوق ومن إبداع ومن خيال ، صنعوها قبل مهرجان الكرة بأيام استعدادا لهذه اللعبة .

على أي شيء تدل هذه الصور .

تجري المباراة بين جامعة « يوتا » وبين جامعة « الكولورادو » وهي ولاية ثانية قريبة منها ، فعلى جامعة « يوتا » أن تخلق صورا تمثل الخصم في أضعف صورة ، والخصم شعاره كبش أبيض وجامعة « يوتا » شعارها رجل هندي ، فترى على وجه كل ناد من الأندية صورة كبيرة من ورق ، وألواناً مختلفة تمثل الرجل الهندي والكبش الأبيض على أشكال شتى ، صورة تمثله وفي يده مطرقة يهشم بها رأس الكبش ، وصورة تمثله والرجل الهندي أوقد النار وشوى الكبش ، وصورة تمثله وقد مدّ السفرة لأكل الكبش ، وصورة تمثله والكبش بين يديه يثغو من الألم الى غير ذلك من الأشكال التي تشعر

بضعف الخصم وبقوة جامعة « يوتا » ولهذه الصور جائزة تعينها لجنة من الطلاب المحكمين ، تجتمع اللجنة فتحكم لأشد الصور إبداعاً وأسلمها ذوقا وأروعها فنا ٠

ترى أزقة الجامعة في هذه الليلة الهائجة المائجة تزخر بحلق الطلاب والطالبات ، كل طالب يرقص مع طالبة ، ثم يؤلف الطلاب دائرة ، كل طالب فيها قابض على خاصرة الطالبة في الرقص ، فيدورون عدة دورات في هذا الرقص ٠

هذا أكثر ما تصل اليه حرية الطلاب والطالبات في الجامعة ، وهذا أكثر ما يصل اليه الاهتمام بالرياضة ، ولم يكتف الطلاب بهذه المظاهر التي أشرت اليها ولكنهم يجتمعون ليلة المباراة في قاعة ويحضر جمهور كبير من المتفرجين ، فيمثلون على المسرح مشاهد مختلفة تعبر عن المعنى نفسه ، أي عن غلبة جامعة « يوتا » لجامعة « الكولورادو » وتمثل حياة أميركة في بعض نواحيها العامة ، كناحية السكر مثلا ، ثم تكثر على المسرح مشاهد الرقص على أنواعه ، كالرقص الهندي والرقص الأميركي ، ثم تنطلق الأغاني ، كل هذا والطلاب والطالبات هم الذين يمثلون ويغنون ، ثم تنتخب ملكة الجمال من بين الطالبات لتطوف يوم المباراة على المتفرجين وتحمّس اللاعبين ، ولكنك لا تخرج من هذه القاعة بعد ثلاث ساعات إلا وأنت تحس بميل الأميركي الى الضحك والمرح والنكتة وغير ذلك ٠

إلاّ أن روعة المشاهد لا تجدها في الليل وانّما تجدها في صباح المباراة ، ماذا تجد في هذا الصباح ، ترى شوارع المدينة مكتظة بطلاب الجامعة وبعض المدارس ، تراها مكتظة بفرق من ضباط الجامعة الذين تعدهم للجيش وبجوقة الموسيقى وبالبنات والصبيان ، كل هذا تراه على صفوف متتابعة ، ثم تجد لكل كلية شعارا يجعلونه فوق سيارة ، فتجد مثلا على سيارة كبشاً أبيض بين يدي رجل هندي ، ثم تجد على

سيارة ثانية طلابا في ثياب الهنود ، فهم عــراة في يوم البرد ، ثم تجد سيارة عليها بنات عاريات السيقان والأذرع والصدور ، يرقصن على السيارة ، ويتمرن على الحركات في الشوارع ، والطبول تدق ورجال الموسيقى يعزفون على حركات البنات ، ثم تجد طائرة على سيـارة ، ثم تجد فتيات وقد لبسن ثياب الهنود وهن أجمل فتيات الجامعة .

أمَّا فرق الموسيقى ففيها الطالبـات والطلاب ولكل فرقة لبـاس خاص لونه أحمر أو أزرق أو أبيض ، والطالبات لبسن لبـاس الجند أو القـواد .

ثم يطوف حاكم المـدينة ورئيس الجـامعة على سيارة بشوارع المـدينة .

ثم تجد ممثلي أندية الجامعة ، الرؤساء منهم ونواب الرؤساء على سيارة ، ثم تجد مشجعات اللعب على سيارة وهن من طالبات الجامعة الفاتنات ، ثم تجدملكة الجمال والوصائف بين يديها يطفن على السيارة .

كل هذا تجده في الصباح استعدادا للمباراة .

فاذا أزفت الساعة الثانية بعد الظهر وذهبت الى الملعب ، فما الذي تلقاه بعد كل ما لقيته في الصباح .

الجو مثقل بالغيوم السود ، والهواء مع ذلك جاف ، فاننا في فضاء أجـرد والجبال من ورآء الملعب ذاهبة في السماء ، راعبة بسوادها ، وعلى رؤوسها قطع من الثلج كأنهـا النمور في لونهـا الأبيض ولون الجبال الأسود ، وكأن هـذه الجبال أحدقت بملعب يسع ثلاثين ألف رجل لتحصّنه وقد أحـاطت به من ناحية صغيرة شجرات سـود من السرو ، فالطبيعة كلهـا سوداء ، ولكن ما الذي يخفف من كآبتها في هذا النهار ؟ خفّف من هذه الكآبة طالبـات لبسن ثيابا حمراً وبيضاً وتهيأن لتشجيع اللاعبين من جامعتهن ولنفخ الروح فيهم ، وقفن على

جـانب من جوانب الملعب يرقصن الرقصات المنسقة على مـرأى من اللاعبين والمتفرجين ، والابتسام ملء ثغورهن ، والغنج ملء أجسامهن ولكنه غنج الطبع لا غنج التصنع ، ورجال الموسيقى يعزفون والأطفال والصبيان والشباب والكهول والشيوخ والنساء قد ملأوا المقـاعد ، والمنـاديل تخفق في الفضاء ترحيبا بالنـاجحين في اللعب وأصـوات المتفرجين تشق أعنان السماء ! •

هذا هو المشهد الساحر ، هذا هو المشهد الذي يحرك الصخور ، وكلما نجح طلاب جامعة « يوتا » في اللعب رقصت الطالبات المشجعات رقصة الهنود ، كأنهن طواويس بريشهن المنفوش ، حتـى اذا وصلت المباراة الى منتصفها دخلت فرقة الموسيقى الملعب وعددها مائة وعشرون طالبا وطالبة ، وأخذوا يعزفون ويقومون بحركات لا مثيل لها في خفة الأقدام ورشاقتها ، مرة تكون الفرقة على شكل دائرة ، ومـرة على شكل مستقيم ، وحينا على هيئة نصف دائرة وحينـا على هيئة خط منحن ، وقد تكون حركات الطالبات الرشيقة أحلى من اللعبة ذاتهـا فترى الفرقة تارة يتصل أفرادها ، وتارة ينفصلون ، وحينا تتدحـرج طالبة على الأرض وحينا تتقلب في الهواء ، وأنغام الموسيقى في هـذا المشهد كله تماشي حـركات الأقدام ، والأجسـام منسجمة منسقة ، ولكن هذه الحركات لم تكن سدى ، فانها مرة تؤلف على أرض الملعب أحرفا تفصح عن رمز الجامعة ، ومرة تؤلف تاج ملكة الجمال ، وانك لكذلك اذ تمرّ ملكة الجمال التي انتخبت في الليل تحيط بها الوصائف على عجلة يجرها حصان ، حـركاته متزنة مثل حركات اللاعبـات ، ويجري ورآء الملكة فارس حـركات حصانه في مثل هـذا الاتزان ، فتطوف الملكة حول الملعب وتحيي جمـاهير المتفرجين ويحيونهـا ، تطوف مرة ومرتين وثلاث مرات والطائرة في السماء تشجع اللاعبين

وتحييهم ، وهي إحـدى طائرات الجامعة ، حتى اذا بلغت المبـاراة منتصفها الأخير سمعت أصوات طالبات المدارس وطلابها تخرق الجو فتموج فيه أصداء أهازيجهم المشجِّعة المحمِّسة ، ثم يختم هـذا كله بنشيد الجـامعة ، وهو نشيد مقوٍّ منشط ، فترى القوة ماثلة في كل شيء : في طبيعة الجبال ، وفي اللعب ، وفي الحركات ، وفي الرقصات ، وفي نغمات الموسيقى ، وفي النشيد نفسه .

هذه أميركة كلها في هذا اليوم ، هذه تربيتها وأخلاقها وتقاليدها ، هذه صورتها في الجامعة ، في ملاعبها ، وقد تتوقف سمعة الجـامعة في بعض الأحيان على نجاحها في اللعب أو على إخفـاقها ، أمَّا النجـاح فيجلب لها الطلاب والطالبات وامَّا الاخفاق فيدفعهم عنهـا ، ولهذا تجد الجامعة تعنى باللاعبين العناية كلها ، فتنتخبهم من أقوى الطلاب أجساما وتهتم بغذائهم ، فيتدللون عليها ، وقد تراعيهم في الامتحانات !

أحـاديث .

لا أجد مندوحة لي عن الثناء على أساتذة جـامعة « يونا » وعلى عميد كلية الآداب فيها ، فقد بلغت عنايتهم بي المبالغ ، زارني العميد في الفندق ساعة وصولي ودعاني الى الغداء في مطعم الجـامعة ، ثم دعاني الى شرب الشاي في داره ، وهو إنكليزي الأصل .

لقد تكلمت في جامعة « يوتا » مرتين .

كلفني في المـرة الأولى أستاذ الأدب الانكليزي أن أشرح لطلابه أسلوبي في التـدريب على الانشاء ، فدخلت على الطلاب وبينت لهم شأن تفسير النص ووضحت لهم طريقتي في هذا التفسير ، وذكرت لهم أن لكل أستاذ طريقة في ذلك ، أستاذ تغلب عليه نزعة النحو والتصريف ، وأستاذ يعنى بالبلاغة ، وأستاذ يهتم بتنسيق الفكر ، ولا شك في أن الطلاب يستفيدون من هذه الطرائق كلها ، فما ينبغي لهم أن يقتصروا

على واحـدة منها ، أصل الأمر في التفسير أن يدرك الطالب الفكرة العامة في النص وأجزاء الأفكار التي تحيط بها ، فاذا أدرك هذا الأمر لـزمه أن يبحث عن اتصـال الأفكار بعضهـا ببعض ، عن المنطق في تسلسلها ، حتى يهتدي الى موطن الاختلال فيها أو الى موطن الانسجام وعلى هذه الصورة يقوى تفكيره ويصح ، فاذا اهتدى الى اختـلال الفكرة في النص أو الى انسجامها انصرف حينئذ الى البحث عن القالب الذي أفرغت فيه هذه الفكرة ، هل استطاع الكاتب أن يلبس فكرته لباسا مناسبا لها لا يزيد عليها ولا ينقص عنهـا . هذا هو الأسلوب الذي يدرِّب الطلاب على الانشاء ، فاذا طالت ممارسة الطالب لامتحان فنون القول ، واهتدى الى محاسن هذه الفنون ومقابحها عرف يومئذ كيف يصوغ فكره وكيف يفصح عن شعوره .

هـذه جملة ما قلته للطلاب في باب التدريب على الانشاء ، أمّا التفاصيل فلا أدخل فيها ، ولما انقضت الساعة شكرت لأستاذ الأدب تمهيده السبيل الى الاتصال بطلابه ، ثم ودّعته وانصرفت ، ولكني لم أنصرف إلا بعد أن ألح ّ عليّ الطلاب في سماع الشعر العـربي ولم تهمهم صور الشعر وانما الـذي أهمَّهم سماع النغمـة ، فأنشدتهم قصيدتي : نوح العندليب ، مرتين ، ثم أنشدتهم أبياتا مختلفة العروض ، ثم ذكرت لهم كيف تضبط موازين الشعر ، والخلاصة ان الأمـيركان غريب أمرهم في التطلع الى المعرفة ، فهم يريدون أن يعرفوا كل شيء ، ولكنهم يريدون أن يعرفوا في أسرع وقت ممكن .

ودعاني في المرة الثانية عميد كلية الآداب الى الكلام على التعليم في سورية في جميع مراحله ، فتكلمت على درجات التعليم في بلادنا ، وفرقت بين برامج الأرياف وبين برامج المدن في بعض الحـالات التي تستوجب هـذا التفريق ، ثم أشرت الى أزمة المعلمين والأساتذة في الماضي ، حتى كانت وزارة المعارف تضطر الى نقل المعلمين من المدارس

الابتدائية الى المدارس الثانوية ، والى نقل المدرسين من المدارس الثانوية الى الجامعة ، ثم ذكرت أن هذا النقل لم تبق حاجة اليه ، فان دور المعلمين الابتدائية تهيء المعلمين للمدارس الابتدائية ، وان كلية التربية تهيء المدرسين للمدارس الثانوية ، وان الجامعة أصبح فيها عدد لا بأس به من الأساتذة الدكاترة ، وأفضت في الكلام على التدريس في الجامعة .

اليهود في الجامعة .

لما كنت أتكلم على مراحل التعليم في سورية سألتني طالبة هذا السؤال :

ما هي نسبة الأولاد الصغار الذين يذهبون الى المدارس ، نظرت في وجه هذه الطالبة فوجدت أنها لا تشبه الأميركانيات في حال من الأحوال ، أثر العنصر السامي على وجهها ، فقلت لها : هل أنت من إسرائيل ، فضحكت وقالت : نعم ، وكأنها فهمت مقصدي من سؤالي كما فهمت مقصدها من سؤالها ، فقلت : ثقي بأن الأولاد الصغار الذين تسألين عنهم لو كانوا يجدون لهم أماكن كافية في المدارس لملأوا هذه المدارس ، ولكن النسبة ستكون بعد قليل من الزمن مائة طالب وطالبة في المائة ! أي نسبة الأولاد الذين يذهبون الى المدارس ، فابتسمت وقالت لرفيقتها وهي طالبة من طرابلس الشام اسمها نجوى مصطفى السيد : يظهر أن هذا الأستاذ شيطان ، وقد نقلت الي هذا الكلام الآنسة نجوى نفسها .

أفرأينا اهتمام اليهود بكل ناحية من نواحينا ، أفرأينا تتبعهم لأخبارنا ، أفلا نرى أن هذا العدو مخيف ! .

أديبة أميركية .

لما فرغت من الكلام على تفسير النص والتدريب على الانشاء وخرجت من صف الطلاب لحقتني طالبة أميركية وعرفتني الى نفسها وسألتني : هل في الامكان أن تجد لها عملا في الجامعة السورية أو في بعض المدارس ، فقلت لها : ما هو العمل الذي ترغبين فيه ، قالت : تدريس اللغة الانكليزية ، فقلت : سأجتهد بعد رجوعي الى وطني في البحث عن ذلك ، فشكرت لي ودعتني الى نزهة على السيارة ، ثم دعتني الى شرب القهوة في دارها .

تسكن هذه الطالبة هي وأمها داراً مؤلفة من بهو وغرفتين ، فلمَّا زرتها في دارها أهدت اليَّ كتاب منتخبات شعرية : أميركة تغني ، وهو مخطوط وقد كتبته بيدها وقالت : لا أملك نسخة ثانية غيره ، ثم عادت الى البحث عن عمل لها في سورية وعدت الى قولي لها اني سأجتهد في البحث عن ذلك . هذه الطالبة من البروتستان وهي متشددة في سيرتها وتبيَّن لي ذلك من سؤالها ، قالت : اذا جئت سورية فهل أستطيع أن أجيء وحدي وأن أسكن وحدي ، قلت لها : اذا كان لك نصيب من المجيء فخير لك أن تأتي أنت وأمك ، ثم عرفتني الى خطيبها وهو طالب في الجامعة ، اجتمعت اليها مرة ثانية وسألتها : هل اعتمدت على خطيبك وهل أحببته ، فقالت : هو يحبني ، أمَّا أنا فلا أزال أختبره .

الفتاة الأميركية غير سريعة في عاطفتها ، انها تخالط في أول الأمر كثيرا من الشباب للاعتماد على خطيب ولكنها لاتسرع في الارتباط به ، ويلزم كل فتاة في الصف الأول في الجامعة أن تخالط كثيراً من الشباب ، والفتاة التي تعتزل الشباب يقولون فيها ان بها مرضا نفسيا ، والفتى الذي يبعد عن الفتيات يقولون فيه القول نفسه ، فالمخالطة أمر واجب

في الجامعة وهي تنتهي في أكثر الأحوال بالزواج ، وأصبح الزواج في الجامعة من سن العشرين حتى الثالثة والعشرين .

والفتاة الأميركية بوجه عـام غير معقّدة ، فهـي لا تنطوي على نفسها وانما تحب المكاشفة ، لأنها صريحة والانطواء لا يخلو من بعض الخبث ، واذا تعرفت الى رجل أصبح هـذا الرجل واحداً من أهـل الدار ، فان المكاتبات بيني وبين الفتاة الأديبة التي أشرت اليهـا لم تنقطع ، واذا كتبت إليّ كتابا دخلت في تفاصيل حياتها في الدار ، فاذا دعت أحداً الى عشاء أو الى سهرة ذكرت لي ذلك ، ثم ذكرت ألوان الأكل ، ثم أشارت الى الغناء والى الرقص ، وأنا لم أجتمع اليهـا الا ساعة وكان في الدار خطيبها وأمها في الاجتماع ، ومع هذا كله أصبحت وإياها كأن بيننا صداقة من سنين طويلة .

عشاء وسهرة .

في جامعة « يوتا » فتاة من طرابلس الشام اسمها : نجوى مصطفى السيِّد ، أرسلتها حكومة لبنان لتدرس التربية ستة أشهر ، وفي هذه الجامعة شاب من طرابلس من أسـرة الحفار ، أنهى تحصيله أو كاد ، ولكن قلبه متعلق بمدينة البحيرة المالحة ، فهو لا يحب الرجوع الى وطنـه .

الفتاة والشـاب من أطيب الناس ، فما قصّرا في وجه من وجوه العناية بي ، رأت الآنسة نجوى أني سئمت أكل الأميركان فدعتني الى عشاء شرقي : دجـاج بالرز واللبن ، أتقنت طبخه الاتقان كله ، تقيم هـذه الآنسة بدار أستاذ الفلسفة في جامعة « يوتا » الدكتور Hillard ولمـا تعشينا وشكرنا لصاحبة العشاء وأثنينا على مهارتها في فن الطبخ أخذنا في فنون الأحاديث .

اذا كان ليس من الضروري أن يكون أستاذ الفلسفة صـاحب مزاج فلسفي فلا بأس بأن يكون له مثل هـذا المـزاج ، والدكتور

« هيليارد » أستاذ فلسفة وفيلسوف بمزاجه ، بهدوئه وصفاء قلبه ونقاوة سريرته ، تمازحه زوجته فلا يغضب ، فقد شكت الينا هذه الزوجة الفاضلة أمرها ، قالت : ان زوجي ملأ البهو العام كتباً حتى ضجرت من رؤية الكتب ، وعلى الرغم من ذلك انه في عيد الميلاد أو عيد رأس السنة لا يهدي اليّ إلاّ كتاباً ، فقلت لها : الأمر هيّن ، عامليه المعاملة نفسها ، أهدي اليه مسطرة ونشّافة ! قالت : اذا فرغ أولادنا من العشاء جلس الى مهودهم وقرأ لهم بعض أوراق من كتاب مقدار نصف ساعة ، فاذا تمت القراءة جاء اليّ وأنا على السرير وقرأ لي أوراقاً من كتاب مقدار نصف ساعة ، فأحمد الله على أن الآنسة نجوى دعتكم هذه الليلة الى العشاء ، فنجا الأولاد من القراءة ونجوت أنا أيضا .

قضينا ساعتين في السهرة ونحن نخوض في أحاديث شتى ، قال الدكتور « هيليارد » : اني نعمت بكم هذه الليلة لأن الأميركان لم يتعودوا هذا النوع من السهر وهذا النحو من الأحاديث ، لقد كانت أحاديثنا متصلة بشيء من الأدب والفلسفة والاجتماع ، ولهذا سُرّ الاستاذ بذلك كل السرور ، وظهرت آثار السرور عليه ، فان الحياة الاجتماعية في أميركة ضعيفة جدا ، فالناس لا يتفرغون للناس ، وانما همّهم عملهم قبل كل شيء ، وقد أحببت أن أعرف رأي الأستاذ في هذه الحياة الاجتماعية ، فسألته عنها ، فقال : ان الأميركان لا يعرفون هذه الحياة ، أفلا تجد أن أبناءهم يتركون دورهم ويلعبون في ساحة الحيّ ، رمى الأستاذ في كلامه هذا الى ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ورميت الى ناحية ثانية ، فقد قصدت بكلامي أن الأميركان لا يذوقون لذة الاجتماع في الدار ، اجتماع الرجل والمرأة والولد في المساء ، ولا سيما في ليالي الشتاء حيث تحلو الأحاديث قبل النوم ، ويتمتع الأهل من نعمة الولد ، ويتمتع الولد من لذة الأهل .

١٣ تشرين الثاني ١٩٥٣

كره اليهود .

لا أشك في أن الأميركان يكرهون اليهود ، ولكنهم في الوقت نفسه يخشون سلطانهم ، فقد اجتمعت مرّة الى قيّم مكتبة أميركي ، فأخذ يقصّ عليّ أخبار المشرف على المكتبة وهو أستاذ يهودي ، ومن جملة ما قاله لي : انه كان يمنع القيّم عن شراء كتب تتصل بالاسلام والعرب ، ولكنه كيف كان يقول لي ذلك ، انه كان يلتفت الى اليمين والى الشمال خوفا من أن يسمع كلامه أحد من اليهود ، ولست أعتقد أنه كان الى جنبه أحد منهم ، ولكن الحذر مسيطر عليه في هذا المعنى، ثم كيف يقصّ عليّ أخبار هذا اليهودي ، انه كان يهمس همسا .

وقد زرت في مدينة « سولت ليك سيتي » صحيفة سميت باسم المدينة نفسها ، فقابلت رئيس التحرير ، فأحب أن ينشر حديثا عني ، فاستأذنني في ذلك ، ثم طرح عليّ هذا السؤال : ألا تعتقد أن اليهود سوّدوا وجه أميركة في الشرق ، ان هذا الصحفي ماهر في صنعته ، انه لم يقل لي : ما رأيك في وضع أميركة بالنسبة الى اليهود ، ولكنه أوحى اليّ سوء تأثير اليهود في سمعة أميركة ايحاء بارعاً ، وجرّني الى هذا الموضوع جراً لطيفاً ، وقد استنتجت من ذلك أنه يكره اليهود ، انه يعيش في بيئة تغلب على أهلها نزعة دينية ، وما أظن أن لليهود فيها أثرا قويا ، فجاوبته عن سؤاله وكان جوابي من روح سؤاله ، ونشر حديثي في صحيفته وجاءت فيه هذه العبارة : وصف عميد كلية الآداب في الجامعة السورية سياسة أميركة في فلسطين فقال : ان هذه السياسة سوّدت صحائفها البيض في الشرق الأدنى .

لا أشك في أن الأميركان يكرهون اليهود ، واني أشعر شعوراً شديداً بأنه سيأتي يوم يصيب اليهود فيه ما أصابهم في ألمانية على يد « هتلر » لأن ثقل ظلهم في الولايات المتحدة لا يطاق .

DENVER دنفر

١٦ تشرين الثاني ١٩٥٣

لا أدري لماذا أحبوا أن أزور « دنفر » فلم أجد فيها شيئاً يستهويني على شهرتها من بعض الوجوه ، فقد قيل لي انها مشهورة بطبع النقود ، ما لي وللنقود ، لقد هجم الشتاء عليّ في « دنفر » ، فشرعت أشعر بشيء من انقباض الصدر ، وكأنني أخذت أمل من طول الرحلة ، فلم يكن لهذه المدينة نصيب من قلبي ، ويظهر أن الفندق الذي نزلت به انما هو فندق الدراويش ، فلم أجد فيه راكباً ولم أجد فيه خادماً ، فصاحبه هو الذي يحمل عياب المسافر وينقلها . أمّا الجامعة فقد طفت حولها على سيارة دقيقة أو دقيقتين وكان معي جماعة من فلسطين يقيمون بدنفر ، فلم تبق في ذهني منها الا صورة كئيبة ، ولا أذكر أني في هاتين الدقيقتين رأيت طالباً أو طالبة أو أستاذا أو حديقة أو شجرة ، وكان الوقت بعد العصر ، وأظن أن الانسان اذا ضاق صدره من أمر ضاق صدره من كل الأمور التي تحيط به ، ومن يدري فقد تكون هذه الجامعة لا بأس بها ، ولكني لما كنت ضيق الخلق وجدت فيها كل البأس ، فالذنب ليس بذنب الجامعة ، وانما هو ذنب مزاجي الذي كنت عليه في تلك الزيارة .

فأنا لم أدون شيئا عن مدينة « دنفر » ولا عن جامعتها ولكني لم أخرج منها من دون أثر ، فقد رأيت فيها صورة دمشق ، وكيف ذلك ،

استقبلني في الفندق جماعة من فلسطين وعلى رأسهم تاجر اسمه موسى اسماعيل ، احتفوا بي كل الاحتفاء ودعاني السيد موسى الى الغداء والى السهرة في داره ، وهو من قرية على مقربة من أريحا ، اسمها : دير دوّان ، وزارني رجل من الأميركان آدمي أسلم من سنين وسمى نفسه : عبد الله ، فزدت على هذا الاسم لقب الشيخ وسميته : الشيخ عبد الله ، ودرج هذا الاسم بين إخوانه المسلمين ، ولم أعرف رجلا أطيب قلبا من الشيخ عبد الله ، يبلغ من العمر سبعين سنة أو أقل ، وهو مصاب بلجلجة في لسانه ، فاذا نطق تردّدت الحروف في فمه ، فتعذر عليه النطق إلا بعد حين . دعاني الشيخ الى العشاء في مطعم فرنسي ، ولا حاجة بي الى التنويه بالمطاعم الفرنسية مرة ثانية ، فالأميركان يتزاحمون عليها وهي قليلة .

أعود الى دعوة السيد موسى اسماعيل وقبل أن أخوض في شيء من الكلام على السهرة في داره لا بأس بأن أذكر أن هذا الرجل الفاضل يفرج غمّ كثير من الطلاب الشرقيين ، فقد تضيق ببعضهم الحال في آخر الشهر ، فيدينهم ، وقد تقع له مشكلات مع طائفة منهم في هذا الدين ، فتحلها المحاكم ، ومن غريب الاتفاق أنه ذكر لي اسم صحفي من دمشق وهو صديقي ، أخذ منه في « دنفر » خمسين دولارا ولكنه ما لبث أن أعادها اليه بعد وصوله الى « نيويورك » فحمدت الله على أن هذا الصديق لم يسوّد وجوهنا في أميركة .

ذهبت الى دار السيد موسى اسماعيل في النهار ، وذهبت اليها في الليل ، واذا السجّاد العجمي ممدود على الأرض واذا أصوات محمد عبد الوهاب وأغاني لبنان تدوّي في البهو ، واذا الأركيلة والتنباك العجمي ، وأبو داود صاحب الدار يسألني : هل تدخن ، وقد كنت استرحت من الأركيلة طول إقامتي بأميركة ، ولكن النفس أمّارة

بالسوء ، ففطن أبو داود الى أني من جماعة الأركيلة ، فهيأها بيده ، وأوقد الفحم ، وجاءني بهـا .

في دقيقتين شعرت بأني في دمشق ، فقـد دار الكلام وتساقطنا الأحاديث وموضوعها قضية فلسطين مرة ، وتناحر العرب مرة ، وفلان طيب ، وفلان غير طيب ، وما شابه ذلك ، في دقيقتين شعرت بأني في مقهى من مقاهي دمشق التي ألفتها مقـدار أربعين سنة ، أضيع فيـه الوقت ، لا بل أقتله قتلا ، لأن الوقت لا قيمة له في نظرنا .

خرجت من دار صاحبنا أبي داود وهو رجل كريم النفس ، لايزال يتكلم بالعربية ولكن زوجته فارسية الأصل لا تعرف غير الانكليزية ، وابنه داود لا يعرف العربية ، خرجت من عنـد أبي داود فازدحمت الخواطر على ذهني ، وأخذت أقابل بين طرز حياتنا وبين طرز حياتهم في أميركة ، وأنا لا أحب المقابلات ولا المقايسات ولا الاستنتاجات ، فاني لست من علماء الاجتماع ولا أذكر أني في هـذه الخواطر التي دوّنتها في رحلتي لجأت الى شيء من هذه المقابلات وأشباهها ، ولكني هذه المرة أحببت المقابلة ، قلت في نفسي : ما أعظم الفرق بين ميلنا وبين ميلهم الى العمل ، اني لا أريد أن أظلم أحدا ، فأنا أتكلم على نفسي ، فقد قضيت أربعين سنة في الذهاب الى المقـاهي ، كل مرة أصرف في المقهى ثلاث ساعات أو أربع ساعات ، وفي بعض الأحيان خمس ساعات ، بين أركيلة أجدّد نارها ، وماء أطلب زيادة ثلجه ، وقهوة أوعز باكثار الهيل فيهـا ، ونرد يساعدني الزهر فيه حيناً ويعاكسني حيناً ، لقـد قضيت أربعين سنة على هذا الشكل .

أمّا الأميركي فانه مفتون بالعمل ، انه يعبد إله هـذا العصر وهو العمل ، وقد أصبحت هذه العبادة من ضرورات الأيام التي نعيش فيها ، وأميركة تشعر بهذه الضرورات أكثر من كل أمة ، وهذا الشعور انما هو السر في نجاحها ، فالأميركي لا يستطيع أن يعيش بلا عمل ، واذا

عاشت أميركة بلا عمل أصبحت ميدان البطالة ، وأعني بذلك ميـدان المستائين والفقراء ، وسـلام حينئذ على ثروة أميركة ، سـلام على ازدهارها ، سلام على عظمتها • يعرف الأميركان هذه الأمور كلهـا ، ويشعرون بها ولذلك نجدهم يعملون في الليل والنهار ، انهم لايقضون أوقاتهم في المقاهي أو على الأرصفة ، ولا يزورون بحيراتهم وجبـالهم وشلالاتهم وأوديتهم إلاّ ندرة •

لا بدّ لي في هذا الباب من خاطر خطر ، انيأرىأن هذا الأسلوب من الحياة متعبة للانسان ، ففي حيـاة الأميركان كثـير من الجهد ، فالأميركان يعيشون ليعمـلوا ، انهم لا يعرفون اللذة والـراحة ولا يزورون الأرياف إلا قليلا ، ولا ريب في أن هذه الطريقة من العيشة تجهد الأعصاب ، لقد أولعنـا في الشرق بالميل الى الراحة وأولعوا في أميركة بالميل الى العمل ، ولكن بين هذين النمطين من الحياة حـدّاً وسطا •

قليل من العمل ، قليل من الراحة ، هذه هي الحياة !

مائة وخمسون خطبة .

من الجماعة الذين زاروني في « دنفر » رجـل اسمه : خميس ، وهو من فلسطين ، ألحّ عليّ في زيارة دكّانه ، فذهبت الى الدكان ، عنده ثياب للنساء والرجال ولكنها من نوع وسط أو أقل ، فلم أجد على الدكان آثار النعم ، فسكتُ قليلا وقلت في نفسي : انهذا الرجل غير ناجح في عمله ، واني لكذلك إذ أخرج من دفتره ورقة كتبت عليها أسماء كثير من رجـالات دمشق ، فعلمت أن صاحبنا من البنـائين الأحرار ، أخذ يذكر لي مكاتبته لهم ومكاتبتهم له ، وقد اشتد بي الميل الى معرفة ما جناه في أميركة ، ولكني لم أجد الفرصة حتى دخل بي

آخر الدكان ، وفتح باباً صغيرا ، فوجدت وراء الباب طنجرة على النار ، فقلت للسيد خميس : ما هذا ، قال : مجدرة أطبخها بنفسي ، ثم وجدت دفتين من خشب عليهما لحاف ، فقلت : ما هذا ، قال : تختي ، ثم وجدت حفرة ، فقلت : ما هذا ، قال : مغسلة ، فالسيد خميس يأكل وينام ويستحم ويقضي حاجته في الدكان ، فاغتنمت الفرصة وسألته : متى جئت أميركة ، قال : من خمس وأربعين سنة ، قلت : أجئت أميركة لتأكل فيها المجدرة بعد خمس وأربعين سنة ولتنام هذه النومة اليابسة ولتعيش هذه العيشة الخشنة ، أفلا كنت تستطيع أن تجد هذا كله في قريتك في فلسطين ، وأنت في وطنك ، ما لك وللغربة ، قال : ولكني في هذه الخمس والأربعين سنة خطبت مائة وخمسين خطبة في المحافل ، قلت : وكم خطبة خطب صاحبك السيد موسى اسماعيل ، قال : انه لا يقرأ ولا يكتب ، قلت : انظر الى الذي لا يقرأ ولا يكتب ، أن له داراً من أحسن الدور ، وزوجة من أصلح الزوجات ، وولداً من أنبه الأولاد ، وسيارة من أفخم السيارات ، وتجارة من أوسع التجارات ، أمّا الذي يقرأ ويكتب ويخطب في خلال خمس وأربعين سنة مائة وخمسين خطبة فقد عاش على المجدرة !

سانت لويس ST. LOUIS

١٨ تشرين الثاني ١٩٥٣

رقص القــرود .

هذه آخر مدينة زرتها في أميركة في رحلتي الأولى ، أقمت بهــا يوماً ، ثم ركبت منها الطائرة الى « نيويورك » لقــد شبعت من كل شيء ، شبعت من الفرجة والنزهة والجامعة ، فمتى يأت وقت الرجوع الى الوطن لم تبق حــاجة لنفسي إلاّ قضيتها ، لم أدر ماذا أصنع في « سان لويس » قيل لي : ان فيهــا نهراً عظيما وهو « الميسيسيبي » فانحدرت اليه وهو على بضع خطى من الفندق ، فلم أجــد فيه شيئا عظيما ، وان الذي يعرف النيل في القاهرة أو دجلة في بغداد لا يستعظم نهر « سان لويس » ، فوقع في خلدي أن أركب السيارة العــامة وأن أطوف بالبلد على سبيل الفرجة ، ففعلت ، فلم أهتد الى شيء جديد يسليني ، فأكثر الدور في أميركة متشابهة ، وأكثر المــدن متماثلة في شوارعها • ولكنني لم أغادر « سان لويس » دون طرفة من الطرف ، جلت قليلا في بعض أسواق المدينة ، وقد أخذت أميركة بأجمعها تستعد لعيد الميلاد ، فوقعت عيني في مخزن من المخازن على صورة من أغرب الصور ، صورة جوقة تعزف بأنواع المعازف ، من هم العازفون وما هي المعازف ، هذا موضع الاستغراب •

تتــألف الجوقة من خمسة أو ستة قرود ، من ورق أو من خشب

أو من حديد لا أدري ، كل قرد ومعزفه بيده ، وقد انتصبت القرود على أقدامها ، هذا عوده بيده ، وهـذا طنبوره بيده وهـذا يعزف بالبيانو ، وهـذا بالكمنجا ، ورئيس الجوقة يشير بعصا في يده حتى لا تختل الأنغام ، وحتى تتناسق الأصوات ، فاذا جـاء وقت الرقص رقصت الجوقة على أنغام الموسيقى فتحركت أقدام القـرود وهي لم تشعر بحركاتها ، ولا إرادة لها في مثل هذه الحركات ، رجل تتأخـر ورجـل تتقدم ، كتف يميل ذات اليمين وكتف ذات الشمـال ، وبطن ينتفخ ثم يغور وظهـر يغور ثم ينتفخ ، ووجه يبتسم ووجه يعبس ، وغير ذلك من الحركات والاشارات ، والجوقة كلهـا تتحرك وتسكن بزر تضغط به الكهرباء ، فالحركات والسكنات والاشارات والانتفاخات والرقصات والنغمات ، كل هذا ابن الآلة وحـدها ، فالآلة في أميركة غلبت على كل شيء ، غلبت على المزارع والمعامل وعلى نواحي الحياة بحذافيرها ، حتى أثرت هذه الآلة في التفكير نفسه ، فكأن الأميركي مستعد لأن يركـزوا الأفكار في ذهنه بواسطة آلة من الآلات حتـى لا تبقى به حاجة الى التفكير ، ومن يدري ، فقـد يأتي يوم لا يفكر فيه بعقله ولا يشعر فيه بقلبه ، وانما تنقل اليه هـذا التفكير وهـذا الشعور آلة من الآلات ، واذا اهتـدى الخيال الأميركي الى اختراع آلة ترقص القرود بها وتغني وهي لا تشعر بهذا الرقص وبهذا الغناء أفلا يستطيع هـذا الخيال العجيب أن يخترع آلة يفكر الرجال بهـا ويشعرون وهم لا علم لهم بهذا التفكير وبهذا الشعور !

صـورتان .

تفننت أميركة في الاعلانات ، وما أظن أن أمة من الأمم بلغت في هذ الفن ما بلغته .

وجدت في سيارة من السيارات العامة صورتين :

تمثل الصورة الأولى « كوريا » وقد تهدمت دورها ، واحترقت أبنيتها ، فلست ترى فيها إلا سقفا فوق سقف أو عموداً فوق عمود ، أو درجاً فوق درج ، والدخان في هـذا كله متطاير قد عمّ الأنقاض بأجمعها ، وبين هذه الدور المتهدمة والأبنية المحترقة طفل صغير تجري الدموع على خديه ، لا أهل له يؤنسونه ، ولا دار تأويه ، يكاد القلب يتفطر من رؤيته ، وفي أسفل هذه الصورة كتبت العبارة الآتية : أيها الأميركي ! إن أردت أن لا يصاب وطنك وبلدك ودارك وطفلك بمثل ما أصيبت به كوريا فأكثر من الانتاج •

وتمثل الصورة الثانية جسراً كبيراً وقد وقف على طـرفه جندي من الروس وفي يده بندقية ، ووقف على الطرف الآخـر رجل أميركي يقول لرفقائه الأميركان : اذا أردتم أن لا يصل هـذا العدو اليـكم فأكثروا من الانتاج •

تستنهض أميركة رجالها للانتاج بمثل هذه الاعلانات التي تفننت فيهـا ، فهي لا تميل الى العمل لمجرد العمل وحـده وانما تجد فيـه حياتها ، فهي تعتقد أنها اذا قلّ انتاجها قلّت عظمتها في العالم ، وضعف سلطانها ، ولذلك نجد الأميركان كما قلت في أحـد خواطري يعبدون العمل عبادة ، مهما يكن في هذه العبادة من جهد وإرهاق •

غول الأميركان .

غول الأميركان في هذا العصر الروس ، ومن معاني الغول الشيطان الذي يأكل الناس ، فترى الأميركان يبحثون عن كل ناحية من نواحي هذا الشيطان الذي أقضّ عليهم مضاجعهم ، من جملة هـذه النواحي صورة غريبة وجدتها في احدى المجلات الأميركية ، وقد كتبت تحت الصورة العبارة الآتية : النـاس في روسية القديمة يعيشون ليأكلوا والناس في روسية الحمراء يأكلون ليعيشوا ، وأظن أن القارىء أدرك الفرق بين هذين النمطين من العيشة ، قسمت الصورة قسمين : قسم

يمثل روسية البيضاء وقسم يمثل روسية الحمراء ، أمّا الناس في روسية البيضاء وكلهم من علية القوم وعلى رأسهم القيصر نفسه فانهم يأكلون في أواني فضة وذهب ، ولكنهم كيف يأكلون ، فنرى أحدهم وقد تناول الحلواء بيده وأخذ يتلمظ وكأنه قد شعر بهذه العيشة الواسعة التي يعيشها ، وأمّا الناس في روسية الحمراء فقد جلسوا على السفرة وآثار الكآبة بادية على وجوههم ، وقد أخذوا يحسون المرق وكأنما همّهم الوحيد أن يملأوا المعد من الجوع •

لا ريب في أن أميركة تشعر بعيشتها اللينة الناعمة ، فلا يكاد الانسان يجد فرقا عظيما بين عيشة الأغنياء وبين عيشة العمال ، فالعامل قد يستطيع أن يحصل على كل شيء ، يستطيع أن يحصل على سيارته وعلى مطبخه الحديث وعلى المسخّنات والمبرّدات في داره ، واذا عجز عن العمل في شيخوخته فالحكومة تقوم بأوده ، انه لا يملك ما يملكه الغني ، فليس له شيء من المعمل الذي يعمل فيه ، ما خلا أجرته ولا يسكن قصرا مثل القصر الذي يسكنه صاحب العمل ، ولكنه يعيش العيشة الطيبة التي لا فقر فيها ولا جوع ، هذا ما رأيته بوجه عام ، وأنا لم أذهب الى أميركة من أجل الاستقصاء ، فقد يشذ بعض العمال أو الفقراء عن هذه القاعدة ، ولكن الحياة العامة إنما هي حياة واسعة ولا ريب •

هذه هي العيشة الراضية التي يفتخر بها الأميركان ، وهي التي توحي اليهم أن يسخروا من روسية الحمراء ولكن لي رأياً في هذا الموضوع ، فقد تعودت أميركة هذا النمط من الرفاهية ، وما أظنها تعودت شيئا من الخشونة ، فاذا أصيبت في يوم من الأيام بمصيبة عامة ، اذا وقعت في بلادها أزمة شديدة أو حدثت حرب أشدّ فهل تدوم هذه الرفاهية وهل يسهل على الناس أن يخشوشنوا وقد ألفوا العيشة الناعمة •

لا أعلم هل نظرت أميركة في عاقبة هذا الأمر من اليوم •

نيويورك NEW YORK

كثيراً ما دخل عليّ الوهم في زيارة المدن الكبيرة ، قد يكون لهذه المدن في ذهني صورة من الصور ، فاذا دخلتها انقلبت هذه الصورة ، فرأيت غير ما كنت أتصور ، ولا تنقص هذه الحال شيئا من عظمة المدن أو من خصائصها ، فان مدينة نيويورك لم يكن لهـا في ذهني هـذه الصورة التي رأيتهـا عليها ، كنت أتصور بحسب ما كنت أسمع من الذين يعرفونها أن أبنيتها تصـل الى السماء واني اذا أردت أن أرى آخر طاق من طيقان هذه الأبنية عجزت عن ذلك مهما يبلغ من رفع رأسي اليها وكنت أظن أن شوارعها بلغت من العظمة مبلغا لا أستطيع وصفه ، وما علي اذا قلت اني كنت أتوهم أن ناسها لا يشبهون غير ناس ، وأن أبنيتها لا تشبه غير أبنية ، وأن شوارعها لا تماثل غير شوارع ، ومـا أريد في قولي هذا أن أخفض من قدرها وانما أريد أن أعبر عن حالة نفسية تعتـريني في أول زيارتي للمـدن الكبيرة كمـدينة باريز أو نيويورك ، ولكن هـذه الحال لا تلبث أن تزول ، فيعود الذهن الى طبيعته فيرى الأشياء على حقائق صورها ، فكأن حجابا يلقى على هذا الذهن قبل الحال التي أشرت اليهـا ، ثم يرفع الحجاب عنه ، فيحكم على الأمور بحسب مقاديرها .

دخلت نيويورك في المرة الأولى ، فلم يشغل ذهني شيء منها وانما كان هذا الذهن قلقا ، مشتتا ، فلم يستطع أن يحكم على الأمور حكما

صادقا ، فقضيت فيها ليلة ثم خرجت منها كما دخلت ، ولكني جئتها في المرة الثانية وأطلت الاقامة بهـا ، فجلت في بعض شوارعها ، وزرت بعض آثارها ، ودخلت بعض مخازنها ، فانكشف لي جبروت هـذه المدينة ، فرأيت تناقضها ، واذا أحببت أن أجد صفة لها فلا أجد أصدق من هذه الصفة : انها مدينة جبَّارة ، فهي نظيفة قذرة ، موحشة مؤنسة ، عظيمة صغيرة ، هادئة صاخبة ، ساكنة متحركة ، تجد فيها كل شيء ، تجد مباني متراكبة يكاد يخنق الرجل في جوها ، وتجد مبـاني يلعب الهواء في أطرافهـا ، تجد شوارع أرسطوقراطية يسكنها الموسـرون والأغنياء مثل هـذه الشوارع الواقعة على مقربة من المتحف ، وتجد شوارع يشيع الفقر في جوانبهـا ، تمرّ ببعض شوارعها فترى آثار النعم عليها وأعني بهذه النعم الأخذ والعطاء ، ثم تمرّ ببعض شوارعها فترى آثار الشقاوة عليهـا مثل هذه الشوارع التي استقبلتني قبـل وصولي الى حديقة الحيوانات ، فالموت مستول عليهـا ، على أبنيتها السود الكئيبة ، كيف يتنفسون فيها وكيف يستضيئون ، وعلى أزقتها التي تشبه المقابر في وحشتها ، فأين كآبة هذه الأزقة من بهجة الشارع العظيم : « برودوي » تدخل بعض المطاعم فتجد فيها من نظافتها ما لا تجده في مطاعم أيّ بلد من البـلدان ، ثم تدخل بعض المقـاهي في شوارعها السود الحزينة ، فتجد الذباب في كؤوس الشاي ، تجول في بعض أسواقها فتراها هائجة مائجة كأنهـا البحر الهـادر ، أو الريح العاصف ، ثم تبعد الى بعض ضواحيها فترى فيهـا من الهدوء ما لا يخطر لك على بال ، تمشي في بعض شوارعها فتجدها ممتدة امتداداً منسقاً ، ثم تدخل هذا الشارع الذي سموه شـارع الجدار « ولت ستريت » فتجد الالتفافات والتعـاريج والمنحنيات والمنعطفات ، انه شـارع مخيف ، مخيف بسحن أهله ومعظمهم من اليهـود ، مخيف

بأبنيته المرصوصة ، وأغلبها مصارف ، فكأن رأس مال الدنيا كلها في هذا الشارع وكان بأيدي أهله مقادير تجارة العالم بأجمعه .

وسمي شارع الجدار لأنه بني في سنة ١٦٥٠ جدار من الشاطىء الى الشاطىء لحماية المستعمرة الصغيرة التي كان أهلها يعيشون في جنوب هذا الشارع من هجوم الهنود .

لا أدري كيف أصف « نيويورك » ولا أملك من البلاغة ما يعينني على هذا الوصف ، انها متناقضة في كل مظهر من مظاهرها ، فبينا تسمع الناس يقولون لك انك اذا تعرضت لامرأة ولم ترتح نفسها الى مثل هذا التعرض وشكت أمرك الى الشرطة نالك من ذلك ما نالك ، بينا يقولون لك هذا القول اذ تنطلق الى ضفة من ضفاف نهر « الهدسون » فتجد مئات السيارات مصفوفة عليه في ظلمة الليل ، في كل سيارة رجل وامرأة ، أمَّا حركاتهما في هذه السيارة فانك قد أخذت تدركها ، فقد بدأت بادراك الضمّ والشمّ والمصّ والقرص والعناق وما شابه ذلك كله ، ما خلا أمراً واحداً لايجوز عمله في داخل هذه السيارة ، والشرطي بين هذه السيارات مقبل مدبر ، يسكت عن كل هذه الحركات ، فقد سمح بها في عرف الآداب العامة في أميركة ما عدا الأمر الواحد الذي أشرت اليه ، فانه لا يسكت عنه ، فاذا وقعت عليه عينه فهو حر في التصرف في أنواع العقوبة التي يراها .

هذا شيء من التناقض في « نيويورك » في هذه المدينة الجبارة التي اذا ألف الانسان سكناها صعب عليه أن يغادرها فقد دخلت « مطعم دمشق » فلقيت فيه أحد أصدقائي من أيّام الدراسة ، فسلّم عليَّ وجلس إليَّ وتساقطنا شيئا من الأحاديث والأخبار ، فسألته عن عمله ، فقال لي انه جمع في يوم من الأيام نصف مليون دولار ، ثم طارت هذه الثروة ، فهو الآن لايملك شيئا ، وانما يشتغل بالسمسرة ، فقلت له : لماذا لا تعود الى دمشق ، فقال : لقد تعودت العيشة في

نيويورك ، ومن يتعود مثل هذه العيشة فلا يستطيع أن يعيش في أي مدينة غيرها .

مدينة مخيفة ، متناقضة ، جمعت أنواع الاختلافات ، ولا سيما الاختلاف في السحن ، فترى أجساما طويلة وأجساما قصيرة ، وترى قدوداً رشيقة وقدوداً بشعة ، وترى أجسادا قوية وأجسادا ضعيفة ، سر تحت الأرض فتجد غرائب الأشكال في هذه الأنفاق ، تجد الغرابة في السحن والخلق ، فتجد عناصر من جميع الأمم ، من العبيد واليونان وغيرهم ، شيخوخات هرمة وعجائز متهدمة . وترى أدبا في الأحاديث العامة ، ثم تمرّ بأعظم شارع من شوارعها ، تمرّ بشارع « برودي » فتسمع باعة الجرائد يتسابون بالألفاظ البـارزة عن ظل الأدب ممـا لا تسمعه في أضعف المدن حظا من هذا الأدب .

هيئة الامم المتحدة

أظن أن الانسان اذا وصل الى نيويورك فقد يخطر بباله أن يزور هذه المؤسسة التي سموها : هيئة الأمم المتحدة ، تقيم هذه الهيئة ببنيان واقع تجاه بحيرة النجاح في جو ّ يقل ّ فيه الدخان ، جو ّ صاف ملائم للسلم والسلام ، ولكن أين هذا السلم وأين هذا السلام !

ذهبت الى هذه المؤسسة مرتين أو ثلاث مرات لا أدري ، فكنت أنتبذ ناحية وأراقب حركات الناس ، أراقب جيئتهم وذهوبهم وأحاديثهم ووشوشتهم ، ولكني لم أشعر بأن على وجه واحد منهم أثر الاقتناع بأن هذه المؤسسة قادرة على شيء ، إن حكوماتهم انتدبتهم لحضور الجلسات أو لتمثيلها ، فهم يجيئون وكأنهم آلات مسخرة ، عليهم أن يتكلموا في بعض الأوقات وأن يسكتوا في بعض الأوقات ، وأن يقولوا : نعم، حينا ولا ، حينا ، ثم أجد اهتمامهم بشرب الشاي في المقصف أو بالغداء في المطعم أشد ّ من اهتمامهم بهذه الأمور التي انتدبوا اليها ، ولا أنسى مشية سفيرنا وهو مشغول الذهن ، ملبك التفكير ، كأنه يحمل العالم على ظهره ، وماذا وراء هذا الشغل وهذا التلبك ، وما هي نتائج هذا كله : لا شيء ، كلمات في بعض الجلسات فيها أثر من اللغة الشعرية لا تعمل أي عمل في أذهان الذين تعودوا لغة الأمر الواقع ، ولم يتعودوا لغة الخيالات الباطلة •

القاعة العامة في هيئة الأمم المتحدة فخمة مرتبة ، أمّا قاعة مجلس

الأمن فهي بسيطة ليس فيها شيء من العظمة ، ولا يشعر فيها الانسان برهبة ، في صدر هـذه القاعة صورة تمثل السلام في العـالم وانتهاء العبودية ، وقد عبّر عن هـذا السلام وعن هذا الانتهاء جندي ألقى سلاحه على الأرض ، وصورة مـرح ورقص ، وصورة عالم متصل بالسماء أي بأفق الملائكة ، صور كلها معقدة ، أين السلام وأين انتهاء العبودية ومن يفكر في السماء والملائكة ، واذا صدقت صورة من هذه الصور فلم تصدق الا صورة المرح والرقص !

دخلت قاعة مجلس الأمن لأحضر مناقشة تتعلق بفلسطين ، وأرى من الواجب عليّ أن أشير الى شعوري بالذل لمـا نودي على ممثل الأردن ليحضر الجلسة وعلى ممثل اسرائيل ، فقد ظهر الانكسار على وجه ممثل الأردن ولا بأس بأن ألخص رواية هـزلية مثلت في هـذه الجلسة .

كان ممثل لبنان الدكتور شـارل مالك ينوب عن الدول العربية كلها في مجلس الأمن ، حضر ممثل اسرائيل وألقى محاضرة دامت ساعة ونصف ساعة ، وكان وراءه مقـدار خمسة عشر شابا يعطونه من حين الى آخر وثائق للاستشهاد بهـا في محاضرته ، أمّا ممثل الأردن فقد جلس في صف آخـر مقابل له ، ولم يرفع رأسه من الأرض ، وعلامة الانكسار بادية على وجهـه . بُدىء بالرواية الهـزلية ، أطال ممثل إسرائيل الكلام ولم تكن اطالته عبثا ، فكأن غايتـه كانت أن يشعر الأعضاء بالتعب والملل حتى يضعف أثر كلام ممثل العرب اذا جاء دوره .

لايهمني أن أذكر ما قاله ممثل اسرائيل ، فقد فصّل قضية فلسطين من بدئها ، ثم تكلم على حادث القرية التي قتـل اليهود أبناءها ، ثم اقترح أمورا لتقرير السلم في الشرق الأدنى ، كل هذا لا شأن لي به ، فقد يستطيع ممثل اسرائيل أن يفرغ الباطل في قالب الحق أو بالعكس ، وانما الذي اهتممت به مراقبة ممثل العرب ، فقد كان يدوّن خواطره

على ورقة وهو يسمع كلام ممثل اسرائيل ، وما عليّ اذا قلت انه لم يوح إلي شيئا من الثقة من أول وقوع نظري عليه ، فقد كان كثير الحركات في جلسته ، مرة يلتفت الى اليمين ومرة الى الشمال ، وحينا يتقدم ، وحينا يتأخر ، الى غير ذلك من الحركات العصبية التي لا تدل على شيء من الرصانة ، وانما هي حركات يفتقر اليها الممثل على المسرح .

ولكني لما رأيته يدوّن خواطره قلت في نفسي : لعل وراء هذه الحركات عقلا راجحا ، فرغ ممثل اسرائيل من محاضرته ، فسأل رئيس مجلس الأمن : هل يريد أحد أن يرد على ممثل اسرائيل ، وكنت أنتظر أن ينتفض الدكتور شارل مالك وأن يثور ثورة العاصفة ، ولكنه لم يرفع اصبعه ، فانتقل حينئذ رئيس المجلس الى جدول الأعمال ، وجاوز أمور فلسطين ، كان كلامه عاما ، لم يذكر فلسطين ولا العرب ولا اليهود ، وانما ذكّر بنصوص المجلس والمحافظة على السلم وطلب الى الجنرال ولم أذكر اسمه ، وانما كان حاضرا وأظنه كان كبير المراقبين في لجنة الهدنة في فلسطين أن يدرس الوضع وأن يضع تقريره ومقترحاته في خلال ثلاثة أشهر لاقرار السلم في فلسطين.

ذكرتني هذه الأمور كلها ما كان يجري في جمعية الأمم في جنيف على أيام الانتداب ، فقد كان يقع في سورية ما يقع من المظاهرات والاحتجاجات والثورات ، فينهض ممثل فرنسة في الجمعية « روبيردي كه » ويغالط ما شاء من المغالطات ، فينتهي هذا كله بأن يطلب اليه أن يذهب الى سورية وأن يضع تقريرا عن الحال فيها !

خلاصة الأمر لم يوح إليّ مجلس الأمن شيئا من الثقة ، فان المحكمة القادرة على تنفيذ مقرراتها والمتهاونة بهذا التنفيذ انما هي محكمة مقصرة في واجبها .

أمّا الرواية الهزلية فقد بدىء بها بعد دقائق من كلام رئيس مجلس الأمن ، فقد رفع مندوب العرب إصبعه وطلب حق الكلام على فلسطين ، فقال له رئيس المجلس : ان حقه في هـذا الكلام قد سقط من بعد سؤاله : هل يريد أحد أن يتكلم ولم يرفع أحد اصبعه ، وذكره بأنه في هيئة الأمم من سنين طويلة وبأنه يعرف النظام حق المعرفة ، وطرح الرئيس على الأعضاء هـذا السؤال : هـل توافقون على إعطائه حق الكلام ، فاقترح منـدوب الصين تأجيل الجلسة لأن الكلام يطول ، والأعضاء قد تعبوا ، فأجلت الجلسة .

الذي حسبته في الأصل وقع ، فقد أطال ممثل اسرائيل محاضرته حتى يتعب الأعضاء ويملوا ، وقد تم له ما أراد ، ولما جاء حق الرد عليه تهاون ممثل العرب باستعمال هذا الحق ، ولما فاته هذا الحق أخذ يطالب به .

هذا هو التمثيل بعينه ! هذه هي الرواية الهزلية !

الملاهي .

لا بد من زيارة مسرح من مسارح « نيويورك » اقترحت علينا خطيبة رفيقي الدكتور ايلي سالم أن نذهب الى : « راديو سيتي » فذهبنا فوجدنا فيه منتهى ما يصل اليه الاتقان ، فالمسرح يتغير في خلال ثانية ، معنى هـذا اذا انتهى الممثلون على المسرح من عملهم انخفض بهم مسرحهم ، ثم ظهر مسرح آخر في ثانية عليه ممثلون من نوع آخر .

أعظم شيء على هذه المسارح الرقص ، فتجد جوقة من أربعين أو خمسين راقصة قدودهن واحـدة ، وسيقاهن واحـدة ، وأجسامهن واحدة ، ترتفع الأيدي والسيقان والأقدام في طرفة عين ، وكأنها قطعة واحدة لا تزيد ولا تنقص إصبعا . أمّا خفة حركات الرقص فوق الحبل

وتحت الحبل ، وأمّا القفز من الأرض والتقلب في الهوآء فهذه حركات قد يجوز أن تتقنها راقصات في بلاد ثانية ، فالأميركانيات ينصرفن الى إتقان الرقص ويساعدهن على ذلك رشاقة قدودهن الناشئة في الأغلب عن الرياضة البدنية .

أمّا « الاوبرا » في نيويورك فقد ذهبت اليها مرة ، ولكني لم أشعر بشيء من الميل الى هذا النوع من الغناء والتمثيل في وقت واحد ، والقضية قضية ذوق ليس غير ، فأنا لم أذق لذة الغناء ولا ذقت لذة التمثيل في « الاوبرا » وقد كان الى جنبي شاب أميركي مهندس جاء الى نيويورك لقضاء ليلتين فيها ، فسألني عن رأيي في هذه « الاوبرا » فقلت له لم يهزني شيء منها ، فقال : وأنا كذلك !

جامعة « كولومبيا » .

زرت جامعة « كولومبيا » في نيويورك بعد أن سئمت زيارة الجامعات ، انها مرتفعة عن المدينة ، على بضع خطى من نهر « الهدسن » تقابلها من شط هذا النهر مدينة « نيو جرسي » الضاحكة .

لم أجد في هذه الجامعة على شهرتها العظيمة شيئاً من الحياة ، فكأنهم اعتاضوا عن خضرة الأرض خضرة السطوح ، فالسطوح كلها خضر بألوانها ، فلا حدائق ولا غابات ولا شجر ، كأنها معمل من معامل « نيويورك » انها مناسبة لهذه المدينة العظيمة ، أين الطلاب ، أين الطالبات ، أين الملاعب الكبيرة ، مثل هذه الجامعة كمثل « نيويورك » نفسها ، انها قطعة منها ، قطعة من ظلمتها وكآبتها وضجتها ، مقامها بين الشوارع والسيارات ، ولكن فيها كنيسة عظيمة وأعظم شيء إنما هي الأجراس في البرج ، فلا يستطيع الانسان أن يتصور ضخامة هذه الأجراس ، كيف تدق ، كيف تكون أنغامها ؟ واذا وقف الانسان في هذ االبرج رأى عظمة « نيويورك » ، رأى هذه

السيول الجارفة من السيارات تهدر ولا هدير البحر •

ما أشد التناسب بين جـامعة « كولومبيا » وبين « نيويورك » فلنخرج منهـا ولنسرع في ذلك ، ولكنني لم أخرج إلا ونصب عيني صورة الرئيس « ايزنهاور » في لباسه الجامعي في حفلة توزيع الاجازات، وهكذا نجد أن رئاسة الجامعات في أميركة أصبحت مقـدمة لرئاسة الولايات المتحدة ، ألم يكن الرئيس « ولسن » قبل ايزنهاور رئيسا لجامعة « برنستن » !

٢٧ تشرين الثاني ١٩٥٣

مدينة في مخزن .

أخذت أميركة بأجمعها تستعدّ لعيد الميلاد وهي تستعدّ لهذا العيد قبل شهر أو أكثر ، فترى الأسواق غاصة بالناس ، رجل وزوجته ، أو امرأة وولدها ، يطوفون بالأســواق ، فيضربون بأعينهم في جـامات المخازن ، فيشترون ما يروقهم من الثياب واللعب والتصاوير والهدايا ، ويستمر هذا الطواف شهراً كاملا ، وفي يوم العيد ترى المدن كلهـا زاهية بألوان الكهرباء ، وقد طفقت هذه الأنوار تتلألأ في الأسواق من اليوم على اختلاف هذه الألوان ، لم أحضر عيد الميلاد ، فقد غادرت أميركة قبل هـذا العيد بعشرين يوما ، ولكني شهدت شيئا منـه في أسواق « نيويورك » شهدت الزحمة في النهـار والأضواء في الليل ، لقـد دخلت مخزنا قيـل لي انه أكبر مخـازن العـالم وهو Maey's لا أشك في ذلك ، فان الذين رأيتهم من رجال ونساء وأطفال بعد الظهر في هذا المخزن وهم يشترون يكاد عددهم يبلغ عدد الذين يشترون في النهار من مدينة يبلغ سكانها أربعمائة ألف نفس •

BROOKLYN بروكلين

لا أريد أن أغضي على شكر قنصلنا العام في « نيويورك » السيد روحي جميل ، فان الذين يعرفونه يعترفون بدماثة خلقه ورقة أدبه وجده في العمل ، فهو مثل الموظف الذي يشعر بتبعته في الوظيفة ، لم يترك السيد روحي وسيلة من الوسائل إلاّ توسّل بها الى إكرامي ، فقد دعاني الى منزله مرّات ، وسار بي في سيارته الخاصة الى « بروكلين » لأزور هذا الحيّ الذي يقيم به أبناء العرب من سورية ولبنان .

تظهر على « بروكلين » كآبة الشرق ، فكأني في حيّ يختلف عن أحياء « نيويورك » الصاخبة ولكن الذي سرّني في « بروكلين » أني أدخل مطعما فأسمع الناس يتكلمون بالعربية إلا أن هؤلاء الناس هم آخر من يتكلم بهذه اللغة لأن أولادهم من بعدهم يجهلون العربية .

لقد دخلت محل « علوان » فوجدت أنواع الحلواء الدمشقية مصفوفة في الصواني ، فسألته عن عمله ، فحمد الله وقال : ان شغلي ليس في نيويورك وحدها وانما أرسل الحلواء الى الهند والى انكلترة ، وأكثر ما يباع في الهند من هذه الحلواء الراحة المحشوة بالفستق .

ثم دخلت مخزنا فوجدت فيه الأستاذ سامي الشوا الموسيقار المشهور ، وصاحب المخزن يسمعه أسطوانة من عزفه ، ولا شك في أن الانسان يأنس بهذه المطاعم والمخازن في مدينة مثل « نيويورك » تفصلها عن سورية ولبنان بحور مترامية الأطراف ، انما عادات الشرق

واحدة ، سوآء أكانت في سورية ولبنان أم كانت في« نيويورك » ففي الشارع ٥٤ مطعم دمشق لصاحبه جورج بخاش الحلبي ، وهو المطعم الذي كان يختلف اليه دولة الأستاذ السيد فارس الخوري وعقيلته ، ولم يكن هذا المطعم في بروكلين • تجد أبناء العرب بعد الأكل يقضون وقتا لا بأس به في لعب النرد و « الكونكان » وهذا شيء لا تجد مثله في المطاعم الأميركية •

لقطنا ونحن في بروكلين أحد أبناء العرب على الطريق سمعنا تتكلم بالعربية ، فسلَّم علينا وماشانا ، سألته عن مدة إقامته بنيويورك ، قال : أنا فيها من ست وأربعين سنة ، قلت له : الى أين أنت ذاهب الآن ، قال : الى القهوة ، فعلمت أن هذا الرجل أضاع وقته في أميركة ولم يجمع شيئا من المال ، فان الجلوس في المقاهي في أميركة معناه إضاعة الوقت ، أحببت أن أتحقق من ظني بهذا الرجل ، قلت له : كيف شغلك ، فقال : يسترها ربك ، وهل يأخذ الانسان معه شيئا الى الآخرة !

ان ظني بهذا الرجل كان في محله •

الاعلانات .

أغادر « نيويورك » والاعلانات ماثلة لعيني ، فهي آخر صورة من الصور التي أنقلها معي ، يكاد الانسان يحار في تفنن القوم في اعلاناتهم ، ويكاد يحار في هذه الأنوار التي تتلألأ في الليل ، أنوار الاعلانات وأضوائها ، وهل أبالغ في قولي اذا قلت إنّ ما ينفقونه على أنوار الاعلانات في شارع « برودوي » يكاد يضيء بلدة صغيرة •

اضرب بعينك في حيطان « برودوي » في الليل ، انك ترى شلاّلات من الكهرباء تهتز على هذه الحيطان ، وهي تعلن بنوع من السجاير

أو بنوع من الثياب أو بأنواع ثانية لا يحصيها إحصاء .

ثم اقرأ على أبواب دور السينما ، فانك تجد أسماء الروايات زاهية بمختلف الألوان ، ولكن ما هي هذه الروايات وما هي موضوعاتها : كيف تتزوجين صاحب ملايين ، هذا موضوع من الموضوعات ، وكيف تصبح غنياً ، هذا موضوع آخر ، ولكنه موضوع كتاب تجده في جامات الدكاكين ، لا موضوع رواية في السينما .

ثم ارفع رأسك الى السماء ، فانك تجد الطائرات تشق أعنانها ، ولكنها لا تحمل ركابا وانما ترسم خطوطا في هذه السماء ، اذا جمع بعضها الى بعض كان في جمعها اسم شركة أو محل تجاري أو بضاعة أو غير ذلك .

أميركة على وجه عام حياتها ظاهرة في اعلاناتها و « نيويورك » على وجه خاص ، واني أعتقد أن رونق شوارعها في الليل ولا سيما شارع « برودوي » انما هو في أنوار الاعلانات وأضوائها .

أجل لقد تفنن القوم في هذه الاعلانات وقد دار حديث بيني وبين أحد تجار فلسطين المقيمين بواشنطن ، فقال لي : لقد مهر القوم في الاعلان كل المهارة ، فهم يطبقون في هذه السبيل علم النفس ، فتراهم يصفون بضائعهم في جامات مخازنهم على شكل لا تستطيع معه المرأة اذا وقعت عينها على هذه البضائع أن تتفلّت من الشراء .

ان ما يقوله هذا التاجر صحيح ، وقد رأيت الأمر بعيني ورأيت مقدار استمالة هذه الجامات للسيدات ، فكنت أرى تزاحمهن عليها واسراعهن الى دخول المخازن للشراء ، فان علم النفس يستخدمه الأميركان أحيانا في سبيل الربح ، فقد قرأت مرّة مقالا في موضوع من موضوعات هذا العلم ، فقال صاحب المقال في خاتمته : وقد طبّقت هذه الأساليب في المعمل الفلاني فربحت تجارة صاحب هذا المعمل ربحا عظيما .

همّ أميركة كلها الانتاج والبيع والربح ، انها تجد عظمتها في هذا الانتاج وهذا البيع وهذا الربح ، ولكن هذا الطرز من السياسة اذا جلب لأميركة النفع في الماضي فانه يجلب للعالم كله الضّر في الحاضر ، وأظن أن مشكلات العالم يومنا هذا قائمة على هذا الانتاج ، أمم تريد أن تفرض منتجاتها على العالم ، وأمم استفاقت من نومها وأحبت أن تنجو من سلطان الاحتكار ، فتستقل بمذاهب اقتصادها ، فتنتج اذا قدرت على الانتاج وتشتري من الأسواق التي لا ترى فيهـا غبنا ، والتناحر واقع بين هذين الصنفين من الأمم ، والأفراد هم الذين يذوقون عذاب هذا التناحر ، فما نسمعه من اختراع القنـابل الذرية ونظائرها من أدوات جهنم ان هو إلاّ عاقبة وخيمة من عواقب التناحر .

هذه آخر فكرة أخرج بهـا من « نيويورك » ومن أميركة وهذه آخر صورة تصحبني في رجوعي الى دمشق .

WASHINGTON واشنطن
مزاحمة المرأة

١ كانون الأول : واشنطن

جاءتني فتاة من فتيات وزارة الخارجية وقد كانت هذه الفتاة نفسها قابلتني في « واشنطن » في جيئتي الأولى وطرحت عليّ سؤالات شتّى ، وأعطت وزارة الخارجية جواباتي ، ويظهر أن في الوزارة دائرة مختصة بمثل هذه الأمور ، يرسلون الى الزوّار الأجانب من يقابلهم ، وينقلون أحاديث عنهم ، ثم ينشرون هذه الأحاديث .

في المرة الأولى كان الترجمان واسطة بيني وبين هذه الفتاة ، وفي المرة الثانية كان الحديث بيننا من دون ترجمان ، لأني جمعت معلوماتي القديمة بالانكليزية ، وتمرنت بعض التمرن على الكتابة والكلام في أثناء الرحلة .

هذه الفتاة من أصل ألماني واسمها معناه بالألمانية : الظلمة ، فقلت لها : لقد ظلمك أهلك ، كان يجب عليهم أن يسموك القمر بدلا من أن يسموك الظلام ، انها وديعة في ظاهرها ، هادئة المزاج ، قايلة الحركة ، يغلب عليها شيء من الجد والخفر ، سألتني على عادتها كيف كانت رحلتي وما الذي استهواني في هذه الرحلة وما هي البلاد التي زرتها وغير ذلك من السؤالات ، ثم استغربت حديثي معها بالانكليزية وقالت : في المرة الأولى احتجنا الى ترجمان بيننا والآن استغنينا عن

الترجمـــان .

ذكرت لهذه الفتاة الأنيسة البلاد التي زرتها والجامعات وقلت لها : أمران في أميركة أخذا بمجامع قلبي : مشاهد الطبيعة والجامعات ، ثم دخلنا في ناحية من نواحي الاجتماع ، فتكلمت على المـرأة الأميركية بحسب ما تيسر لي ، وقلت ان المرأة في أميركة أخذت تخرج عن طبيعتها في مشاركتها للرجل في أعماله ، ان هذه المشاركة لا تلبث أن تضعضع قواعد الحياة الاجتماعية ، فكيف تستطيع المـرأة أن تعمل في النهار وأن تعنى بدارها وبأولادها في وقت واحـد ، فالمرأة الأمـيركية قد اشتطت في هذه السبيل اشتطاطا قد يؤدي في عاقبة الأمر الى شيء من التنازع بينها وبين الرجل .

سمعت الفتاة هذا الكلام ، فتغيّر لونها وظهر هدوء الكآبة على وجهها ، ولم يعجبها كلامي ، فقالت لي : ان اختي متزوجة وهي على الرغم من زواجها لا تهمل دارها وأولادها ، فلما رأيت الانكسار على وجهها وكلامها قلت في نفسي : رفقاً بالقوارير ! وأخذت أبسط لهـا رأيي بوجه أوضح ، وقلت لها لا بد في بعض القواعد من الاستثناء ، وقد يجوز أن تكون أختك من غير النمط الذي أتكلم عليـه ، وقد يجوز أن تكوني أنت نفسك في زواجك أشد اعتناء بأولادك من أختك ، ولكن حديثي عام .

على هذه الصورة فرّجت بعض الشيء من غمّ هذه الفتاة الناعمة . ما أغرب هـذه الأمور ! لا تريد المـرأة الأميركية أن تتخلى عن العمل ، عن مشاركة الرجل في كل الحياة ، عن مزاحمتها لهذا الرجل ، ولكن ما هي عاقبة هذه المشاركة وهذه المزاحمة ؟

محاضرة في المسجد .

دعيت الى إلقاء محاضرة في المركز الاسلامي في « واشنطن » أي

في المسجد ، دعاني مـديـر المركز الدكتور محمود حب الله ، وهو من مصر ، وقد حضر مؤتمر الثقـافة الاسلامية في « برنستن » فأجبت الدعوة ، ولم أجد في قاعة المحاضرة إلاّ جمهورا قليـلا وقيل لي ان الناس اذا حضروا محاضرة في هذا المسجد فلا يتجاوزون خمسين أو ستين رجلاً وامرأة ، ومعظمهم أميركان ، ولست أدري السبب في قلة هذا العدد ، ولكنني أعتقد أن من جملة الأسباب قلة عناية القائمين على المركز الاسلامي ، فهم يدعون المحاضر ، فاذا أجاب الدعوة فلا يهتمون به ، فاذا قلت عنايتهم بالمحاضر فلا شك في أن عنايتهم بجلب النـاس الى المحاضرة أقل .

موضوع محاضرتي ناحية من نواحي الجاحظ وهي الناحية العلمية ، وقد أوحت إليّ هـذا الموضوع البيئة الأميركية نفسها ، فقد طفت بكثير من ولايات أميركة وكنت كثيرا ما أسمع كلمة الاسلام ، ولكن معرفة حقيقة الاسلام في أميركة لا تزال مشوهة .

بحث في مؤتمر الثقافة الاسلامية في جامعة « برنستن » عن العلم في الاسلام وأذكر أنه قيل ان العلم لا يتصل بالاسلام ، وفي جـامعة « ستانفورد » طرحوا عليّ في قاعة غصت بالناس هذا السؤال : هل يتسع الاسلام لأطوار الحياة الحديثة وفي « سان فرنسيسكو » قال لي أحد الأميركان : ألا تعتقد أن خمس صلوات في النهار مضيعة لأوقات المسلمين ، وفي مدينة « الباكركي » جاءني صحفي وقال لي : أترى أن الاسلام يساعد على نشر السلام .

من هـذا كله تبين لي أن الاسلام لا يزال مجهولا في أميركة وأن مبادئه القويمة قد يجوز أنه قد شوّهها بعض المشوهين ، فأحببت أن أتكلم في مسجد « واشنطن » على إمام من أئمة المسلمين لم يمنعه دينه عن الخوض في مسائل العلم على أحدث الأساليب في عصرنا هذا حتى أجيء ببرهان صادق على أن العلم يتصل بالاسلام وعلى أن الاسلام لم يكن عدوّ العلم في أحكامه .

لا حاجة بي الى أن أعيد في هـذا المقام ما قلته في الجاحظ ، فقد لخّصت أصوله التي يبني عليها في الوصول الى معرفة الحقيقة ، فهو يستعين بالحواس وبالعقل على إدراك الحقائق ، وهـذه هي طـريقة « باكون » و « ديكارت » .

وبعد أن فرغت من الاشارة الى أساليب الجاحظ في تحقيقه العلمي قلت للجمهور : كيف يقولون ان العلم لا يتصل بالاسلام وقد وسعت لغة الاسلام كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وبقراط وجالينوس واقليدس وأرخميدس وبطليموس ، وهي في موضـوعات شتى في السيـاسة والتوحيد والمنطق والشعر والخطابة والأخلاق والرياضيات والنجوم ونحو ذلك ، لقد أنشأت قراءة كتب أرسطاطاليس رغبة في الفلسفة ، فكانت الفلسفة فاشية في طبقات المفكرين العلماء من المسلمين ، وطبّق المسلمون الفلسفة على السيـاسة ، فكان بعض مؤلفـاتهم السياسية يشتمل على جملة من النظرات الفلسفية ، وجارت الرياضيات الفلسفة ، ونقلت كتب بعض المسلمين في الجبر والحساب الى اللاتينية ، وانتشرت في أوروبة ووضع المسلمون كتبا في النجوم .

وعلى الرغم من هـذه الحقيقة الناطقة تحامل بعض الغربيين على الاسلام تحاملا فاحشاً ، وفي مقـدمة المتحاملين « رنان » الفيلسوف الفرنسي الذي قال في بعض كتبه :

« ان الذي يميز العـالم الاسـلامي انما هو اعتقاد المسلمين أن البحث لا طائل فيه ولا شـأن له ، وانه قد يؤدي الى الكفر ، فعلم الطبيعة يؤدي الى الكفر لأن هـذا العلم ينـازع الله سلطانه ، وعلم التاريخ يؤدي الى الكفر لأنه اذا امتد الى العصور التي جـاءت قبل الاسلام أحيا أضاليل قديمة ، فمعتقدات هذا شأنها تفضي الى النتائج الآتية : فقد يصبح خمول الذهن وقلة المبالاة من الفضائل ، فكلمة : والله أعلم ، انما هي فصل الخطاب في كل مناظرة اسلامية ! » .

ان كلاما مثـل كلام « رنان » لا يخلو من تعصب يشمئز منـه الانسان ، والظاهر أن الرجل وقعت عينه على طائفة من المسلمين الذين أعمى الاستعمار الفرنسي بصائرهم وأبصارهم ، وأمات فيهـم حب العلم ، فحكم على الاسلام بما رآه من بعض المسلمين المغلوبين على سلطانهم في إفريقية ، ولم يشأ أن يبحث عن أعاظم العلمـاء في تاريخ لاسلام وأرجو أن يقل في عصرنا هذا ، عصر البحث المجرّد والتحقيق النزيه ، عدد الذين يمشون على آثار « رنان » في التحامل والتعصب.

استفاقت أوروبة من نومها ونام المسلمون حيناً من الدهر ضعف فيه سلطان سياستهم ، فانحلت خلافتهم ، وتشتت كلمتهم ، وتغيرت أخلاقهم ، فأصابهم ما يصيب أكثر الأمم العظيمة التي تصل الى رأس العظمة ثم تنحط كالرومان في القديم ، ولكن أقل زيارة لقسم من هذا الشرق الممتد من وراء المحيط الهـادىء تدل على أن المسلمين شرعوا اليوم يلتفتون الى إخوانهـم المسلمين في أيّام الجـاحظ ويتقيّلون طريقتهم ، فيتصلون بحضارة هـذا العصر وعلومه ، ويتبعون أطوار الحياة الحديثة ، ولا يأتي عليهم حين من الـدهر غير طويل إلاّ وقد وسع اسلامهم هذه الحضارة وهذه العلوم في الحديث كما وسعها في القديم : وتلك الأيام نداولها بين النـاس !

الرحلة الثانية

— ١٩٥٥ —

٦ تشرين الثاني ١٩٥٥

غادرت « نيويورك » في رحلتي الأولى في ٥ أو في ٦ كانون الأول سنة ١٩٥٣ وأذكر أني لم أخرج من الولايات المتحدة إلاّ وقد شعرت بأن روحي عادت الى مقرها ، فقد سئمت كل شيء في أواخر الرحلة ، ولم يشغل ذهني إلا الرجوع الى الوطن ، فقد بلغ مني الحنين الى دمشق كل مبلغ ، ولكني ما كادت النوى تستقر بي في دمشق حتى عادت الى ذهني صور الولايات المتحدة ، وأخذت تخطر على بالي ؛ وأخذت أفكر في الرجوع اليها حتى جاءت نوبة ايفادي ، فان كل أستاذ من أساتيذ الجامعة يحق له أن يوفد من أجل الدراسة والاطلاع ، فاخترت السفر الى الولايات المتحدة مرة ثانية للدراسة والاطلاع وهذا حق من حقوقي ، ولكني آثرت هذه المرة أن أقيم بواشنطن مدة الايفاد كلها ، أي ستة أشهر والسبب الذي حملني على تفضيل واشنطن هدوء هذه المدينة العظيمة ، فقد علقت صورتها بنفسي من الرحلة الأولى .

تركت دمشق في ٦ تشرين الثاني ١٩٥٥ ولكن ما أعظم الفرق بين شعوري في الرحلة الأولى وبين شعوري في الرحلة الثانية[١]، فقد كنت في المرة الأولى رهين كل شيء ، كنت رهين محابس شتّى ، فلم يكن لي مشيئة في قطع بطاقة سفر أو حجز محل في فندق ، ولم يكن لي

---

(١) ورد سهوا في كلمة التصدير ان الرحلة الثانية كانت سنة ١٩٥٦ ! والصحيح انها كانت سنة ١٩٥٥

قدرة على الانفراد بالحديث لأن انكليزيتي لم تكن تساعدني على شيء من ذلك ، أمّا في الرحلة الثانية فقد شعرت بالاستقلال ، كنت أستطيع أن أحدث بالانكليزية جيراني في الطـائرة وكنت أستطيع أن أقابل دائرة الجوازات وحدي وأن أخلص عيـابي من الجمرك بنفسي وأن أذهب الى الفندق الذي أريده وأحجز فيه محـلا دون واسطة ، قد تكون هذه الأمور كلها تافهة ، ولكن هـذه الأمور التافهة هي التي جعلتني أشعر بالحرية والاستقلال ، فأصعب شيء في السفر أن يكون الانسان رهين المحابس .

٧ تشرين الثاني ١٩٥٥

أذكر أني وصلت الى نيويورك قبل الظهر ، وقد كان في انتظاري في المطار السيد روحي جميل قنصلنا العام في نيويورك ، وإذا كررت الثناء عليه في هذا المقام فاني أجد أن هذا التكرير قليل بالنسبة الى أخلاقه . دعاني الى الذهاب الى نيويورك وقضاء أيام فيها ، فاعتذرت وقلت له : اني لا أحب هذه المدينة الجبارة ، فاسترحنا مقدار ساعة في مقصف مائج بالفتيات والنساء والرجال ، ثم أسرعت الى الطائرة ، فبلغت واشنطن بعد ساعة على ما أذكر .

دخلتها والمطر نازل ، واذا بقيت في ذهني صور من مدخلهـا من المطـار فقد بقيت صور تدل على العظمة في كل شيء ، عظمة الطبيعة وسحر الريف ، ولكني شبعت في رحلتي الأولى من هذه العظمة ومن هذا السحر وصحّت عزيمتي في الرحلة الثانية على أن أشبع من المجتمع وحده ، فلا أريد هذه المرة شلالات ولا بحيرات ولا أنهارا ولا بحارا ولا سهولا ولا جبالا ، وانما أريد المجتمع لعلي أصل إلى إدراك يسير من خصائص هذا المجتمع .

٨ تشرين الثاني ١٩٥٥

اخترت فندقا اسمه « Continental Hotel » على مقربة من أعظم المباني في واشنطن ، يجد المرء على يساره دائرة البرق والبريد وهي من أروع الدوائر ، ثم يجد الى جنبها محطة واشنطن وحسب هذه المحطة أن يدخلها الانسان ويستريح على مقاعدها ، فلا يحتاج الى شيء من كتب ومجلات ومطاعم ومشارب إلا وجده فضلا عن هذا السيل الجارف من البشر الذي لا ينقطع لا في الليل ولا في النهار ، فكنت أقضي في المحطة كل يوم ساعة أو ساعتين ، وأنا أتفرس في هذه السحن المختلفة ، وأقول في نفسي كيف استطاعت هذه العناصر المتباينة والأمم المتفاوتة ذات الأخلاق المتباعدة والعقول المتنافرة أن يعيش بعضها الى جنب بعض •

ثم يجد المرء أمام الفندق حدائق تشبه حدائق « التويلري » في باريز وقد تناثرت عليها مباني « الكونغرس » ومكتبته الفريدة والمتحف الوطني • انفردت في أول الأمر بهذا الجزء من واشنطن فبعدت عن المدينة وشوارعها ومخازنها لأني وجدت فيه ما أستغني به عن كل شيء •

لقد قضيت أياما أو أسابيع في هذا النحو من العيشة أتأمل وأخذت أخزن في ذهني الصور وأقابل مرة وأستنتج مرة حتى ازدحمت في البال الخواطر ، واذا لم أجد في هذه الخواطر العمق الذي أريده فأرجو أن أجد فيها طبعا بعيداً عن كل تصنع •

واشنطن WASHINGTON

الحية والأرنب

أول هذه الخواطر : الحية والأرنب ، فقد قرأت في مجلة من مجلات واشنطن العبارة الآتية :

« إن اسرآئيل لا تقف مغلولة الأيدي مسترسلة في الذهول كمثل الأرنب الذي ينتظر الحية من حوله حتى تكبر وتبلعه » .

هذا القول قاله سفير اسرائيل في واشنطن على ذكر شراء مصر للسلاح ، ولقد وجدت فيه كل شيء ، وجدت فيه عقلية اليهود بحذافيرها ، يقولون ان لغة التوراة من أكثر اللغات شعراً أي صوراً وتشبيهات ، وهذا سفير اسرائيل يلجأ الى اللغة الشعرية في كلامه ، ولكنه لا يبعد في تشبيهاته واستعاراته ، وانما يعمد الى اللغة الشعرية القريبة ، فالحية كل واحد يعرفها ، وكذلك الأرنب والأميركان الذين هم أبعد الأمم عن اللغة الشعرية بسبب حياتهم الميكانيكية يفهمون هذه الصور الفهم كله .

أين عقلية اليهود في هذه العبارة ، من خصائص اليهود في العصور البعيدة الشكوى ، فهم يظهرون في مظاهر الضعفاء المساكين المظلومين، لقد صوروا مصر في صورة الحية التي تريد بلعهم وصوروا دولتهم في صورة الأرنب ، ولكنه أرنب حذر ، ولا شك في أن الأميركان اذا

سمعوا هذا القول أخذوا بظاهره واعتقدوا أن مصر تريد بلع الأرنب المسكين ، من هذا يشتد عطفهم على إسرائيل •

الواقع أن الذي يريد بلع العرب انما هم اليهود أنفسهم ، فاسرائيل في الحقيقة هي الحية لا مصر ولا غيرها من دول العرب ، فان العرب لم يخرجوا اليهود من ديارهم ، ولم يشتتوهم بين سمع الأرض وبصرها ، ولكن اليهود هم الذين اعتدوا على العرب ومع هذا كله انهم يصورون العرب في صورة الحية التي تريد بلعهم ، على أن العرب يريدون سلتهم بلا عنب ، هذا هو خلق اليهود من أيام التوراة ، انهم يلبسون لباس الفقر ويخفون الغنى من تحته ، ويلبسون لباس الضعف ويكتمون القوة من ورآئه ، جلبا للعطف عليهم ، حتى اذا أشفق المشفقون عليهم أظهروا غناهم وقوتهم ، وبطشوا جبارين •

ولقد وقف اليهود على عقلية الأميركان وأخذوا يخاطبونهم على مقادير عقولهم ، وهذه المخاطبة من أسباب نجاحهم ، ولا شك في أن لنجاح اليهود أسباباً كثيرة لا مجال الى بسطها في هذا المقام ، ومن أراد أن يعرف من هم اليهود في أميركة فليقرأ مقالا نشر في مجلة « لوك » ، لقد أخذوا بمخنق الأميركان في مجامع النواحي ، في المال والسياسة والمحاماة والطب والتجارة والصحافة ودور السينما وفي « الكونغرس » نفسه ، واستولوا على مدن أميركة الكبرى : نيويورك وشيكاغو ولوس انجلس ، وهذا أمر أصبح معروفاً ، فالأميركان لا يمكن أن تحل قضية فلسطين على أيديهم ما داموا ينظرون اليها من ناحية واحدة ، أي من ناحية تأثير اليهود في الانتخابات ، فاذا أرادوا حلها وفقا لمبادىء جورج واشنطن في الحرية لزمهم أن يزهدوا في أصوات اليهود في الانتخابات ، انهم لم يفعلوا هذا الأمر حتى اليوم وأظن أنهم لن يفعلوه بعد اليوم •

لذلك لا تحل قضية فلسطين الا في فلسطين ، فان الحية اذا لم تبلع الأرنب من اليوم كبر الأرنب وبلعها !

بلاد الفسيفساء

سألني صديق أميركي في دمشق بعد رجوعي من أميركة من سنتين : كيف لقيت الأميركان ، فعكست الأمر وسألته : كيف لقيت السوريين ، فقال : لقينا فيهم حسن الصداقة والعشرة والألفة •

لقد خطر ببالي قوله هذا وأنا الآن في أميركة للمرة الثانية ، ان هذا الأميركي لفتت نظره أمور قلما يشعر بها قومه في بلادهم •

لما وصلت الى واشنطن فتحت الهاتف على صديق أعرفه من سنتين وبيني وبينه مكاتبات وزرته في اليوم الثاني وسألته عن أهله وقبل الانصراف من عنده قال لي : سنجتمع على غداء بسيط ولكني لم أره بعد زيارتي ، ولا اجتمعنا على غداء بسيط ولا على غداء مركب ، وهذا وجه الضيف كما تقول في دمشق •

ولي صديق لبناني في بيروت أعطاني قبل سفري عنوان سيدة تدرس في احدى جامعات واشنطن ، وقال لعل الاتصال بها ينفعك في مهمتك ، فلما استقر بي المقام في واشنطن كتبت اليها كتابا وأعلمتها فيه بمجيئي وقلت لها ان صديقك فلانا حمّلني سلاما اليك وأنا في الفندق الفلاني ، فبعد ثمانية أيام فتحت علي الهاتف ودعتني الى الغداء وقبل الغداء بيوم فتحت الهاتف مرة ثانية واعتذرت عن الغداء لعوارض عرضت وأعطتني رقم هاتفها ، فاستغربت هذا الأمر وقطعت لها ورقة كما تقول في عاميتنا ، واستغنيت عن الفائدة التي أحصل عليها من معرفتي بها •

لا أريد الاستكثار من هذه الأمور ، فقد طويت منها نماذج كثيرة ، أظن أنه ليس لألفاظ الصداقة والعشرة والألفة في لغة الجماعة المعنى الواسع الذي لها في لغتنا •

ان كتّاب هذا الفندق الذي أقيم به يعطونني في بعض الأوقات ورقة تدل على نفقة من نفقات الهاتف ، فأستوضح أحدهم بعض الاستيضاح ، فيختصر الكلام واذا كررت السؤال لوى بوجهه ، فهم لا يهتمون إلا بما فيه بعض المصلحة ، فكنت أدخل مخزنا من المخازن في شهر عيد الميلاد والمخزن محشوك ، فيعنى بي أحد أصحابه أشد عناية واذا طلبت شيئا جاء به ثم بدله ثم جاء بغيره الى نحو ذلك من حسن المعاملة أملا أن أشتريه فيحصل على بعض الربح ، ثم كنت أدخل محلا صاحبه من أهل الصين فيستقبلني بوجه يقطع الرزق •

ان أميركة تقيم بها جماعات من أمم شتى وكل جماعة جاءت بأمزجتها من بلادها وبقي فيها أثر من هذه الأمزجة المتباينة ، فهذه المعاملات التي أشرت اليها لم أجدها في صديق أميركي أصله فرنسي ، فكان يفتح علي الهاتف كل ليلة من بلده البعيد ويدعوني الى زيارته ، حتى زرته ، فكنت في بيته كأني واحد من أهل البيت •

ليس في أميركة أساليب واحدة في التربية ، فكل ولاية مستقلة بمدارسها وجامعاتها ، ولكل مدرسة نظام خاص ، وكذلك لكل جامعة ، والمدارس بعضها للحكومة وبعضها للأهلين والطوائف وكذلك الجامعات ، فليس في أميركة نظام واحد يدخل هذه العناصر التي جاءتها في قالب واحد من التربية تشعر به في كل ولاية ، ولا نكاد نجد مثل هذا النظام إلا في الرياضة وحدها ، فالأميركان مولعون بها أشد ولع في ولاياتهم كلها ، في مدارسهم كلها ، في جامعاتهم كلها ، وما خلا ذلك

فلكل عنصر من العناصر أخـلاق وأمزجة خاصة ، انك تدخل أرلندة مثلا فتجد فيها سحنا واحدة وأمزجة واحدة ، ولكنك تدخل أميركة فتجد فيها مختلف الأجسام والسحن والأمزجة والمعاملات ، فلم تفرغ أساليب التربية في أميركة الجماعات التي جاءتها في قالب واحد في جميع أمورهم ، كمـا أفرغتهم في الولع بالرياضة ولـذلك يصح أن نسمي أميركة : بلاد الفسيفساء •

الشجرة المثمرة

حقا ان الجماعة انصرفوا في أميركة الى الآلة انصرافا غريبا ، ففي الفندق الذي أسكنه شروع في بنيان حديث ، فان صاحب الفندق أراد أن يقيم مقام الحديقة بناء يتسع به الفندق ، وقد أخذت الآلات تعمل عملها ، فكنت أرى الأميركان وأكثرهم شيوخ يتركون مقاعدهم ويتفرجون من شباك البهو فينظرون الى الآلات وأعمالها مسرورين بهذه الفرجة ، على حين كان صدري يضيق بضجة الآلات ، فالجماعة غلبت على حياتهم الآلة وما تؤدي اليه من الانتاج ، فقيمة المرء في بلادهم ما ينتج ، ما لهم وللشعر ، ما لهم وللأدب ، وقد كنت أطالع كتابا فمر بي مقال عنوانه وحده يدلنا على رأيهم في الحياة وهذا هو العنوان : « الرجل شبه شجرة مثمرة » وفي المقال مقطع يوضح ميلهم الى الانتاج ، فان صاحبه يرى أن أشد الأمور التي يجب إتمامها في هذا العالم انما هما أمران : الحصول على الثروة بمجهود شريف ومعرفة الانتفاع بها بطريقة شريفة ، وفي نظر هذا الكاتب أن الشجرة المثمرة اذا عجزت عن حمل ثمرها سقطت فماتت ، وكذلك الرجل اذا عجز عن العمل .

هذه الفلسفة تكاد تكون فلسفة كثير من الأميركان لأنهم يرون أن عظمتهم في العالم قائمة على الانتاج ، ولكن ليس معنى هذا أن

الأميركان كلهم على هــذا الرأي ، فقد رأيت كاتبا من الكتاب يقول ان أكبر تسلية انما هي الطبيعة ، فهمُّه أن يذهب الى الغــابات ومعه سلاحه وكلبه أو صديقه ، فيخفي في الطبيعة فلا يسمع الهــاتف ولا يتسلم البريد ، ويعيش في الطبيعة ويشعر بالله تعالى من حوله .

لا يستطيع الانسان أن يحكم على الأميركان حكما واحدا قاطعا ، فهم يختلفون على اختــلاف بيئاتهــم ، ففي بلادهم صحــارى تشبه صحارى إفريقية ، وجبــال جرد تشبه جبال سرغايا وحلبون ، وجبال شجيرة تشبه جبال العلويين ولبنان ، وسهول منبسطة وأنهار وبحيرات وغابات وقد اختلفت الأخلاق والأمزجة كما اختلفت البيئات ، فأهل الشرق مثــل نيويورك وغيرها فيهم بعض الوحشة والانقباض وأهل الغرب مثل ســان فرنسيسكو وغيرها من بلاد كاليفورنية فيهم بعض الأنس والانبساط ، وفي الشمــال أمــزجة تكاد تكون انكليزية وفي الجنوب أمزجة تكاد تكون اسبانية ، لذلك لا يمكن أن يكون الحكم واحــدا .

وكذلك الحياة الاجتماعية في أميركة ، فبعض الأسر لا تكاد تعرف لذة اجتماع الأب والأم والولد في المساء حول مائدة البيت ، وبعض الأسر تعيش أهنأ عيشة ، فلا أنسى أسرة دعتني الى زيارتها من أسبوع في مدينة « وليمسبرغ » في ولاية فرجينية ، فنمت في البيت ، ولست أعرف في حياتي بيتا أحسن نظاما ، ولا زوجة أحسن ترتيبا ، ولا زوجا أحسن إخلاصا ، ولا طفلة أحسن تربية .

وكذلك رجال الفكر فيهم فانهم غير رجال المعامل ، ونحن نقول فيهم انهم يعيشون على سطوح الثقافة لا على أعماقهــا ، والصحيح انهم يأخذون من كل نوع من أنواع الثقافة لبَّه وخلاصته ، ولكنهم لا يعنون بالأجزاء عناية الأمم اللاتينية .

والخلاصة ان الانسان يحار في هذه القارة ، في عظمتها من جهة ، وفي مناقضاتها من جهة ثانية ، فهو يشفق من ناحية على ظلمة الحياة الميكانيكية ، ويعجب من ناحية ببساطة بعض الأسر في حياتها الاجتماعية .

وعلى كل حال ان قيمة صاحب معمل من المعامل تختلف عن قيمة صاحب ديوان من الدواوين ، فقيمة المرء في أميركة على مقدار انتاجه .

الحيــــاة المسلــوقة

لي في « صوت أميركة » في واشنطن بعض معـارف من لبنـان وسورية ، وقد دعاني فريق منهم الى الغـداء في مطعم في بنـاء دار الاذاعة نفسها ، فانحدرت معهم الى « الكافتريا » وهو اسـم المطعم الذي يخدم الانسان فيه نفسه ، فوجدت النـاس رجالا ونساء قد لزموا صفوفهم حتى يصلوا الى معارض الأكل حيث يختار كل واحد منهم ما يشاء من الألوان ويحمل مـا يختاره في صينية ويذهب به الى مجلسه ، وقد اقترح علي الاخوان أن ألـزم مجلسي وأن لا أحمِّل نفسي مشقة اختيار الأكل ففعلت ، وبعـد دقائق جاؤا بصحونهم وجلسوا ليأكلوا واعتذرت لأني لا أهضم طبخ الأميركان .

في أثناء الحديث وقع نظري عرضا على ألوان الأكل فوجدت في بعض الصحون بيضا مسلوقا وبطاطا مسلوقة وخضرة مسلوقة ، وقد كنت أفضي الى الاخوان برأيي في الحيـاة الأميركية ، فقلت لهـم : ما أشد وجه الشبه بين أكلكم وبين حياتكم ، ان أكلكم على ما أرى كله مسلوق ، وان حياتكم كلها مسلوقة ، فما كدتم تدحرجون الأكل في أفواهكم حتى قلتم لي : اعذرنا نريد أن نرجع الى العمل ، فاسمح لنـا بأن ندلك على الطريق .

لقد دلوني على المخرج من دار الاذاعة ، فودعتهم وانصرفت الى مطعم عربي ألفته وهو : مطعم بغداد .

أفضت كثيرا على السفرة في الاعتراض على الحيـاة الأميركية ، اعترضت على هذه الحياة التي لايعرف فيها صاحبها راحة ولا تسلية ، فكان الاخوان يوافقون حينا ويخالفون حينا ، اعترضت على هـذه الحياة التي تتعب العقل والفكر ، حتى أصبح الانسان فيهـا آلة من الآلات ، فهو يشتغل من الصباح الى الظهر ، فيسلق غـداءه سلقا ، ثم يعود الى العمل ، فمـا يكاد يخرج منه حتى يسرع الى العشاء في بعض المطاعم ، فاذا فرغ من العشاء ذهب الى السينما أو الى النوم ، فلا فراغ يتحدث فيه الى أصدقائه ، ولا فراغ يخلو فيه الى أهـله ، فكأن الدنيا كلها عمل ، وكأن البدن ليس له حق على صاحبه ، وكأن الروح ليس لها نصيب من المتعة ، فالأحاديث أكثرها يتعلق بالمـادة ، بالأرقام ، بالدولارات ، فالدنيا كلها بيع وشراء ، ربح وخسارة ، أخذ وعطاء ، فلا نادرة تسلي القلب ، ولا طرفة حلوة تسلي الروح ، هذه هي الحياة في أميركة ، ما خلا ليـالي السبت والأحـد ، فان الناس يأخذون فيها نصيبهم من اللذة ، كل على قدر إمكانه .

قال لي أحد الاخوان : ولكنك اذا سألت الأميركان عن رأيهم في هذه الحياة وجدتهم مسرورين بها ، راضين عنها ، قلت له : لا غرابة في ذلك ، فاني أعرف بعض الفلاحين في بلادنا وأخالطهم من زمن بعيد ، يذهب أحدهم في طلوع الشمس الى المرعى أو الى الحقل ومعه أربعة أرغفة من الخبز ، ويضع حبات من الزيتون ، ثم يعود في المساء ويتعشى وعشاؤه الخبز والبطاطا أو الزيتون أو البصـل أو البرغل ، فلا يكاد يفرغ من عشائه حتى ينام هو والدجاج في وقت واحد ، ثم يستفيق في مطلع الفجر وهو راض عن حياته ، مسرور بها ، لأنه لا يعرف غيرها ، ولم يبل نمطا آخر من الحياة ، وهكذا الاميركان الذين رضوا بحياتهم على هذا الشكل وهم لو جربوا نوعاً آخر من أنواعها فيه بعض المرح والانبساط لعدلوا رأيهم في حياتهم المتعبة .

تعشيت مرة في مطعم أصحابه من قرى فلسطين فوجدت على سفرة أربعة من الأميركان وأربعا من الأميركانيات ، فشربوا ما شربوا من النبيذ ، وأكلوا ما أكلوا من اللحم ، وأخذوا يتساقطون الأحاديث ، وانهم لكذلك اذ جاءت عائشة صاحبة المطعم بالدف والدربكة ، وأخذت تنقر على الدف مرة وعلى الدربكة مرة ، وقام ابراهيم وهو فتى أميركي من قرى فلسطين ، ورقص الدبكة على نقرات الدف والدربكة ، فاغتنمت هذه الفرصة لأرى تأثير ذلك في الأميركان والأميركانيات ، فما كاد الرجال والنساء يرون رقص الدبكة ويسمعون نقر الدف حتى قاموا الى وسط المطعم ، وأخذوا يرقصون الرقص الذي لا أقدر على وصف حركاته ، وبينهم امرأة أميركية غاية في الجمال وحسن القوام والرشاقة ، كادت تخرج من نفسها من كثرة المرح والسرور . ثم هدأ الدف وهدأت الدبكة وانصرف كل واحد الى سبيله .

هذه الصورة دلتني على مقدار خنق الأميركان في جوهم ، فهم لا يجدون متنفسا إلا تنفسوا منه ، وليس تفنن هذه السيدة الأميركية في رقصها إلا تعبيراً عن تنفسها ، فالأميركان راضون بحياتهم لأنهم لا يعرفون غيرها ، أمّا اذا ألفوا نوعا آخر من الحياة فيه نقر الدف ورقص الدبكة تعوذوا بالله من هذه السنين التي يقضونها في حياة مسلوقة .

وليمسبرغ WILLIAMSBURG

العقلية الاميركية

لا أريد أن أخادع أحداً ، فأدعي الاحاطة بالعقلية الأميركية ، فان عملا مثل هذا العمل تستلزم دراسته سنين طويلة ، فلا بد في معرفة هذه العقلية من دراسة تاريخ أميركة وجغرافيتها ، ثم لابد من الوقوف على عناصر الأمم التي استعمرتها في بدء الأمر ، ثم لا بد من دراسة أحوال جامعاتها ومدارسها وقوانين حكوماتها وأوضاع طبقاتها المختلفة في كل ولاية من ولاياتها ، ثم لا بد من مخالطة هذه الطبقات الى غير ذلك من الأمور التي لا تتم إلا في زمن طويل .

ولكني اذا قلت العقلية الأميركية أردت بذلك ناحية صغيرة مجملة على قدر ماتتحمله خواطر رحلة ، فهذه خواطر خطرت في سرعة البرق ، وقد يكون في بعضها جزء من الحقيقة ، ولكنه جزء صغير على كل حال .

دخلت مكتبة في واشنطن لأشتري كتاباً في فقه اللغة الانكليزية ألفه أستاذان في جامعة « هارفرد » وهي من أكبر جامعات أميركة ، فوقعت عيني على كتاب في النحو والبيان والانشاء ، صاحبه معاون أستاذ في جامعة « نيويورك » ، فاشتريت هذا الكتاب وشرعت في مطالعته ، وسرعان ما تجلّت لي في تضاعيفه ناحية من نواحي العقلية الأميركية .

يشتمل هذا الكتاب على عشرة فصول ، فاذا بحثنا عن مشتملات كل فصل من هذه الفصول وجدنا انهـا عبارة عن جواهر الأمور دون تعقيد ولا تركيب ، وفي كل واحـد من هذه الأمور مثل بسيط بحيث يحفظ الطالب التعريف والمثل دون شيء من التعب ، ثم اذا بحثت عن ضرب الأمثال والتمرينات فيه وجـدت أنها تتعلق بأمور تقع عليهـا حواس الأميركان ، ففي بعض الأمثال المضروبة ذكر « الفيتامينات » فان للفيتامينات في أميركة عمـلا عظيما ، فتجد أكثر شباب الأميركان وأطفالهم أصحاب بنية عجيبة في القوة ، لأن الغـذاء في أميركة عنصر من أهم عناصر هذه البنية ، يضاف اليه عنصر آخر وهو الرياضة •

وهكذا فانك تجد فصول الكتاب كلهـا على هـذا الشكل من البساطة والسهولة ، وفي آخـره فصل يتعلق بالرجوع الى المكتبات والمصادر والفهارس ، بحيث يفرغ الطالب من قراءة الكتاب وقد ألم ، ولا أقول أحاط ، بشيء من كل ما يحتاج اليـه من ضبط العبـارة وتنسيقها والرجوع الى البحث •

هذه صورة من خصائص العقلية الأميركية • ان الأميركان وقتهم ضيق ، وان خلقهم ضيق ، فهم يريدون أن يحصلوا على أكثر ما يمكن من أمور المعـرفة في أقل ما يكون من الزمن ، يريدون الوصول الى جواهر الأمور في سرعة غريبة ، فهذا الكتاب حشر فيه صاحبه أمورا تتعلق بالنحو وقواعد البلاغة والانشاء ، ولو شئنا أن نضع كتـابا في كل باب من هذه الأبواب لضاع فيه القارىء •

الأميركان على تعبير هذا العصر عمليون ، فان للزمن قيمة عندهم كبيرة ، فهم لا يريدون أن يضيعوا الوقت في العـرض دون الجوهر ، ولذلك نجد أساتذتهم يهيئون لهم المعرفة كما يهيء أصحاب العقاقير « البرشـانات » للمرضى حتى يسهل بلعهـا ، ان مكتباتهم كثـيرة ومصادرهم وافرة ، ولكن أخـلاق الطلاب ضيقة ، فقد دخلت مـرة

جامعة من الجامعات ، فوجدت أن الأستاذ قد هيأ درسه على ورق وشرع في الالقاء وبعد خمس دقائق سأله أحد الطلاب سؤالا ، فطرح الأستاذ أوراقه وأخذ يجيب الطالب عن سؤاله ، وبعد أن فرغ من الجواب سأله طالب آخر ، وما زال طالب يسكت وطالب يسأل حتى انقضت الساعة والأوراق التي هيأها الأستاذ بقيت على حالها •

ان الطالب في أميركة لا يتسع خلقه للأمور المجردة ، فانه يريد الوصول الى المعرفة المحسوسة في أقرب وقت ، وهذا على ما أظن يضيق آفاق التفكير في الطلاب الأميركان ، لأنهم يعتمدون على قول الأساتذة أكثر من اعتمادهم على عقولهم الخاصة •

هذا شيء يسير من خصائص العقلية الأميركية : أعطني أكثر ما يمكن عطاؤه في أقل ما يكون من العناء ، فلا أنسى حديثا دار بيني وبين أحد ضباط الأميركان الشباب ، قال لي : حدثني عن عادات بلادكم ومآكلها ومشاربها وملابسها وأعمالها ، فان هذا الضابط يريد أن يعرف كل ما له صلة بسورية في سهرة واحدة •

انا نجد فرقا بين العقليتين الأميركية واللاتينية ، فقد قابلت بين كتاب في حياة الألفاظ الانكليزية وبين كتاب في حياة الألفاظ الفرنسية ، فان الأستاذ الفرنسي يمهد لدراسة حياة الألفاظ بشيء من عوامل علم النفس والاجتماع وغير ذلك حتى يصل الى ميلاد الألفاظ وحياتها وموتها ، ولكن الأستاذ الأميركي يدخل موضوعه دون شيء من التمهيد الذي لا تتحمله عقول الأميركان •

اميركه في الكتب

عدت من بلد صغير على أبواب واشنطن دعاني اليه أحد أصدقائي الأمـيركان لأرى الثلج وقد غطّى دوره الأنيقة وشوارعه الهـادئة ، فأحببت أن أتملص من عظمة واشنطن ، فأقبع في الفندق ، فأعيش في كتاب ساعة من الزمن ٠

قال عميد كلية السياسة في « نيويورك » في بعض مقالاته :

« اني أعتقد أنه لا يمكن أن يتم شيء من خـير الحياة وعدلهـا وسعادتهـا في أي مجتمع تكون السلطة الاقتصادية أو السياسية فيه محصورة في أيدي فرد من أفراده أو جمـاعة من جماعاته ، وأنا أرى كما كان يرى الرئيس « جفرسن » أن البشر لا يستطيعون أن يبذلوا مجهودا في الوصول الى السعادة وأن تنجح مجهوداتهم إلا اذا كانوا يعيشون في مجتمع ديموقراطي ولو ناقصاً ٠

اني أعتقد أخيرا أن النـاس على اختـلاف أعراقهم ومعتقداتهم يمكنهم ادراك هذه الغـايات البشرية ، واذا نحن أحسنا الانتفـاع بمداركنا الاجتماعية وبحدود العلم المديدة فسيأتي يوم لا يسفك فيه دم ولا يشتد فيه بغض ولا مرض ولا فقر ، ولا يخاف فيه الناس ما يخافونه من مجهولات الأمور خوفا هداما » ٠

لمـا فرغت من قراءة هذه الأفكار الناضجة عرضت لي مناقضات أميركة ففي زيارتي الأولى لها غلبت علي فتنة طبيعتها وعظمة جامعاتها ،

فلم أجد سبيلا الى التفكير ، أمَّا الآن فقد نجوت من سحرها الأول ، وأخذت أنظر الى الأمور نظرة مستقلة . يحار الانسان في مناقضات أميركة ، لا أدري هدف الكاتب لما قال ما قال ، أهو يغمز من بعض أفراد وجماعات في أميركة نفسها ، أم هو ينظر الى أمم ثانية ، على انه لم يخطىء في الأمرين معا ، ان في أميركة كثيرا من الامور التي أشار اليها ، ففيها السلطة الاقتصادية محصورة في أيدي أفراد أو جماعات ، وفيها السلطة السياسية محصورة في أيدي الجمهوريين أو الديموقراطيين ، ولكن الذي يسكت الناس في أميركة انما هي هذه الرفاهية البالغة التي تكاد تكون لا مثيل لها في العالم ، على أن الناس يشكون كثيرا ، فهم يشكون الضرائب أو يشكون اليهود أو يشكون كثرة العبيد أو غير ذلك ، ولكن وراء هذه الشكاوى حياة رغيدة طيبة تلهي الناس ، فترى العامل يكسب ما يكسب وفي آخر النهار يستطيع أن يشرب ما يريد ، وأن يأكل على قدر إمكانه ، وكذلك صاحب الحالة الوسط ، وكذلك الأغنياء الذين لا يشكون إلا وجع القلب أو الرأس أو الكبد .

هـذا هو الذي يهدىء الأميركان ويسكتهم ، فلا يهتمون بحصر السلطة الاقتصادية أو السياسية في أفراد أو جماعات ، فهم حاصلون على خبزهم ولحمهم ودفئهم وسائر حاجياتهم ، لقد وصلت أميركة في هذا المعنى الى أعلى ما تصل اليه رفاهية الحضارة المادية ، هذا قول حق لا بد منه ، ولكن ماذا بعد هذا كله . هنا بدء المشكلة .

اني لا أرى في أميركة روحا أميركية واحـدة في جميع ولاياتها ، فالمدارس والجامعات التي تربي النشء لا تفرغهم في قالب واحـد ، فان هذه الجماعات التي استعمرت أميركة قد جاءت بأخلاقها وتقاليدها وعاداتها ، ولا يزال فيها شيء من هذا كله . فكأني لا أزال أسمع هذا البقال الايطالي يغني بايطاليته بعد أن أقام بأميركة خمساً وثلاثين سنة ،

وكأني لا أزال أرى هـؤلاء الشبـاب من قـرى فلسطين والأردن يرقصون الدبكة في بعض مطاعم واشنطن وكلهم من التابعة الأميركية ، وكأني لا أزال أسمع هذا الشاب الدرزي وقد جـاء من لبنان لخدمة الجيش ، كأني لا أزال أسمع لهجته القوية : أإذا كنت أميركيا أأتخلى عن عروبتي !

فالأميركان لم يفرغوا في قالب واحد من الفكر والشعور والذوق، فاذا اشتدت أزمة في داخل البلاد في يوم من الأيام وعجزت الحكومة عن معالجتها أو اذا أصيبت أميركة بهـزة عنيفة من خارج البـلاد ، فاختل هذا النظام الاجتماعي الذي جعل الناس كلهم يأكلون ويشربون وينامون ملء أفواههم وبطونهم وعيونهم ، فماذا يصيب أميركة حينئذ ؟ قال لي بعض الأميركان والأميركانيات : اذا وقع شيء من هـذا كله فلا خوف على أميركة لأن الأمـيركان كلهم يفنون في المحـافظة علي بلادهم ، أمّا أنا فاني ما أزال أسأل نفسي هذا السؤال : أإذا وقع شيء من الذي ذكرته أستبقي هذه العظمة التي لا نظير لهـا في العالم ، أم سينهار هـذا البنيان الشامخ لأنه كالفسيفساء ، وليس هو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

طبقـــات

أجل ، إن في الولايات المتحدة طبقات ، وهمّي الآن أن أشير الى تباعد هــذه الطبقات في طراز عيشتها • لي صــديق من دمشق يقيم بواشنطن من سنين ، يدرس فيها ويدرّس ، دعاني ذات ليلة الى العشاء في فندق من الطراز الأول اسمه : « شورام » Shoreham أستطيع أن أقول ان هذا الفندق من أعظم الفنادق في العالم ، ولا ريب في أن الذين يقصدون اليه انما هم من طبقة الأغنياء الموسرين ، يلبس الخدم في مطعم الفندق ملابس الانكليز في بدء استعمارهم لأميركة ، ويأكل الناس ويشربون ويرقصون على أنغام من أعذب الأنغام ، وتظهر آثار الفخامة على كل بهو من أبهاء الفندق ، والذين زاروا باريز وأكلوا في مطاعمها المشهورة يستطيعون أن يتصوروا عظمة فندق « شورام » •

تقصد الى هذا الفندق على نحو ما قلت طبقة أصحاب المــال ، أو أصحاب المنــاصب ، ونجد في شارع من شوارع واشنطن المشهورة اسمه : Connecticut Avenue فندقا آخر وهو : May Flower تختلف عظمته عن عظمة « شورام » فيه مطعم فخم وفيه أبهاء فخمة كنت أجلس فيه أكثر الأحيان ، وأرقب وجوه الناس ، وجيئتهم وذهوبهم ، فيخيل الي أن هؤلاء الناس أكثرهم من اليهود الأغنياء ، واهتمامهم بمصالحهم أكثر من الاهتمام بأكل فاخــر أو بشرب ســائغ أو بأوتار وأنغام •

فالناس الذين يجيئون هذا الفندق قد تختلف طبقتهم بعض الاختلاف عن طبقة فندق شورام .

ثم نجد بعد هـذين الفندقين فنادق ثانية في واشنطن من درجة وسط ، تقصدها طبقة وسط من النـاس ، إمَّا من أصحاب تجارة أو زراعة أو عمل وإمَّا من أساتذة ومدرسين وطلاب ، قد يلاقي الانسان كل ما يحتاج اليه في هذه الفنادق ولكنه لا يجد فيهـا عظمة الفندقين الآخرين اللذين ذكرتهما .

وبعد هذا كله نجد فنادق مبثوثة في بعض أحياء واشنطن تظهر عليها آثار الفقر ، يقصدها الفقراء من الناس .

وما يقال في الفنـادق من حيث غنـاها وفقرها يقال في المطاعم ، فللمطاعم درجات ، ولكل طائفة منها طبقات خاصة ، ولكني لم أذكـر ما ذكرت على سبيل الاحصاء ، فما هذه غايتي ، وانما غايتي الوصول الى الكلام على المطاعم الفقيرة والمشارب الفقيرة التي يزدحم فيهـا الفقراء والعبيد في كل ليلة ، ولا سيما في ليالي الأحد ، كنت أمر بهذه المطاعم والمشارب كل ليـلة ، فهي واقعة على طريقي الى الفندق الذي نزلت به ، فأضرب بعيني دقيقة في هذه الطبقات المخنوقة فيها ، فأرى دخان السجاير وقد قطع على النـاس أنفاسهم ، وأرى أكواب الجعة مرفوعة الى الأفواه ، وقد فرغها أصحابهما في أجوافهم ، وأرى هذه الوجوه التي تلوح عليهـا آثار السكر وهي مستعدة للشر ، وأرى علامات البؤس والشقاوة ، فأقابل بين طبقات هذه المطاعم والمشارب وبين طبقات « شورام » و « مي فلور » وغيرهما ، فأرى بعد هـذه المقابلات الفرق الشديد بين النـاس ، أرى الفرق بين أكلهم وشربهم ولبسهم ، وأرى الفرق بين طرز لهوهم وسهرهم ومرحهم ، فأستغرب هذا النحو من العيشة ، وأعجب من هـذا الشكل من الحياة ، كيف تصبر الطبقات الفقيرة على مثل ما هي صـابرة عليه ، كيف ترى نعيم

الطبقات الغنية وترفهـا وترضى ببؤسها وشقاوتها ، كيف تسكت عن ملايين الدولارات في أيدي أصحابها على حين لا تجد في أيديهـا من هذه الدولارات إلا ما تسد به عوزها ، أو تخفف به آلامها في ليـالي الأحد في مشرب من المشارب المظلمة الخانقة العابسة •

أجل ، إن في الولايات المتحدة طبقـات متباعدة متفاوتة ، طبقات تتقلَّب في أعطاف النعيم وطبقات تكاد ترضى بلقمتها وشربتها ، والذي يسكِّت هذه الطبقات الفقيرة انما هو وجود هذه اللقمة وهذه الشربة ، فويل للولايات المتحدة اذا وقعت في أزمة ، وويل لها اذا انقطعت اللقمة والشربة عن أفواه المساكين في يوم من الأيام •

ثروتنا في اميـركه

من ثلاث سنين أو أكثر ألقيت حـديثا في « صوت أميركة » في نيويورك موضوعه : الطبيعة في أميركة ، وقد تولى تقـديمي الأستاذ سعيد جبرين ، وأذكر أنه كان في التقديم يميل الى اللغة الشعرية ، فهو من « الكفرون » قرية قريبة من صافيتا ، هذا كل ما عرفته عنه في تلك الأيام .

ثم قدمت أميركة هذه المرة ، واني ذات ليلة أتعشى في بعض المطاعم العربية في « واشنطن » اذ دخل شاب ومعه سيدة ، فمرا على سفرتي وقعدا ناحية ، فكأنه عرفني وشك في معرفتي ، وكأني عرفته وشككت في معرفته ، وبعد أسبوع كنت أتعشى في المطعم نفسه ، فدخل الشاب نفسه والسيدة نفسها ، ولكنه في هـذه المرة لم يشك في معـرفتي ، حيَّاني باسمي ، وحييته باسمه وذكر كل واحد منَّا صاحبه .

هـذا الشاب هو الأستاذ سعيد جبرين ، عرفني الى السيدة التي معه ، ثم زرتهما بعد ذلك في مكاتبهما ، الأستاذ جبرين في « صـوت أميركة » في واشنطن والسيدة « بربارا جبرين » في مكتبة الكونغرس ، وقالت لي السيدة بربارا : ينبغي أن تزورنا في دارنا .

وبعد أيام دعاني الأستاذ جبرين الى العشاء في داره ، ودعا الآنسة صفية أبو شـادي كريمة المرحوم الدكتور أبو شـادي ، وهي آنسة مثقفة ، مهذبة ، كريمة النفس .

في خلال هـذا العشاء وهذه السهرة التي لا أنساها كل عمـري عرفت شيئا من فضائل الأستاذ جبرين ومن فضائل زوجته بربارا •

نشأ الأستاذ سعيد جبرين في « الكفرون » بين الجبال والسهول ، وبين الماء والشجر ، نشأ نشأة شعرية ، ثم ضاق صدره ببيئة يضيق فيها معنى الحرية ، تحيط بهـا الظلمات من كل جـانب ، ظلمات الفكر والشعور والذوق ، فحدثته نفسه بالرحيل الى بيئة تتسع فيها معاني الحرية ، رحل الى الولايات المتحدة ودخل جامعة « ايوا » فتعلم فيها الصحافة العلمية ، أي تبسيط موضوعات العلم والزراعة وعرضها على الجماهير ، فهو مرشد زراعي يزود الزراع كل أسبوع بلغته العـربية مما يهتدي اليه العلم والزراعة من يوم الى يوم •

درس الأستاذ جبرين الصحافة العلمية فيمدينة (ايمس Ames) كما درست فيهـا البنات الأميركانيات تدبير المنزل وتدبير الأزواج في الوقت نفسه ، لأن أكثر الزواج في أميركة يطبخ في الجامعات •

هذه جملة من حيـاة السيد سعيد جبرين الثقافية ، ولكن ما الى هذا قصدت في مقالي ، لقد أردت التنويه بحياته الشعرية ، فقد جاء أميركة لا لجمع المال لأن وظيفته لا تعطيه من المال الا مقدار ما يقوم بأوده ، وتعاونه زوجته على الحياة ، وهكذا الأمر في أميركة فالرجل يعمل والزوجة تعمل معه ، جـاء الاستاذ جبرين أميركة ليحيا حيـاة شعرية حرة في بيئة بعيدة عن الشعر •

رزقه الله زوجة أستطيع أن أقول انهـا آية في الجمال ، غـاية في الكمال ، درست علم النفس وطائفة من العلوم ، عمرها ست وعشرون سنة وعمـره خمس وثلاثون سنة ، فاستحكم التكافؤ بينهما من كل جهة ، أحبته ملء قلبها ، وأحبها ملء قلبه ، فقـد مضت عليهما أربع سنين ولم يكدر صفو حياتهما مكدر ، وبدلا من أنتجر السيدة بربارا

زوجها الى الذوبان في البيئة الأميركية استطاع زوجها أن يجرها الى الذوبان في البيئة العـربية ، فقد اشترت بعض الكتب التي تبحث عن العرب وحضارتهم ، ثم تعلمت العربية ، وما يزال خطهـا ملء عيني ، فقد أهدت إلي صورتها وكتبت عليهـا بالعربية : هديتي الى صديقنا الأستاذ شفيق جبري ، ثم علَّمها زوجها شيئا من الموسيقى العربية ، فما تزال أذني تسمع نغماتها الهـادئة وهي تغني : آه يا أسمر اللون وزوجها يعزف على آلة قريبة من الناي ، ثم حملهـا على تعلم الطبخ العربي ، فقد كان على سفرة العشاء صحن الحمص بالزيت زينة هذه السفرة ، ويفيض في هـذا كله إخلاص الزوجة الى زوجها وإخلاص الزوج الى زوجته .

والسيدة بربارا عريقـة في انكليزيتها ، فان آثار الأرسطوقراطية الطبيعية ظاهرة على بساطة ملابسها وبساطة أحاديثها ، فهي من هـذه الأسرة الانكليزية التي استعمرت أميركة من ثلاثة قرون ، فترى عليها أثر الانكليز وأثر الأميركان في وقت واحد .

يقيم الأستـاذ سعيد جبرين وزوجتـه بربارا في بعض أطـراف « واشنطن » بدار تدل الصور المعلقة علىجدرانها علىحياته الشعرية ، وحول هـذه الدار شجر متسع الأفياء ، البحيرات على مقربة منهـا ، والخضرة والشجر في الربيع ، واذا جـاء الصيف ذهب السيد جبرين وزوجته الى جبال قريبة من نيويورك يقيم بها أحد أقاربه ، فيقضيان جزءا من الصيف في صيد السمك في البحيرات .

حياة الأستاذ جبرين شعرية من أولها الى آخرها وأمامي وأنا أكتب هذه المقال قصيدته : موسيقى في الليل ، ألقاها في رابطة (مينرفا) في واشنطن في السنة الماضية ، وجد فيها الدكتور أبو شادي عناصر فن السيد جبرين مجتمعة على أحسن وجه ، وجـد فيها الوجدان والغناء والابداع الوصفي والعرض التمثيلي ، أمّا أنا فوجدت فيهـا جوهر

الشعر العربي قبل هذا كله ، وجدت فيها بعض الألفاظ والتراكيب التي هي زينة شعرنا مثل قوله :

جوّاب آفاق ـ غريب الدار ـ جنه الليل ، الى غير ذلك من التراكيب التي لا يحسن شعرنا بغيرها .

هذا شيء يسير من مهاجر عربي ، بدلا من أن يذوب في البيئة الأميركية أذاب البيئة فيه ، فشعره عربي ، وعيشته عربية وموسيقاه عربية ووظيفته باللغة العربية ، وقد انقادت زوجته الى هذه العيشة العربية حتى ذابت في مآكل هذه العيشة ومشاربها وموسيقاها ولغتها.

هذه هي ثروتنا في الولايات المتحدة ، لا هؤلاء المهاجرون الذين فريق منهم يكادون يحصلون على خبزهم ولحمهم فلا هم من أميركة ولا هم من الشرق ، وفريق منهم اجتمعت لهم أسباب الثروة فلم تنتفع بلادهم بهم ولم يعل ذكرهم في البلاد التي هاجروا اليها .

شباط ١٩٥٦

غادرت واشنطن في أواخر كانون الثاني ، وانحدرت الى مدينة اسمها : « وليمسبرغ » من ولاية « فرجينية » وهذه الولاية واقعة على حدود واشنطن ، والسبب الذي من أجله آثرت الاقامة بوليمسبرغ ناشىء عن أني أردت مخالطة الأميركان والاتصال بلغتهم ولم يتيسر لي هذا الأمر في واشنطن ، فقد كانت معارفي فيها من العرب ، فكانت العربية غالبة على أحاديثنا .

انحدرت الى وليمسبرغ واستقبلني فيها صديقي Labalme وهو الذي جاء ذكره في هذه الرحلة كثيرا واختار لي أسرة تسكن داراً من دور جامعة وليمسبرغ ، فأعطتني هذه الأسرة غرفة من غرفها حمدت الاقامة بها .

وليمسبرغ من المدن المشهورة في الولايات المتحدة ، ولكن شهرتها

لا تقوم على عظمتها ولا على اتساعها ولا على غناها ، ولكنها مشهورة بالاحتفاظ بآثارها ، فان دورها لا يزال طرازها على شكله الأول ، أي على الشكل الذي كانت عليه لما كان الانكليز يستعمرون أميركة في بدء الأمر ، وأغرب شيء من آثار هذه المدينة انما هو سجنها الذي يصور لنا كيف كان الانكليز يعذبون الناس فيه أيام حكمهم ، وأظن أن الانسان لا يستطيع أن يتصور شدة هذا التعذيب وأدواته ، وقد قيل لي ان الروس صوروا هذه الأدواتوعرضوها في بلادهم وقالوا : انظروا كيف يعامل الأميركان سجناءهم ، حتى اضطر الأميركان الى إخفاء هذه الأدوات .

في شارع من شوارع المدينة دكاكين كثيرة تعرض فيها ملابس الانكليز فيصدر استعمارهم لأميركة ، وأحذيتهم ومطابعهم ومقاهيهم، وفي هذا الشارع عجلاتهم التي كانت تجرها الخيل ، ومدافعهم ، ودار الحاكم وغير ذلك من الآثار القديمة ، وقد تعرفت الى ضابط من ضباط مصر أرسلته الحكومة الى الولايات المتحدة للتمرن مقدار نصف سنة فقال لي : انظر الى هذه الآثار ! وفي لهجته شيء من الاستخفاف ، فماذا يعمل القوم لو كانت آثارهم تشبه آثارنا في مصر، والحقيقة ان هذه الآثار لا شأن لها ، إلا أن الأميركان ليس لهم ماض يتعلقون به ، فقد أحيوا هذه الآثار لتكون ماضيهم ، فترى الموسرين منهم يزدحمون على وليمسبرغ في شهور معينة من السنة ، فيتفرجون ويصورون ويعجبون ويفخرون ، والمدينة تعيش عليهم ، فهم يقيمون بفنادقها ودورها ، ويأكلون في مطاعمها ، واذا انقضى موسم فرجتهم كادت وليمسبرغ تخلو من السكان ، إلا أن لها فتنة اخرى وهي فتنة جامعتها البسيطة وطلابها ، فهم زينة وليمسبرغ ، وهم سحرها ورونقها ولا سيما اذا انتشروا في مطاعمها فيالليل ، ولولاهم لما كانلوليمسبرغ معنى ولا روح .

الدنيا الضاحكة

هل أستطيع أن أعرب في خاطري هذا : الدنيا الضاحكة ، عن سحر هؤلاء الطلاب وعن رونقهم .

أعيش في هذه المدينة الفتّانة في ظلال جامعتها ، لا بل في قلب جامعتها ، فأرى الطلاب والطالبات كل يوم ، أراهم في حدائق الجامعة ، وأراهم في الشوارع ، وأراهم في المطاعم ، واني لأكتب هذه الخواطر وكأني ما أزال أسمع ضحكهم في المطعم الذي تعشيت فيه ، وكأني ما أزال أرى انبساطهم ، مهملين الحياة وتكاليفها ، فلا تأنق في الملابس ولا تكاليف في الحركات ولا تشدق في الأحاديث ، فالدنيا كلها في نظرهم ضحك وابتسام ، مرح وانبساط ، لهو ولعب ، فلا مشكلات تشغل أفكارهم ، ولا سياسة تستغرق أوقاتهم ، فكأنهم لم يخلقوا إلا لهذه الحياة الضاحكة التي يتقلبون في أعطافها ، وكأن الدنيا خالدة لهم ، وكأنهم خالدون لها ، فألذ أيامهم هذه الأيام التي يقضونها في أفق مرح ، فهم يأخذون نصيبهم من هذا المرح قبل أن يندفعوا في الحياة العامة ، فيشغلهم العمل ، ويقتلهم الاقبال على الدنيا ، فلا ساعة بعد ذلك حلوة ، ولا سهرة ظريفة ، ولا حياة باسمة .

هذه هي الحياة التي أراها كل يوم من الصباح الى قبل منتصف الليل ، ولكن ليس موضع الاستغراب في هذا المرأى وانما أرى الى جنب هذا كله نوعا من الحرية يصعب تصويره في بلاد محافظة على

عادات وتقاليد تختلف عن عادات الأميركان وتقاليدهم ، أرى الى جنب هذه الدنيا الضاحكة حرية لا تعدلها حرية ، ففي كل طرفة عين طالب يخاصر طالبة ، وطالب يغازل طالبة على مرأى من الأساتذة ومن الناس كلهم ، فلا أحد يستغرب هذه المشاهد ولا أحد يهتم بهذه المخاصرات وهذه المغازلات أو بهذه القبل في بعض الأحيان ، هذه هي الحرية في جامعات أميركة والأساتذة في الصفوف يخاطبون طلابهم على مقادير هذه الحرية التي يتمتعون بها ، فقد دخلت صفا من الصفوف ، فسمعت الأستاذ يقول لطلابه : كان ينبغي لكم أن تركبوا الجمل التي أمليها عليكم في فراغ الأكل ، ولكني رأيتكم وقد صحب كل طالب طالبة ، وصحبت كل طالبة طالبا وبقيت وحدي على الأكل لم يصاحبني أحد ، فاندفع الطلاب في الضحك دقائق معدودة !

هذه العيشة التي يعيشها الطلاب في جامعات أميركة تكاد تكون بنت الطبع ، ولكن هل من محاذير في ذلك ، ان دراسة هذا الموضوع تستلزم احصاء لا يتسع وقتي له ، ولقد اعترضت على هذا النحو من الحرية ، فاستغرب بعض الأميركان كلامي وقالوا : انك تنظر الى هذا الموضوع من زاوية شرقية ، فنحن جبلنا على هذه الحرية ، ولا نرى فيها محاذير ، فالطلاب يدخلون صفوفهم ويصغون الى الأساتذة وهم لا ينتظرون فرصة ثانية لمخاصرة ثانية أو لمغازلة ثانية أو لقبلة ثانية ، هذا ما قالته لي بعض السيدات والطالبات .

ولكن الحقيقة ان الجامعات في أكثر أميركة لهـا غايتان ، انها من جهة معامل لثقافة الفكر ، ومن جهة ثانية معـامل للزواج ، فالطالب يصاحب من يختار من الطالبات والطالبة تصاحب من تختار من الطلاب ، وكل واحد يقبل على صاحبه ثم يدبر عنه ، الى أن يقع اختيـاره على أحد ، ويؤدي الأمر في أكثر الأوقات الى الزواج ، وقد أكدوا لي أن هـذه الحرية لا تتجاوز ما أراه من مخاصرة أو مغازلة أو قبلة ، فان

للطالبات مناعة شديدة في الحرص على عفافهن ، فهن يخالطن الطلاب ويؤاكلنهم ويشاربنهم ويساهرنهم ولكنهن لا يزرن أحدا إلا مجتمعات، فهن يخفن ألسنة النــاس ، ويحرصن على سمعتهن على الــرغم من حريتهن ، حتى قال لي صديق من أصدقائي الأميركان : انكم تعرفون نساء أمــيركة في « هوليود » ليس غير ، فيذهب ظنكم الى أن نساء أميركة كلهن من هــذا النوع الذي ترونه على الستارة البيضــاء ، ولكنكم لا تعلمون أن الأميركي شديد الغيرة على عرضه ، وقد يؤدي الاعتداء على هذا العرض في أكثر الأوقات الى القتل .

هذه أمور لا أستطيع بيان الرأي فيها ، لأنها تحتاج الى تعمق في الدراسة ، ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن الطالبة في الجامعة لا يقل اهتمامها بالتحصيل عن اهتمامها بالاهتداء الى الزوج ، لأنهــا بعــد خروجها من الجامعة لا يتسع لها المجال للتفتيش عن زوج لها ، وكذلك الطالب ، واذا بلغت الطالبة ثلاثا وعشرين سنة أو أربعا وعشرين سنة ولم تتزوج صعب عليها الزواج ، فلذلك تصرف همها في الجامعة الى الدراسة والى البحث عن زوج في وقت واحــد ، والطالبات اللواتي تعرفت اليهن كل واحــدة منهن خاتم الخطبة في إصبعها ، والزوجان متعادلان في السن أو متقاربان ، وقد يجوز أن يزيد الزوج على الزوجة سنتين أو ثلاث سنين .

حديث في جامعة

تعرف إلي طالب من طلاب جامعة وليمسبرغ ، لهذا الطالب صديقة تدرس في الجامعة ، وأظن أنها تدرس تاريخ بلادنا ، فذكرت لأستاذها أمي ، فأحب الأستاذ أن أزوره في قاعة التـدريس ، وأن أتحدث في القاعة بمحضر من الطلاب عن أمور الشرق ، ونقلت إلي هذه الطالبة رغبة أستاذها في هذا الشأن ، فوافقت على ذلك •

دخلت قاعة التدريس وكان فيهـا على ما أذكر مقدار ثلاثين أو أربعين طالبا وطالبة ، انهم يفضلون الحديث على المحاضرة ، ويهتمون بالسؤالات والجوابات ، فهم يرون في هذا النوع فائدة أقرب •

شرع الطلاب يلقون علي السؤالات ، كل واحد منهم على حدة ، كان السؤال الأول : انكم تقيمون ببلاد فيهـا أديان مختلفة ، فكيف يقوم أصحاب هـذه الأديان بأحكام شرائعهم ، أي هل يتمتعون من الحرية في صلواتهم ، فقلت : للمسلمين مسـاجدهم ، وللنصـارى كنائسهم ، ولليهود كنيسهم ، وأصوات المؤذنين ودقات النـواقيس تشق في الليل والنهار أعنان السماء ، فكل صاحب دين يدخل معبده ، فيصلي ما شاء ويعبد ربه ما شاء ، ولا أحد يتجاسر على منع أحد عن دخول مسجده أو كنيسته أو كنيسه ، فان حرية الأديان مضمونة •

فرغت من هذا الجواب ، ففاجأني طالب بسؤال آخر : ان عندكم مجلس نواب ، فكيف تؤلف الحكومة ، هل عندكم حزبان ، فقلت له :

ان عندنا أحزابا كثيرة في المجلس ، ويندر أن يظفر أحد هذه الأحزاب بأكثرية تمكنه من الحكم ، فلا بد له من أن يستعين بنواب من أحزاب ثانية ، حتى يستطيع تأليف الحكومة ، فاستغرب الطلاب هذا الأمر كثيرا وقالوا لي : انا نعجب من هـذا الأسلوب في الحكم ، ونعجب كيف تستطيع الحكومة أن تحكم على هذا الشكل .

ثم طرح علي طالب آخر هذا السؤال : ما هي الأسباب في عداوة السعوديين والهاشميين ولما كنت واقفا بعض الوقوف على العقليـة الأميركية أحببت أن أكون صريحا في الجواب ، قلت لهـذا الطالب : انك تعرف أن السعوديين هجموا على الحجاز من سنين وأخـرجوا الهاشميين منه واستولوا عليه ، فتشتت الهاشميون في الأردن والعراق ، وبقيت في نفوس القوم جـراحات من تلك الأيام ، ولكن ثقـوا بأن السعوديين والهاشميين لا خلاف بينهم في قضية فلسطين ، فقد عرضت القضية مرات كثيرة على مجلس الجامعة العربية ، فكان للدول العربية كلها رأي واحد فيها ، ورغبة واحدة ، وهي إخراج اليهود من فلسطين .

وبعد هذه السؤالات كلهـا وصلنا الى الطامة الكبرى ، قال لي الطـلاب : هل تعتقدون في بلادكم أن أميركة دولة مستعمرة ، هـل تنظرون اليها مثل نظركم الى فرنسة في إفريقية ، قلت لهؤلاء الطلاب : قدمت بلادنا بعـد الحرب الكبرى الأولى لجنة أميركية اسمها : لجنة كراين ، وقد قدمت سورية لاستفتاء أهلها في تقرير مصيرهم ، فأقامت بميدان من ميادين دمشق ، وهو المرجة ، وأخذ الناس يفدون عليها ، فكانت تسأل كل واحد هذا السؤال : ماذا تريدون ، فكان النـاس بأجمعهم يجيبون بأنا نريد الاستقلال التام ، واذا لم يتيسر لنا هـذا الاستقلال فانا نطلب انتداب أميركة ، واذا رفضت أميركة فانا نطلب انتداب انكلترة ، واذا تعـذر ذلك فانا نرفض فرنسة رفضا باتا ، من

هذا يتبين لكم منزلة أميركة في سورية بعد الحرب الأولى ، فقد كان للناس بها الثقة الكبرى ، وحسبهم أنهم جعلوها في المقـام الذي يلي الاستقلال ، فقد فضلوها على الدول كلها لايمانهم بحرصها على حرية الشعوب وبعـدها عن الاستعمار ، وتأكدت لهم نياتهـا الحسنة من سياسة رئيسها ولسن ، إلا أن الناس غيروا رأيهم فيها بعد ذلك لأنها غيَّرت سياستها ، فأعانت المعتدين على اعتدائهم ، أعانت اليهود على إنشاء دولتهم على البـاطل ، ومكنت لهذا البـاطل ولم تحافظ على المبادىء القويمة التي خلَّفها لها جورج واشنطن ، فلا تستغربوا بعد ذلك اذا تغير رأي السوريين في أميركة ، فقالت طالبة من الطالبات : ولكن ما ذنب الولايات المتحدة في قضية اليهود ، فان الذين يجمعون المال لاسرائيل في الولايات المتحدة انما هم اليهود أنفسهم ، ولا دخل للحكومة في ذلك . قلت لهذه الطالبة : أنسيت أن هيئة الأمم المتحدة مقرها « نيويورك » وأن النفوذ الأكبر في هذه الهيئة انما هو لأميركة فاذا شاءت أن تحمل اليهود على تطبيق مقررات الأمم المتحدة فانهـا قادرة على ذلك ، واذا شاءت أن تحمل اليهود على اعـادة الحق الى أصحابه فانها قادرة على ذلك ، ولا يبقى بعد هذا كله قيمة لجمع المال من اليهود أو من غيرهم ، فان الناس يشكون حماية الولايات المتحدة لليهود ، ولو لاهذه الحماية لما بالى العرب باليهود ولا بجمع المال لهم .

هذا آخـر ما بقي في ذهني من أحاديث ساعة قضيتها بين طلاب يرغبون في الوصول الى المجهولات من الأمور ، ثم شكر لي الأستاذ والطلاب ، فودعتهم وانصرفت .

غـــــرائـــب

من ربع قرن جاءتني سيدة أميركية وقد كنت في وزارة المعارف فقالت لي : اني أعنى بالصوفية ، وقد زرت الشيخ بدر الدين الحسني ، وهو مثل الملائكة ، ثم قالت لي : ان لي ولعا بالخط الكوفي ، فقلت لها : هل تستطيعين أن تكتبي لي شيئا بخطك الكوفي لأحفظه ذكرى ، فأخرجت قلما وأعطيتها ورقا وكتبت سطرين في سرعة غريبة ، وأعطتني الورقة وانصرفت ، فاحتفظت بها واتفق أن زارني مدير المتحف الأمير جعفر الحسني ، فأخرجت الورقة من الدرج وسألته : ما هذا النوع من الخطوط يا أمير ، فاعتقد لأول وهلة أن الأمر جد وأخذ يدقق في الخط ، ثم تبين له الخلط فقال : هذا ما كنا نسميه في صغرنا : خرابيش الجاج .

ومن أسبوع طلبت الي السيدة التي أسكن دارها في وليمسبرغ أن أزور سيدة أميركية قريبة من مدرسة ابنهـا ، فوافقتها على ذلك ، وتوجهنا نحو دار هـذه السيدة ، والدور في هـذه المدينة الشعرية مفتوحة أبوابها في الليل والنهار ، سواء أكان أهلها فيها أم لم يكونوا ، وليس للدور أجراس وانما لها ما نسميه في دمشق : سقاطات ، ويدخل الزائر عادة دون أن يدق البـاب ، فهو ينـادي صاحبة الدار ، فاذا أجابت دخل ، وهكذا فعلنـا ، فاستقبلتنا السيدة ووقعت عيني على صورة في الحائط وهي صورة شيخ جليل القـدر في عمامته البيضاء

وجبته السوداء ولحيته ، فلم أشأ أن أسأل عن هذه الصورة ، ولما استقر بنا المقام اندفعت السيدة في الكلام وقالت : اني على المذهب البهائي ، وهذه صورة صاحب مذهبنا معلقة على الجدار وأنا أذهب من سنة الى سنة الى حيفا وأزور مقامه ، ووددت لو أجد من يعلمني الفارسية ، فسألتها بعض السيدات عن هذا المذهب فقالت : انا نؤمن بالنبوات ومن جملتها نبوة سيدنا محمد ، فقلت لها : الحمد لله الذي أدخل في الاسلام سيدة جديدة تؤمن بنبوة نبينا ، ولماذا لا تنشرين هذا المذهب في بلدك ، فقالت : لست خطيبة ، فقلت لها : خاطبي الناس كما تخاطبين زوارك الآن ، فأنا من هذه الساعة أوشكت أن أكون على مذهبك !

ومن أسبوعين أرسلت إلي الجريدة التي تصدر في وليمسبرغ وهي « ديلي پرس » محررها ، فتعرف إلي وسألني شيئا عن حياتي وعن رأيي في جامعات أميركة ، ثم كتب مقالا في ترجمة حياتي ونشره في الجريدة ضمنه انتقادي لبعض أساليب التدريس في الجامعات الأميركية ، وقد جاءني بعد ذلك بيوم ، فشكرت له فضله ، فقال : ان لي حديثا آخر معك فهل تتكرم بزيارتي في المكتب ، فذهبت معه الى المكتب ، فقال : اني أعنى ببعض أمور الشرق وهو شاب يوناني الأصل ولكنه أميركي ، وقد رأيته مرات في مكتبة جامعة وليمسبرغ يبحث عن بعض الكتب ورأيته يطالع رواية من روايات دوستويفسكي وهي : الجريمة والعقاب .

أخذ هذا الشاب يسألني في المكتب عن الدراويش المولوية ، فذكرت له شيئا قليلا عن الصوفية في أول أمرها ثم كيف تطورت في آخر الأمر حتى دخلها التدجيل ، وقلت له : يا أخي انك لا تجد في بلادنا الآن من يهتم بأمر الدراويش ولا تجد من يفرق بين السنة والشيعة وهذه نعمة كانت في القديم لأسباب لا مجال لذكرها . أما

اليوم فان الناس يهتمون بأمور طارئة تشغلهم أكثر من المولوية ، انهم يعنون بأمور استقلالهم واقتصادهم وما شابه ذلك ، ولو سألت غيري لأجابك الجواب نفسه ، ويظهر على هذا الشاب أثر الذوق ، فاعتذر أرق اعتذار ، ثم أغلق هذا الباب .

وأذكر مرة في مؤتمر برنستن الذي عقد سنة ١٩٥٣ وحضره بعض علماء الشرق أن كنا نبحث عن شيء في شرع الاسلام ، فنهض أحد الأساتذة وفتح باب السنة والشيعة ، فرد عليه الدكتور جواد علي وهو من العراق وقال له : لا فرق بين السنة والشيعة إلا في أمور بسيطة جدا ، ثم أغلق هذا الباب .

هذه الأمور القليلة تدلنا على الزاوية التي ينظر منها بعض الأميركان الى بلادنا ، فهذه البلاد في نظر طائفة منهم بلاد الخط الكوفي والبهائية والدراويش المولوية والسنة والشيعة وغير ذلك مما أوشك أن لا يكون له أثر ، أما الأمور التي تشغل بلاد العرب في حاضرها ، أمور السياسة والاقتصاد وغيرها فان أكثر الأميركان لا يكادون يعرفون عنها شيئا ، وقد أخذت بعض الجامعات تعنى بدراسة تاريخنا ولغتنا ، ولكن لست أدري هل انتخبت هذه الجامعات أساتذة مخلصين مجردين يتخلون في تدريسهم عن كل نزعة دينية أو سياسية ، فاني ما أزال أذكر أن في بعض الجامعات أساتذة من اليهود يدرسون هذا التاريخ ، وقد دفع الي مدير المخطوطات في مكتبة جامعة وليمسبرغ كتابا لأقرأه ، عنوانه : الميراث العربي ، تضافر على تأليفه تسعة أساتذة ، يبحث هذا الكتاب عن علوم العرب والجاهلية ومصادر الاسلام وشعر العرب والغزالي والحروب الصليبية والجهاد والفن الاسلامي وغير ذلك ، قرأت قسما كبيرا من هذا الكتاب ولما وصلت الى فصل مصادر الاسلام رأيت ان المؤلف انصرف الى المقابلة بين آيات القرآن وبين ما ورد في معانيها في التوراة والانجيل بدلا من أن ينصرف الى تعريف الأميركان ماهو الاسلام وما هي فضائله .

ANNAPOLIS اناپوليس

نـــــــزهــــة

ليس لكلمة السيران في اللغة الفصحى المعنى الذي لهـا في اللغة العامة ، وليتنا نستطيع جمعها على سيارين كما تجمعها العامة ، فلست أعتقد أن النزهة تقوم مقامها ، فاذا قلنا في دمشق : فلان في السيران هو وأهله تصورنا في الحال جماعة أخـذوا أكلهم وشربهم وسـائر حاجاتهم وانطلقوا الى بستان من البساتين أو الى واد من الأودية أو الى مرج من المروج ، فمدوا على الأرض بسطهم وحصيرهم وطبخوا ما شاؤا أن يطبخوا وشربوا ما شاؤا أن يشربوا وغنوا ومرحوا ماشاؤا أن يغنوا ويمرحوا ، هذه الأمور كلها تشتمل عليها في لغة دمشق العامة كلمة السيران ، أمَّا النزهة فلا يراد بهـا إلا ترك المدينة سـاعة من الساعات لشم الهواء الطلق فهي لا تستلزم كل ما ذكـرته من الأكل والشرب وما شابه ذلك .

دعانا الى نزهة في مدينة « اناپوليس » صديق من أبنـاء بيروت يقيم بواشنطن ويعمل في وزارة الخارجية ، وزوجته أميركية ، وكان معنا صديقان آخران ، أحدهما من جبال العلويين في سورية والثاني من فلسطين ، وهما أميركيان بجنسيتهما ، وامـرأة كل واحد منهما أميركية الأصل ، دعانا الى أناپوليس وهي مدينة على أبواب واشنطن

واقعة على البحر الأطلسي ، فيهـا كلية بحرية مشهورة يتدرب طلابها على باخـرة في أمواه قناة ممدودة الى البحر • نستطيع أن نطلق على هذه النزهة اسم السيران ، لأن صاحب الدعوة قد حمـل في سيارته كل ما يلزم ضيوفه من أكل وشرب ، وجلسنا في مـرج أخضر على شاطىء البحر يشبه مرجنا الأخضر في دمشق قبـل أن تشوه محاسنه الفريدة مباني المعرض القبيحة ، في هذا المرج مقاعد ثابتة من حجر ، ومواقد ثابتة لشواء اللحم أو للطبخ ، فقضينا في هـذا السيران زمنا لا بأس به ، ولولا أن فاجأنا البرد لما غادرنا المكان •

ليس في هـذا الخاطر شيء من الطرافة يستحق التدوين في هذا الكتاب ، وانما أردت باثبـاته في هذا المقـام أن أؤيد ما سأفصله في خاطرآت من ان القوم في أميركة شرعوا يمتزجون بالطبيعة على قدر استعدادهم وامكانهم ، لقد كنـا نأكل ونشرب ونتحدث ونتصور ، فكانت تخطر على بالي حياة السيارين في دمشق ، اذ كنـا نبعد عن مشكلات الحياة العامة في يوم من لأيام ، فنخلو الى أنفسنا ، ونندفع في السرور والمرح حتى نعود الى أعمالنا أكثر نشاطا وأبعـد همة ، لا شك في أن الضيوف كلهم عرب ، فهم قد ألفوا هـذا النحو من العيشة ولكن زوجاتهم أميركانيات ، فقد وجـدت أن سرورهن كان أعظم من سرور أزواجهم الذين ألفوا هذا كله ، ومرحهن كان أشد ، وغبطتهن بهذا السيران أو بهذه النزهة كانت أبلغ •

إذا كنت قد أردت بتدوين‌هذا الخاطر الاشارة الى طرز من الحياة مألوف في الولايات المتحدة أو على الأصح في أناپوليس وهي حيـاة الطبيعة والبعد عن المشكلات في حين من الأحيـان والانصراف الى الراحة والمرح بضع ساعات من النهار فقد أردت بتدوينه شيئا آخر ، كان يوم السيران يوم الأحد ، فقد انتشر طلاب البحرية الشباب ومع

كل طالب فتاة من الفتيات تخاصره ويخاصرها ، وللفتيات ولع برجال البحرية غريب ، فهن يملن اليهم ويفضلنهم على سائر الطبقات من الرجال ، وقد حصل في نفسي الشك في حصانة الفتاة الأميركية التي أطروها لي ، فان بعض الفتيات اذا اجتمعن الى شباب من أعمارهن دخل بينهم الشياطين ، واذا دخل الشيطان بين الفتى والفتاة عرف القارىء عاقبة هذا الأمر .

فيلادلفيه PHILADELPHIA

ازاهير تصاوير انغام

لا ينبغي لي أن اغادر الولايات المتحدة دون أن أمسح من ذهني صورة رسخت فيه من أول الرحلة ، فقد كنت أعتقد ولا يزال كثير من الناس يعتقدون أن الأميركان أبعد خلق الله عن الفنون الرفيعة ولا يخلو هذا الاعتقاد من كثير من الصحة ، فان الذي يزور هذه المعامل في أميركة ثم يرى هذا الدخان الذاهب في السماء يذهب وهمه لأول وهلة الى أن هذا الطراز من الحياة الميكانيكية بعيد عن حياة الفن والذي يبدو لي أن الأميركان أخذوا يشعرون بهذا الضعف في حياتهم، فأحبوا أن يجربوا طرازا آخر من الحياة ولا أبالغ اذا قلت انهم في تجربتهم هذه برعوا البراعة كلها ، حتى ان الانسان لا يكاد يصدق أن من ورآء هذه المعامل وهذا الدخان جوا صافيا تشيع فيه الفنون الرفيعة ويستفيض فيه حب الأزاهير والتصاوير والأنغام .

دعتني الى زيارتها أسرة تقيم بفيلادلفية ، فلبيت الدعوة ومن محاسن الاتفاق أن هذه المدينة العظيمة كانت مقيمة يوم وصولي معرض الأزاهير ، فاقترح علي صاحب الدعوة أن أزور هذا المعرض ، ففعلت ، واذا كان لا بد لي من تدوين أول شعوري في دخولي هذا المعرض فاني أقول ما كادت قدمي تطأ هذه الجنة حتى استولى علي كثير من الدهشة ، فقلت في نفسي كيف يصدق الانسان أن شعبا مثل

هـذا الشعب الأميركي منصرفا الى فك الآلات وتركيبها ، غارقا في دخان هذه الآلات ، مصروعاً في ضجتها وضوضائها يولع هذا الولع بحياة الشعر ، حياة الأزاهير وروائحها ، واذا كنت أستطيع أن أصف عظمة المعرض من حيث اتساعه أو كنت أستطيع أن أصف مقـاطعه وترتيبه فاني عاجز عن وصف شيء أعظم من هذا كله ، اني لا أجـد في ذهني مفردات أسمّي بها أصناف هذه الأزاهير وألوانها وأوراقها وروائحها ، ولست أعلم هل في لغتنا طائفة من هـذه المفردات قادرة على هذا العمل ، اذا دخل الانسان هذا المعرض حسب نفسه في عالم جديد غير العالم الذي غادره على أبواب المعرض ، واذا قلت انه حسب نفسه في جنة فلا أشتط في التعبير ، فقد كنت أجول كما يجول الناس، وأنظر كما ينظرون وأشم كما يشمون ، وأعجب كما يعجبون ، ثم كنت أشعر بأني لا أملك نفسي ، أين أنا ، أهذه هي الجنة التي جاء ذكرها في كتاب الله ، لقد كنت أرى فيها كل شيء ، ما خلا أمراً واحداً لا أثر له وهو الحور العين فما كانت تقع عيني إلا على عجائز تجر كل واحدة منهن نفسها جرا ، فكأنهن جئن هذا المعرض ليذكرن فيه نعومة الصبا ، كأن كل واحدة تقول في نفسها : اني من ستين أو سبعين سنة كنت مثل هذه الزهرة ، أضحك ضحكها ، وأبتسم ابتسامتها ، فتخفف بمثل هذا القول شيئا من ألم الشيخوخة وعذاب الهرم وجنون الخرف ، وسوآء عليها بعد هـذه الذكرى أأصبحت سنديانة نخرة أم أصبحت حورة مسوسة ، أم أصبحت نخلة يابسة ، فانها في نظر نفسها لا تزال زهرة زاهية ووردة ضاحكة ، وما عليها اذا بلغت السبعين أو الثمانين •

لندع هذه المساكين في تأملاتهن وأحلامهن وذكرهن ، فقد أخذت الفتيات يفدن على المعرض لأن الوقت وقت الظهر ، فهن قد غـادرن أعمالهن في المكاتب والمخازن والدكاكين والمعـامل ، وهن قد غادرن

الدراسة في المدارس والجامعات ، وجئن المعـرض لا ليتفرجن فليس في قلوبهن شيء من الهم ولكنهن جئن هذا المعرض ليضفن الى حسنه شيئا من حسنهن ، والى فتنته شيئا من فتنتهن ، والى سحره شيئا من سحرهن ، وهكذا اجتمع في يوم من أيام آذار رونق الطبيعة ورونق الجمال ، فلتتمتع العين من هذه الطبيعة ومن هذا الجمال ، فان الدنيا كلها أحـلام !

أظن أني كدت أنحرف عن موضوعي ، فقد جمح بي القلم ، فمالي وللعجائز ، مالي وللفتيات ، كل همي في خاطري هذا أن أنفي من ذهني الوهم الذي تقدمت الاشارة اليه ، فقد طفق الأميركان يشعرون بميل الى الطبيعة والى التصاوير والى الأنغام ، لقـد طفقوا يشعرون بميل الى الفن ، ويكاد يكون معرض فيلادلفية لا شيء بالقياس الى معرض واشنطن ، ولكني لم أزر معرض واشنطن ، وانما سمعت وصفه ، واذا فاتتني هـذه الفرجة فلم تفتني فرجة غيرها في المتحف الوطنـي في واشنطن ، ان ما يشتمل عليه هـذا المتحف من مختلف الآثار ، آثار التصوير والنسج والنحت والأواني ، يدل دلالة قوية على ما قلت من أن الأميركان أخذوا ينصرفون الى ما يلطف الحيـاة ويحسنها ، قد تكون آثار هذا المتحف غير أميركية ، فهي مجلوبة ، ولكن الأميركي البحت فيها انما هو حسن التنسيق والترتيب والتنظيم والانسجام ، الأميركي البحت فيها انما هو حسن الذوق وهذا كاف على ما أظن ، ولما خرجت من المتحف وجدت على بابه رجلين فرنسيين ينقدان المتحف، فسألتهما رأيهمـا فيه ، فتحفظا كل التحفظ وقد ظنـا أني أمـيركي أستدرجهما استدراجا ، ثم انطلقا بعض الانطلاق فقالا لي : ليس في المتحف شيء أميركي ، فقـد يحتاج الى الشخصية الأميركية ، ولكن هذه الشخصية قد تتم في المستقبل .

واذا أضفت الى هذه الفرجة فرجة ثالثة وهي سماع الموسيقى في

قاعة من قاعات وزارة التجارة في واشنطن استطعت أن أؤيد اعتقادي أن حياة الأميركان شرعت تنتقل من طور مادي الى طور معنوي ، وان كان هذا الانتقال ما يزال على قيـاس ضعيف ، ان طائفة من أصحاب الوظائف في الحكومة لهم ميل الى الموسيقى فهم يجتمعون من وقت الى آخر بمختلف آلاتهم في قاعة من قاعات وزارة التجارة ويعزفون على شبه مسرح أو يغتنمون فرصة قدوم موسيقار مشهور الى الولايات المتحدة فيدعونه الى هذه القاعة ويباح للجماهير الدخول والسماع .

فاذا كنت أغادر الولايات المتحدة للمرة الثانية ونصب عيني دخان المعامل وملء أذني ضوضاء الآلات وأمام فكري حياة اجتماعية جافة عابسة لا مرح ولا حبور ، فاني أغادرها وفي اعتقادي أن الحياة الفنية أخذت تخفف من ثقل كل ما ذكرت ، وأظن أنه اذا شاعت هذه الحياة الفنية في الولايات المتحدة فقد يلطف الشعور العـام ، وقد يجوز أن يكون للطافة هذا الشعور أثر في السياسة العـامة ، سياسة السلم في العـالم كله !

خاتمة المطاف

واشنطن ١٧ آذار ١٩٥٦

سأنعم قريبا بالعودة الى دمشق ، وسأتمتع من سحرها الغالب على كل طرف من أطرافها ، على جرد جبالها وغلب حدائقها ، واذا كان في البعد عنها حينا من الدهر فائدة من الفوائد فما هذه الفائدة الا زيادة الشعور بالحنين الى ظلال بساتينها وهدوء أوديتها ورقة هواء جبالها وعذوبة ماء عيونها ، ولقد كنت في بعض الأوقات وأنا في مدينة من أعظم مدن العالم لا أعدل بدمشق الدنيا بحذافيرها ، سأنعم قريبا بالعودة اليها وفي ذهني ذكر كثيرة من رحلتي ، واذا كان المجال لا يتسع لهذه الذكر كلها فانه يتسع لخاطر واحد من الخواطر أحببت أن أجعله خاتمة المطاف .

لي صديق في لبنان كان أستاذاً في الجامعة الأميركية في بيروت ودرس في احدى جامعات أميركة وتزوج فتاة أميركية من « فيلادلفية » وقد كتب إلي كتابا من بيروت وألح علي فيه وألحت زوجته وألح أهلها في زيارتهم في « فيلادلفية » فما وسعني بعد هذه الالحاحات الكثيرة الا تلبية الدعوة ، فغادرت « واشنطن » في يوم شتاء وقصدت الى « فيلادلفية » وهي تبعد بالقطار ثلاث ساعات إلا قليلا ، لا أريد أن أصف شيئا من هذه الزيارة ، فقد طويت خواطري كلها ولكني لم أطو خاطرا واحدا منها ، فقد كنت في القطار أصوب النظر وأصعّده مرة

في مشاهد الطبيعة ومرة في الجدران الواقعة على مقربة من خط الحديد ، وأذكر أني قرأت على أحد هذه الجدران الاعلان الآتي : ما تعمله « شستر » يعمل « شستر » واذا أحببت أن أصيغ هذا الاعلان في عبارة فصيحة قلت : على قدر ما تعمله مدينة « شستر » تكون عظمة هذه المدينة .

لقد اقتبست هذا الاعلان فأردت أن أقول : على قدر ما تعمله سورية تكون عظمتها ، ولكن العمل الذي أعنيه غير العمل الذي يعنيه أهل « شستر » اني لم أزر هذه المدينة ولكن الظاهر انها من مدن أميركة الصناعية ، فعظمتها وعظمة جاراتها في الصناعة ، أمّا أنا فلا أقول ان عظمة سورية في الصناعة ، فأنّا مهما ننتج فلا يكون انتاجنا شيئا بالنسبة الى ما تنتجه المدن الكبيرة ، وانّا مهما يكثر عددنا فان كثرته لا تكون شيئا بالنسبة الى كثرة غيرنا ، فاذا كان أهل سورية يبلغ عددهم أربعة ملايين فان هذا العدد أقل من نصف سكان بعض المدن الكبيرة في العالم ، فلا نفخر بالثروة المادية التي يفخرون بها ، ولكنا نفخر بشيء أعظم من كل ثروة ومن كل مادة .

لقد دخلت فرنسة بلادنا وما لبثت أن خرجت منها بعد ربع قرن ولم تخرج بفضل سلاحنا ولكن شعراءنا وكتابنا وخطباءنا ورجال سياستنا ظلوا يلهبون القلوب ويغرسون فيها بغض الاستعمار ربع قرن كامل حتى اذا أمكنت الفرص قضي على هذا الاستعمار في طرفة عين .

واذا قسنا قوة اسرائيل الى قوة فرنسة فانها لا تكون شيئا بالنسبة اليها ، فكما خرجت فرنسة من بلادنا بقوة ايمان أهل البلاد فسيأتي يوم تخرج فيه اسرائيل من فلسطين بقوة مثل تلك القوة .

لا يقعن في خلد أحد ان المعامل وحدها انما هي عنوان عظمة الأمة ، فان أميركة لم تبلغ عظمتها بفضل معاملها وحدها ، ولكنها بلغت هذه

العظمة بفضل الروح التي خلقت هذه المعامل ، انها بلغت هذه العظمة بفضل مغامرة أبنائها الأولين الذين حولوا غاباتها وصحاراها وسهولها الى مدن تستوفي أعظم ما تحتاج اليه حضارة هذا العصر ، فلا يخطرن ببال أحد أنّا نستطيع أن نخلق صناعات أو تجارات أو زراعات بروح مادية وحدها ولكن خلق هذه الأمور المادية يحتاج الى قوة معنوية في أول الأمر وهذه القوة المعنوية نجدها في ميراثنا الفكري الذي خلفه لنا العرب من قديم الدهر ، لقد خلّف لنا العرب ميراثا في الفكر والروح والشعور لا يعدله ميراث المعامل ، فاذا قلبنا النظر في هذه الكتب التي تملأ خزائننا في بلادنا وفي أوروبة نفسها فانا نجد فيها قوة لا تعدلها قوة النفّاثات والقنابل الذرية ، فان المثل الأعلى في القديم هو الذي جعل العرب يستولون على الدنيا بمجامعها ، ان أدبنا ملآن من الأخلاق القوية التي سالت على أقلام رجال شعرنا وفكرنا وفلسفتنا ، فان ما أورثنا إيّاه بعض شعرائنا وأصحاب الفكر فينا من روح البطولة ومن صوفية طاهرة عاملة ومن أدب روحاني رفيع يجعل من ضعفنا قوة ندفع بها جبروت كل جبّار عنيد .

ولكن هذه الكنوز مبعثرة في تضاعيف ميراثنا الفكري ، فعلى قدر ما تعمله سورية ، مدارسها وجامعاتها ورجال الفكر فيها ، على قدر ما تعمله في الاقتباس من هذه الكنوز ومما تشتمل عليه من بطولات ومغامرات وفلسفات وآداب تكون عظمة سورية .

بعض ما اهتدينا اليه من الخطأ

الصفحة	الخطأ	الصواب
٢٥	والتنكيت حتى يخف عناء الجد ، والمشهود فيها ميل الأميركان الى المرح (السطر ٢٠)	يعودون اليه ، ثم يعترضون ولا بدّ في هذه المؤتمرات من شيء من المزح ..
٥٥	مللنا من التجول ...	مللنا من الجولان ...
٥٩	وأذهب جهة مرّة ...	وأذهب الى جهة مرّة ...
٦٥	وضعفت النَفَس ..	وضعف النَفَس
٦٩	فهي الطالب ...	فهم الطالب ...
٧٠	يدرس Guy الجامعة ...	يدرس Guy في الجامعة ...
٧٢	وهذا الصديق لا أنساه ..	وهذا الصديق مطافاً لا أنساه ..
٧٥	الصور الفربية ...	الصور الفريبة ..
٧٥	يحرمنا من نعمة ...	يحرمنا نعمة ...
٧٧	محوّط عجلة ...	محوّط ، فيه عجلة ...
١١٠	في الحاشية :	
	والخلبة الخداعة ...	والخلاّبة ...
١١٠	أبلغ صورة وأعمر ...	أبلغ صورة وأعمقها ...
١٢٠	رشيقة القوم ...	رشيقة القوام ...
١٢٠	إحدى المخازن ...	أحد المخازن ...
١٥٧	To Finich	To Finish
١٧٤	تزيد عن ...	تزيد على ...
١٨٥	على شكل مستقيم ...	على شكل خط مستقيم
٢٤١	تكان تكون ...	تكاد تكون ...
٢٤١	التابعة الأميركية ...	التابعية الأميركية ...
٢٥٤	أمي ...	أمري ...

ملتزم
الطبع والنشر
الفن الحديث العالمي
دمشق : شارع بور سعيد رقم ١١٧
ص. ب. : ٢٠١ هاتف : ١٣١٤٧

مطابع فتى العرب ـ دمشق : شارع الفردوس
زنكوغراف ايوبية ـ دمشق : شارع بور سعيد

ملتزم الطبع والنشر

الفن الحديث العالمي

ثمن النسخة ٢٦٥ ق٠س أو ما يعادلها